نوادر دومبادزه

اشهر روائيي جورجيا

لا تخافي يا ماما

الأمين

لا تخافي يا ماما !

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخـــراج الفـــني: وفـــاء الســـاطي

نودار دومبادزه..

لا تخافي يا ماما!

ترجمة
أحمد ناصر

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الرواية (6)
2012

الكاتب في سطور

ولد الكاتب المبدع نودار فلاديمرفيتس دومبادزه في مدينة تبليسي، في الرابع عشر من تموز (يوليو) 1928 وتوفي في الرابع عشر من أيلول (سبتمبر) 1984.

اعتقل والده عام 1937، وكان عمر كاتبنا ثمانية أعوام، ثم أعدم كعدو للشعب (هكذا كانت تسمي السلطة الستالينية مناوئيها)، ثم اعتقلت أمه أيضاً، ولم يرها إلا بعد وفاة ستالين عام 1953، وكان عمر الكاتب خمسة وعشرين عاماً...

تخرج في جامعة جورجيا ـ كلية الاقتصاد.

من مؤلفاته :(أنا وجدتي وإليكو وإيلاريون) و(أرى الشمس) و" ناموس الأبدية " ـ هذه الكتب الثلاثة ترجمتها " دار التقدم " إلى العربية و" الرايات البيضاء " (ترجمها د. نوفل نيوف ود. عادل إسماعيل)، و(الليلة المشمسة) و(لا تخافي يا ماما!) و(قانون الخلود)و(القسيمة المضمونة)... بالإضافة إلى عشرات القصص التي تضاهي بروعتها رواياته..الخ..

نال دومبادزه العديد من الجوائز، منها ـ جائزة لينين ـ وكانت آنذاك أرفع الجوائز ـ وجائزة غروزيا السوفيتية وجائزة الكومسومول.

عبر مؤلفاته كلها تتألق الشمس زاهية، مشرقة، كأنه مغرم متيّم لا يمل من الطواف حولها دون كلل!

تقديم

لابد لقارئ دومبادزه من أن يتحسس دفء الكاتب الروحي المفعم حبا وطيبة، ولابدّ له من أن يلمس تعلّقه وإيمانه الثابت بقيمة الإنسان وتفاؤله الدائم بالمستقبل، وكل ذلك عبر غشاء شفيف من السخرية الحزينة التي تميز أدبه الرفيع.....

منذ بدايات دومبادزه والشمس تشع، كبطلٍ دائم، في قلبه وعبر نتاجه الأدبي الغزير.

يمتاز أسلوب دومبادزه ببساطته وبعده عن التكلف. كتب دومبادزه روايته ((لا تخافي يا ماما!))عام 1969. وقد كانت فترة الستينات مميزة، في نظري، جمعت بين ازدهار الاتحاد السوفيتي ودبيب السوس في كيانه. وقد قيّض لي أن أعيش شهراً في غروزيا، في مدينة غاغرا الساحلية الرائعة عام 1969، لم تتلمس عيناي هناك أي ملمح من ملامح الاشتراكية. وبطل الرواية يعاني هذه الحالة ـ حالة المحسوبية وغياب مبدأ تكافؤ الفرص في أثناء انتسابه لمعهد الطب....

تهيمن السيرة الذاتية على أغلب روايات دومبادزه، ففي روايتنا هذه يفقد البطل الرئيس والديه، كما يفقد تِربه الكردي، مما يتقاطع مع سيرة المؤلف..و يُخيَّلُ إليَّ أن الكاتب، في رواية " لا تخافي يا ماما! "، على الرغم من سعة خياله، يوثّق لأحداثٍ حقيقية عاش بعضا منها، وسمع أغلبها من مصادر صادقة..

وفي هذا السياق يوثّق الكاتب لحادثة استيلاء الشبان الشيوعيين على الكنيسة وخلع الصليب من على قبتها.

وفي أثناء تسلق بطل الرواية إلى سطح القبة يُجري حواراً بينه وبين الإله. وقد آثرت الإبقاء على هذا الحوار تمشياً مع أمانة الترجمة واحتراما للكاتب و" أيقونته " الأدبية الرائعة.

و تجدر الإشارة إلى أن الكاتب توفي بذبحة صدرية عن عمر يناهز السادسة والخمسين. لعل قصر أعمار المبدعين العمالقة، يعود، كما أظن، لاتساع الهوة بين ما يؤمنون به وما يُعاش على أرض الواقع.

أما عن علاقتي بهذه الرواية، فقد قرأتها عام 1975، أي بعد عام من إصدارها باللغة الروسية، فأُخذت بها وقررت ترجمتها، وكنت يومها غرا، وقدمتها إلى وزارة الثقافة عام 1976. رفضتها الوزارة. ولم أكتشف جسامة الأخطاء التي ارتكبتها في الترجمة إلا بعد سنوات مديدة.

و ظلت ترجمتها هاجسا مكبوتا حتى العام الفائت 2010، فعدت إليها بعد ستة وثلاثين عاما، وأعدت ترجمتها من جديد.. أرجو أن أكون قد تلافيت عثراتي الأولى، أو أغلبها على الأقل!.. والله الموفق..

المترجم

انطفأت النجمة الأخيرة. سكتت الكلاب والديكة معاً، كأنها قد توافقت على ذلك. هدأت الأشجار وسكن البحر، وبدا كأنْ لا وجود له في المطلق. تلاشى الضباب من على سفوح الجبال. وفجأة شحب الليل ـ حدث هذا كله في ثوانٍ معدودة. بدا العالم كله، كأنما حوّل وجهه نحو الشرق محدقا إلى الجبل المحدودب، بانتظار أمر ـ ما عجيب ـ لقد حدثت أروع المعجزات في الطبيعة، معجزة انبعاث الحياة....

ـ اسمع يا(شيربينا)، هيّا اصعدْ إلى هنا!

ـ ماذا تريد ؟

ـ اصعدْ، أقول لك، ستشرق الشمس الآن!

ـ فليكن ذلك.. هذا يتكرر كل يوم.

ـ يا لكَ من غريب! يا للجمال!

ـ دعني وشأني!....

ـ هيا اصعد ولن تندم!

ـ إلى أعلى فأسفل، إلى أعلى فأسفل! قد مللتُ هذا.ثم قريباً ستحل النوبة.

ـ حسن، فليصحبك الشيطان! قفْ حيث أنت وتنعّمْ بمرأى الملاّ العجوز وهو يصعد إلى المئذنة.

ـ حسن، لا تصرخ.....

ـ أين بارخومنكو ؟ نادِه، دعه يصعد!

ـ مع الكلب ؟

ـ دع الكلب معك!

ـ أجننْتَ ؟ سيأكلني!

انبثقت الشمس، فجأة، جميلةً، دافئةً، ذهبيةً، منتعشةً ومنعشة. أحنت الشمس رأسها للعالم، ابتسمت، ضحكت. وضجت الغابة، صاح الديك ونبح الكلب، وهدر البحر، وتنفست الأرض ملء صدرها بحبور.

لقد اطلّ الصباح.

بكّلتُ غطاء المنظار.

ـ أين ضاعوا ؟ أكاد أموت جوعاً! ـ دمدم شيربينا.

ألقيتُ نظرة شاملة نحو الشِعْب: كان، ثمة، ثلاثة من حرس الحدود يصعدون الهوينى باتجاهنا.

ـ ها هم قادمون!

ــ حمداً لله! – أسند شيربينا بندقيته الأوتوماتيكية إلى سلّم المرصد وتمطّى بلذة – وهكذا انقضت ليلة في قطاع من حدود اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية دونما حادثة. وكفى! – قال هذا وأشعل سيجارة (البريما).

رحت أنزل من المرصد على مهل. كان الحذاء المُحدّى يرنُّ على درجات السلم: " أح، اثنين، ثلات.. أح، اثنين، ثلات " يا لطيف! إنه الجيش! حاول أن تعدّ إلى الأربعة، لا يستقيم هذا...(أح، اثنين، ثلات) ثم قف! وكأن الأربعة حدّ فاصل، ما يشبه ال (روبيكون)[1] لا يمكن تخطيه! وإذا ما تجاوزته، تستطيع أن تعدّ حتى المليون...

---

[1] Rubicon نهر صغير في شمال إيطاليا كان يفصل قديماً إيطاليا عن بلاد الغال. وقبل(يوليوس قيصر) كان عبور ذلك النهر محرماً على الجيش أو المقاتلين، لكن يوليوس قيصر عَبَر ذلك النهر قائلاً: قد أطلقنا السهم. فذهب قوله مثلاً. ملاحظة: المترجم

كان (شيربينا) و(بارخومنكو) ينتظرانني في الأسفل.

ـ اسمع .. أرى عينيك منتفختين! هل نمْتَ ؟ ـ سألت بارخومنكو ؛ ذا المترين طولا.

ـ وهل يسمح هذا البربري بالنوم ؟ ما إن تغمضَ عينيك حتى يمرر قائمته على أذنك (تسب). لقد وَجَدَ (زودوف) ما يعلّمه للكلب! ـ وبرفق ضربَ بارخومنكو بحذائه الكلبَ "تانغو" ذا اللسان الممدود.

ـ قد سعى زودوف لمصلحته؛ فالكسل يقعده عن حك جلده، فدرّب الكلبَ! - وانفجر شيربينا ضاحكا.

ــ مرحى لجنود (دزنيلادزه) الذين لا يقهرون، هورا! ــ رحبتُ بالحرس الصاعد.

عبس دزنيلادزه:

ــ دجاكيلي يقتضي النظام أن تنتظرني في المرصد وتشرح لي الموقف وتسلمني المركز!

ـ كل شيء مثبت في دفتر المناوبة، أيها الرفيق دزنيلادزه، ثم دعك من هذا الهراء!

ـ النظام هو النظام يا دجاكيلي! أنا مضطر لأن أنقل هذا كله لـ (تشخارتشفيلي)!

ـ تفضل وافعل ذلك، لكنني سأبلّغه قبلك عن دخولك غرفة الحجْر الصحي يا عزيزي.

ـ عمّ تتكلم ؟ ـ قال دزنيلادزه متحفزا.

ـ هيّا تذكّرْ كيف أوقعك الزحار، أنت ونسورك...؟ ؟ ألا يُشتمّ من هذا ثمار الماندرينا الخضراء الفجة من حديقة (علي خورافا) ؟

ـ مَنْ ؟...مَنْ قال لك ؟ ـ غصّ دزنيلادزه في كلامه.

ـ بتروف، ضحية الماندرينا! انظر إليه يكاد لا يستطيع الوقوف على قدميه. أبطال!

ـ خاننا النذل! ـ زمجر دزنيلادزه في وجه بتروف المستكين.

ـ ماذا بقي عليّ أن أفعل ؟ إنه ((شالفا)) ابن الكلب حبسني طويلاً أمام المرحاض إلى أن أفرغت... ـ قال بتروف متألماً.

ـ مفهوم أيها الرفيق دزنيلادزه ؟ ـ سألتُه بصرامة.

ـ مفهوم، مفهوم! هيّا من هنا! ـ لوّح بيده ثم اتجه نحو المرصد.

صرختُ بالجماعة:

ـ رتلاً اجتـ.........ـمع!

وقف بارخومنكو مع الكلب (تانغو) في المقدمة ووقف وراءه شيريينا.

ـ استـ...............ـعد! إلى السرية أمام..... سر! (أح، تنين، تلات)، (أح، تنين، تلات)... غنِّ يا بارخومنكو!

".. في صفَين خُلقت

جبال القوقاز "

و رنّ صوت بارخومنكو الصادح ثم تبعه شيريينا:

.. في صفيَن

جبال القوقاز....

وبعدئذٍ رحنا ثلاثتنا نغنّي بصوت مدوّ:

" والمفرزة، في أثناء مهمتها

أمسكت بالجاسوس "

ريثما علّمتهم أن يغنّوها بصوتين، تعذبت طوال العام المنصرم..

" آ...ه، في صفين
خُلقتْ جبال القوقاز،
والمفرزة، في أثناء مهمتها
أمسكت بالجاسوس "..

على أنغام هذا النشيد (بالمناسبة أنا مَنْ وضع الكلمات والموسيقى) كنّا نخطو نحن الثلاثة بهمة في طريقنا المعهود من المرصد إلى المطعم.....

بعد الإفطار، وما كدنا نغفو، حتّى دوّى صراخ المساعد:

ـ اخرجْ واصطف بسرعة في الباحة!

ـ ماذا حدث ؟ الحرب ؟ ـ تساءل شيربينا وهو يفرك عينيه.

ـ بلا كلام!

ـ قلْ يا زودوف، ماذا في الأمر ؟ ـ تساءل بارخومنكو.

ــ الجميع إلى الباحة. بأمر تشخارتشفيلي. هيّا. بخفة! معكم دقيقتان! ـ صرخ المساعد ومضى.

ـ ما الذي طرأ فجأة ؟ ـ ذهل شيربينا ـ ماذا تظن يا (دجاكيلي) ؟

ـ لا تخف ليس ثمة ما يشبه الحرب فأصوات القذائف لا تُسمع ـ قلتُ مطمئناً شيربينا.

لكن الأمر كان غريباً فعلا، فوفق نظام المفرزة لا يجوز إيقاظ العساكر الذين أنهوا مناوبتهم إلا لسببٍ ذي أهمية قصوى. فماذا حدث؟

بعد مضي خمس دقائق كانت المفرزة قد انتظمت في الباحة.

ـ استـ...ـعد، القدوة إلى الأمام! صرخ زودوف.

خرج الرائد تشخارتشفيلي من مبنى الثكنة وبصحبته ثلاثة من الضباط ـ اثنان منهم كانا نائبي الرائد للشؤون السياسية وللشؤون الحربية: الملازمان كوروليف وباقلوف، أما الضابط الثالث فلأول مرة نراه. كان يقارب الأربعين، بطيناً، أسمر اللون، مائلاً للطول. يشبه

الغـروزينين. كـان يـبدو مـن مـشيته وبـزّته الفـضفاضة أنـه لـيس بـرجل عسكري.

ـ أوه، هـذا الـرجل إمّـا أن يكـون جاسوسـاً مـن نـوع خـاص، أو أن هـناك أمـراً غـامـضـاً لا أفهمـه، فبمـثل سـنه يجـب أن يكـون رائـداً علـى الأقل ـ همستُ بذلك إلى شيربينا الذي وافقني بهزّة من رأسه.

اقـترب الـرائد تشخارتشفيلي مـن الـصف بيـنما بقـي معاونـاه جانـباً، أمـا المـلازم المجهـول فقـد وقـف إلى جانـب الرائد وراح يحـاول اقتـلاع حجر صـغيرة مـن الأرض بـرأس بـوطه، عـاقـدا يديـه وراء ظهـره، فـاتحـا ياقـة سترته.

مـدّ زودوف رقبـته واقـترب مـن الـرائد ثـم رفـع يـده إلى صـدغه وقـال دفعةً واحدة:

ـ أيها الرفيق الرائد، المفرزة منتظمة كما أمرتم!

ـ مرحباً أيها الرفاق! ـ قال تشخارتشفيلي.

تنفّستْ المفرزة الصعداء ثم صرخت بصوتٍ واحدٍ سريع:

ـ نرجو لكم دوام الصحة، أيها الرفيق الرائد!

ـ استـ.........ـرح!

زفرت المفرزة. وبدأ تشخارتشفيلي:

- أيهـا الـرفاق: لقـد جـاء، الـيوم، إلى مفرزتنا الكـاتب الغروزيني فلاديمـير ميدنارادزه الحـائز علـى جوائـز عديـدة، عـضو اللجنة التنفيذية لاتحـاد الكـتّاب، الـنائب، حـائـز علـى الوسـام....طـبعاً، أنـتم تعـرفون أشعاره، قصصه ومؤلفاته الأخرى...

توقّـف الـرائد قلـيلاً ثـم شمـل الـصفوف بنظـره. فـيما صـمت الجـنود بحذر.

- أشعار وقصص ومؤلفات أخرى.... ـ كرّر الرائد كلامه.

ابتسم الكاتب واقتلع الحجر أخيراً.

- أتعرف كاتباً بهذا الاسم ؟ - سألتُ شيربينا.

- أول مرة أسمع باسمه – أجابني هازّاً كتفيه.

- وأنت ؟ - نظرت إلى بارخومنكو.

- بأية لغة يكتب ؟ ـ سألني.

- من البديهي أن يكتب بالغروزينية.

- في مثل هذه الحال لا أعرفه.

- طبعاً فأنت تعرف الكتّاب الروس كافة ـ لسعه شيربينا ـ وتحفظهم عن ظهر قلب!

- اقطع الكلام وأنت في الصف! - تابع الرائد كلامه – سيعيش الرفيق الكاتب بيننا، سيخدم معنا... يريد أن يتعرّف على حياة حرّاس الحدود السوفيتيين، كي يكتب عنكم كتاباً، مفهوم ؟

حافظت المفرزة على صمتها السابق.

- لعلكم ستقولون شيئاً ؟ - توجّه الرائد بكلامه إلى الكاتب.

ابتسم الكاتب ((مدينارادزه)) ابتسامة عريضة.

" ما الذي يفرح هذا التعيس ؟" – فكّرتُ بذلك.

نظر الحائز على مختلف الجوائز إلينا طويلاً ثم أخرج من جيبه منديلاً كبيراً، فَرَدَه ثم أعاد طيّه وأخفاه من جديد في جيبه وبدأ بصوتٍ خفيضٍ إذا ما قورن بصوت الضابط الحقيقي:

- أصدقائي، كما أشار المحاضر... أعني الرائد تشخارتشفيلي..أنا كاتب..وبدءاً من اليوم... اعذروني أيها الرفاق، فأنا لا أجيد الحديث باللغة الروسية...بدءاً من اليوم.قررت أن أكتب كتاباً عنكم، طبعاً بمساعدتكم!

- أمر طريف! – كظم شيربينا ضحكه وتطاير الرذاذ من فمه، فاستدرك وغطى فمه بيده ـ هل معنى هذا أننا سنعمل لمصلحته ؟

ـ..سنخدم معاً، معاً سننام ونتغدّى ونتعشى.

_ أولن يفطر ؟ ـ قال بارخومنكو بخوف وهو يلكزني بكوعه.

- أنـا لـست عازمـا تعليمكم، بـل علـى العكـس علـيّ أن أتعلّـم منكم ومعاً سنلقي القبض على الجواسيس، أيها الأصدقاء...سنرى ماذا سيتكون لدي... المهم أن ينال كتابي إعجابكم.. هذا ما أردت قوله، أيها الأصدقاء. شكراً لإصغائكم.

ومسح وجهه المبلل بالعرق. سألنا الرائد:

- هل، ثمة، من أسئلة ؟

- نعم – قال شيريينا وتقدم نحو الأمام – ما هي المدة التي سيقضيها الكاتب المحترم بيننا ؟

- مدة شهرين – أجابه الكاتب مدينارادزه.

- وإذا لم يحصل خرق للحدود خلال هذه الفترة فكيف سنقبض على الجاسوس ؟

وانفجر الصف ضاحكاً كما البركان.

- من الصف انصـــــرف! - صرخ الرائد ثم سعل.

حتى معاونا الرائد لم يتمالكا نفسيهما من الضحك. ارتبك الكاتب وهو لا يدري: أ يزعل من كلام شيريينا أم يعدّه فكاهةً. لكن وجهه أزهر ثم ابتسم، وانفجر، آخر الأمر، بضحك متعاف، كاد يقطع أنفاسه، فهمنا من خلاله أنه إنسان لا بأس به.

سيرة ذاتية

أنا – أفتانديل غافريلوفتش دجاكيلي، ولدتُ في الثاني من أيارعام 1950 في مدينة تبيليسي لأب موظف.

أبي هو الطبيب غافريل ايسيدروفيتش دجاكيلي من مواليد 1925، وأمي – مانانا ايسيدروفنا باختادزه من مواليد 1928. كانت ربة منزل. وقد توفيا ليلاً في اصطدام مروّع وهما في طريق عودتهما من (خوني) في الثاني من أيار عام 1960 على منحدر (ريكوتسكي) بالقرب من قرية غورش. فأخذني إليه، إلى قرية "بوكيتسيخا"، جدي (ايسيدر) الملقب بالأضجم[1]. كان جدي من الثوار القدماء. عام 1921 انهزم المناشفة[2] وسيطر البلاشفة وكان عمر جدي ثلاثة وعشرين عاماً، متزوجا من جدتي (مينا انتيدزه) من قرية بجوليتي.

تبرّأ آل دجاكيلي من جدي بسبب انتسابه للكومسومول (منظمة الشبيبة) أولاً، ولزواجه من امرأة فلاحة ثانياً. ونكايةً بهم استلم الجد أمانة إحدى حلقات الكومسومول وتمنطق بالمسدس. وبعدئذٍ قطع أشجار الكستناء من حصته في غابة أبيه وبنى بيتاً صغيراً على الرابية مقابل الكنيسة وسكن فيه باطمئنان. وهكذا، عام 1921 تقرّرَ، بعد استلام البلاشفة للسلطة، هدم الكنيسة، لكن معلم القرية (كابيتو

(1) الأضجم: المعوج العنق أو الفم ويدعى بالعامية الأجقم – المترجم

(2) المناشفة: الأقلية . البلاشفة: الأكثرية . الكومسومول: شبيبة الحزب الشيوعي – المترجم .

شونيا) أقنع الجميع بوجهة نظره – علام هدم البناء ؟ الأفضل إقامة مجلس القرية فيها.

اندفع شباب الكومسومول للعمل. أخرجوا الأيقونات من الكنيسة وعلقوا بدلاً منها صور ماركس وفيليب ماخارادزه[1]. وهنا حرّض أحدهم: كيف يمكن أن يحصل مثل هذا، وفق قوله، صور قادة الثورة معلّقة في الكنيسة ؟! لابدّ، في مثل هذه الحال، من نزع الصليب عن قبّتها. تبنّوا الاقتراح، لكن أحداً لم يجرؤ على تسلق القبة.

- لعل ايسيدر وحده قادرٌ على هذا! – قال أحدهم.

- أنجدنا يا (ايسيدر)! – قال رئيس الحلقة الحزبية متوسلا.

نزع الجد ايسيدر المسدس عن خصره وتسلّح بأزميل وجاكوش.

- لا تهلك نفسك يا ايسيدر! - اندفعت جدتي نحوه - أشفقْ على أسرتك!

نحّى الجدُ زوجته برفق وراح يصعد الدرج صامتاً.

- ايسيدر، لا تستخف بعملك فارتفاعها سبعة ساجين[2]!

لكن جدي لم يلتفت إلى أحد.

- أوه، يا ربي _ لم تتمالك إحدى النساء نفسها ـ اغفر لنا، نحن المذنبين، ولا تعاقبنا! فهو وحده، وحده اللعين! ـ وخرّت المرأة على ركبتيها وشرعت تولول. تحرك الجمهور وعلا الضجيج وارتفع صوت جهير، أجش:

- أيها الرب القدير، فلتحل نقمتك على رأس منْ دنّسَ حرمك!

خرَّ الجميع، ما عدا عناصر الشبيبة (الكمسمول)و الحزبيين، على ركبهم.

- أي...ي، فانو، أأنت أمين سر الحلقة الحزبية، أم مَنْ ؟ ـ صرخ

---

[1] فيليب ماخارادزه: سياسي غروزيني، شغل رئاسة مجلس الثورة في جورجيا في شباط عام1921

[2] سبعة ساجين: أي ما يقارب ستة عشر متراً. ـ المترجم.

الجد من الأعلى ـ أبعدْ هؤلاء الأنبياء، فأنا أيضاً إنسان!

كان صوت الجد يرتجف. وأغمي على الجدة، وبطريقة ما أبعدوا النساء النادبات.

أثناء ذلك كان الجد يصعد الدرج ببطء. وبعد أن وصل إلى الدرجة الأخيرة تطلع نحو الأسفل. مئات الأعين كانت تنظر إليه برعب وفضول. تطلع الجد إلى الأعلى. كانت ثمة سلسلة غليظة تتدلى من القبة. وأدرك أن الطريق إلى الهدف قد ابتدأ الآن.. لمسها فسرى بردُ المعدن الصدئ في سائر أنحاء جسمه... اهتزت ركبتا الجد وارتعش الفؤاد في الصدر. أمسك السلسلة بيديه كلتيهما. زرّ عينيه بشدة بحيث أغشتهما دوائر حمراء مصفرة، ثم فتحهما فرأى من جديد الجموع الساكنة وهي تنتظر حدوث شيء ما رهيب. ما منْ سبيل للتراجع. بغتة شد السلسلة إليه، فرنّت رنيناً مقرفاً وتساقطت عليه قشور الصدأ. عطا الجد[1]، جذبها بشدة أكثر وبدأت المنازلة بين ايسيدر دجاكيلي وبين الرب ـ الإله...

ـ اسمعني، أيها الرب القدير، موجودٌ أنت أم غير موجود _ الآن، سيان عندي! قد بدأتُ طريقي وأنت ملزم بمنحي فرصة الوصول... أتسمع؟ ملزم، ملزم، مجبر!...أمضي إليك لأفضحك ولن أنزل ما لم أحقق غايتي. أنا أقوى منك أيها الرب القدير وسأصل إليك مهما قاومتَ، سأصل، سأصل!

.. تمتلئ يدا الجد بالمجل[2] ثم تنفجر ويسيل صديدها اللزج على ذراعيه ممتزجاً بالدم والعرق والصدأ...كم تبقى من الحلقات لأصل إلى القبة؟ واحدة، اثنتان، ثلاث، عشرة، ثلاثون... ثلاثون أتسمع أيها الرب العظيم، سأتخطّاها، سأجتازها حتى لو كانت ثلاثمئة... سأصل.. ها، قد بقي عشر، تسع... ثمان... سأصل حتى لو قام في وجهي ملائكتك

---

[1] عطا الرجل يعطو: وقف على رؤوس أصابع رجليه مادّاً يديه نحو الأعلى .

[2] المجْل: مفردها مَجْلة فقاقيع تحت الجلد إثر العمل الشاق - (بقبوقة) بالعامية .

وحواريوك! ثلاث... اثنتان... النهاية! والآن ساعدني يا ربي الجديد، أظهرْ قوتك!

أمسك الجد بالصليب، شدّ قواه كلها... تقدّم بجسمه ثم أحاط بالصليب وتسمّر في مكانه... كان كل ما في جسده يتألم. والدم الغالي يضجّ في صدغيه المتوهّجين.

.... ثم التفت الجد فرأى الجموع الذاهلة الخرساء... أراد أن يزأر، يصرخ، يصيح:

- أي... ي... ي!

- ماذا تريد يا ايسيدر ؟ _ صرخ (فانو) من الأسفل.

ـ لا وجود له... لا يوجد!

- من هو يا ايسيدر!

- الإله يا فانو، لا وجود للإله.

- لا نسمع شيئاً يا ايسيدر!

- الإله، لا وجود له، أتسمعونني ؟

وصمت الناس.

- لا نسمعك يا ايسيدر! صرخ فانو.

حينذاك أدرك الجد ايسيدر أنه بدلاً من الكلمات كانت تخرج من حنجرته الجافة مجرد حشرجة كثيفة خافتة.

وصل إليه صوت (فانو) من الأسفل:

- هيّا، ايسيدر، ابدأ، ماذا تنتظر ؟

وبدأ الجد...

أمضى ساعة كاملة في اللّيّ والتفتيت والتكسير حول قاعدة الصليب، ثم تسنّم قمة القبة وشدّ الصليب.

استجاب الصليب له قليلاً، عندئذٍ ضغط الجدّ عليه بكل قواه فالتوى طائعاً. كرّر ذلك مراراً حتى انقلع الصليب من عشه، وهوى عبر

القبة، وبعد أن ارتطم بالسطح، حطم جزءا من القرميد المدهون، ثم سقط على الأرض بطرقة صماء، خافتة.

تنهّد الجمهور.

شعر الجدّ بوخز بسيط في قلبه وبتشنجات غريبة تحت لوح الكتف الأيسر. ودون أن يدري ما يفعل. حدق ببلاهة في عش الصليب المخرَّب.

نادوا عليه من الأسفل:

- انزل يا ايسيدر، ما بك ؟

- ماذا تفعل هناك، هيّا انزلْ!

ارتعش الجد، تلفّت حوله ثم قذف بالأزميل والجاكوش.

لم يسمع ضجة الأصوات الخافتة وهتاف الاستحسان الذي أطلقه الشبيبيون. أدار ظهره للجمهور وأمسك بالسلسلة وشرع ينزلق ببطء من أعلى القبة. وبعد أن وصل إلى الدرج، تنفّس الصعداء، استدار نحو الفناء. تحسّس الدرج برجله أكثر من مرة ثم هبط الدرج بتمهل ((عشرون درجة في السلم _ فكر الجد _ بالتأكيد، فقد عددتها حين صعدت... ثلاث... أربع... اثنتا عشرة... سبع عشرة... ما هذا ؟ ولماذا سبع عشرة ؟ فأنا أذكرها جيداً كانت عشرين... آه، نعم ذاك سلم (بيستي) عدد درجاته عشرون، ففي الشتاء أزحتُ الثلج عن سطح بيتها ولهذا رسخ في ذهني سلّمها.))

وقف ايسيدر في المدخل وراح يبتسم. قال أحدهم:

- امسحوا يديه بالكيروسين، ألا ترون: يداه داميتان!

- أوه، يا أخي، أنت شجاعٌ والله! عانق فانو الجدَّ.

- ايسيدر، ربما تريد ماءً بارداً ؟

- ماذا ؟ ماء ؟ أحضروا له خمراً!

- دخّنْ يا ايسيدر، فتبغي مشهود له.

لكن الجد تساءل فجأة:

- أين بيستي ؟

- أي بيستي ؟ـ سألته زوجته التي كانت تقف بجواره وتمسح جداول العرق من على وجهه.

- بيستي شارشيدزه، وهل هناك امرأة أخرى بهذا الاسم ؟ - ونظر الجد إلى الجدة باستغراب.

أحضروا بيستي، فسألها الجدّ:

- بيستي، كم عدد الدرجات في سلمك ؟

- لقد جُنّ المسكين! ولولت بيستي وأخذت رأسها براحتيها.

وفجأةً... التوى وجه الجد وتجعّد، ارتخت شفتاه واهتزّ ذقنه، ثم ارتجف بأكمله وتهاوى على الأرض وكأن منجلاً قد حصده.

انطرح الجدّ طويلاً غائباً في تشنجات رهيبة. بكته زوجته الجميلة الجدة مينا كثيراً وقد هدّها الحزن.

بعدئذٍ هدأ الجد. استكان، وحين نهض ابتعد الناس عنه.

كان وجهه قد التوى نصفياً باتجاه أذنه اليسرى، وظلّ على تلك الحال. ومن يومها لقّبه الناس بـ (الأضجم).

- ما بالك ؟ تعوج وجهك كـ ((ايسيدر الأضجم)) ؟

- دعني وشأني وإلاّ لكمتك في وجهك وجعلت منك (ايسيدر الأضجم)!

- مالك تتقوّل ؟ فقد كان عمر نقفور ثلاثة أعوام حين اعوجّ ايسيدر!

- حسن، سنتأكد من هذا حتماً. سنسأل ايسيدر الأضجم فهو يذكر، لابدّ....

هذه الأقاويل كلها كانت تُقال من خلف ظهر الجد ايسيدر، ولم يجرؤ أحدٌ في القرية أن يدعوه في وجهه (الأضجم).على العكس كان الجميع يحترمونه بل ويخشونه. فقد شغل منصب رئيس مجلس القرية

وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

وهكذا، بعد أسبوع من انتخابه رئيساً لمجلس القرية، عام 1921 استلم رسالة من (ميناغو جابوا) الشقي، (الأزعر)الشهير، ألدّ أعداء السلطة السوفيتية: " أيها الأضجم! إن كنت رجلاً ولست بامرأة - تعال إلى غابة ((سوربسكي)) فأنا أتعطّش لأغتسل بدمك. وإذا خانتك الجرأة، فسأنزل إليك بنفسي، سأغازل زوجتك الجميلة وبعدها أذبحك كالخنزير على أبواب الكنيسة ".

انتعل ايسيدر حذاءه، ثم هيّأ مسدسه الموزر.

- لا تذهب يا ايسيدر، أشفقْ عليّ يا حبيبي! - ارتمت زوجته على قدميه.

- لا يا مينا، سأقتصُّ منه، سأسقيه ماء الغسيل، إن لم أفعل هذا لن أكون ايسيدر! - أجابها ومضى.

على مرجٍ وسط الغابة انتظر ايسيدر مجيء "ميناغو جابوا " ثلاثة أيام بلياليها.

- عبثاً تنتظر فقد غادر ميناغو هذه المنطقة! - قال الرعاة. لكن الجد لم يصدقهم. لازم الكوخ ومنع الرعاة من الابتعاد.

فجر اليوم الرابع جاء ميناغو إلى الكوخ بعد أن أمضّه الجوع. كان يمشي وهو يعرج قليلا متسلحا بمسدسي موزر.

بداية لم يتعرف جابوا على الجدّ ايسيدر، وحين تذكّره فجأةً، كان الوقت قد فات: كانت فوهة الموزر الصقيلة تتمايل أمام عيني ميناغو. فرفع يديه.

- فُكَّ النطاق يا ميناغو!

نفّذ ميناغو الأمر صامتاً. حبس الرعاة أنفاسهم.

- أبعدْ يديك عن النطاق!

سقط النطاق فوراً على العشب تحت ثقل المسدسين. استل الجد

بيسراه سكين صيد واقترب متمهلاً من ميناغو، فأغمض ذاك عينيه.
قال الراعي العجوز:

- احترمنا، يا ايسيدر، وأرحنا من الإثم... افعل به ما تريد، لكن ليس هنا.

ودون أن يعير الراعي اهتماماً تقدم ايسيدر وألصق السكين ببطن ميناغو. أدار الرعاة وجوههم جانباً. وبحركةٍ قصيرة من حد السكين قطع الحزام فسقط السروال الواسع حتى بطتي الساقين.

- امسك بسروالك أيها "الشليح" - قال ايسيدر باحتقار، وبصق.

رفع ميناغو سرواله بسرعة.

- والآن امشِ!

- إلى أين تقودني يا ايسيدر ؟

- أنا لست بالنسبة إليك ايسيدر، بل الأضجم! أنسيت ؟

- إلى أين تقودني يا ايسيدر ؟ إذا كنت تقودني إلى الموت، انهِ الأمرَ هاهنا!

- الموت، في مثل هذه الحال، سعادة لك، لن تراه، امشِ!

- قل لي، إلى أين تقودني وإلا لن أمشي - صرخ ميناغو ولوّح بيديه اضطراباً، فسقط سرواله على الفور، فأمسكه بعصبية.

- لن تذهب ؟ بل ستذهب، يا عزيزي، بل وستزحف!

- قلْ، ما الذي تنوي فعله ؟

- لاشيء يهم. أقودك إلى القرية، إلى بيتي.

- هكذا بلا سروال ؟

- أجل وهذا هو المهم. سيكون هذا أسهل عليك، فقد عقدت العزم على مغازلة زوجتي....

رمى ميناغو نفسه على ركبتيه واحتضن رجليّ الجدّ:

- لا تفعل هذا يا ايسيدر! سأكون عبداً لك، لكن لا تذلني!

- انهض أيها الشنيع! _ صرخ به ايسيدر ولكزه بفوهة الموزر.

نهض ميناغو ونظر صامتاً إلى الرعاة وإلى مسدسيه المرميين على العشب ثم تنهّد ومشى ممسكاً سرواله بكلتا يديه.

- خذوا الأسلحة - قال ايسيدر للرعاة - انزلوا من على الجبل وسلموها لمجلس القرية. ثم وضع مسدسه في حمالته وسار وراء ميناغو.

.. في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل وصل ايسيدر إلى بيته حاملاً ميناغو على ظهره.

وضع ميناغو على جلد الدب أمام المدفأة وقال لزوجته:

- جهّزي المائدة!

لم تتحرك الجدة. كانت شاحبة اللون، تحيط بعينيها دوائر زرقاء جراء الأرق.

- لمن أوجه كلامي ؟

أحضرت الجدة إبريقاً من الخمر وفطيرة من الذرة وقرصاً من الجبن وكأسين.

- اجلس إلى الطاولة يا ميناغو!

لم يتحرك ميناغو. فقال ايسيدر لزوجته:

- هاتي قطعة من الحبل. فقذفه ايسيدر إلى ميناغو قائلاً:

- احزم سروالك واجلس نتعشَ يا ميناغو جابوا.. اخرجي أنت يا ((مينا))!

خرجت مينا. ربط ميناغو سرواله وجلس إلى الطاولة.

- يا زوجتي - صرخ الجد - تعالي وتعشي معنا.

جلست الجدة إلى طرف الطاولة.

- ايسيدر، مع أنك ملحد، لكن... كفى، لا تذلني أمام المرأة. إن

كنت غير مصمم على قتلي فأطلقني بسلام، وإن قررت، احسم الأمر!
_ قال ميناغو وغطّى وجهه بيدين مرتجفتين.

صمت الجد. فكر طويلاً ثم صب خمراً في الكأس:

- اشرب!

رفع ميناغو الكأس.

- حسنٌ، ميناغو، الحياة حلوة ؟

- عليها اللعنة!

- اسمع، ستغسل امرأتي، الآن، رجليها وستشرب غسيلهما، على هذا قد أقسمت!

شحب لون ميناغو:

- اذبحني، اقطع رأسي، اشرب دمي، لكن لا تفعل هذا، ايسيدر!

- لقد أقسمت.

- وحشٌ أنت، يا ايسيدر! - نهضت الجدة - تذكّرْ: إن أهنتَ أحداً في بيتك لن تطأه قدماي!

- لقد أقسمتُ يا (مينا)!

فقال ميناغو:

- فليكن دمي مطهراً لضميرك يا ايسيدر دجاكيلي!

- ماذا ؟ أتقتل نفسك ؟

- أقتلها.

نزع الجد المسدس من قرابه، ووضعه على الطاولة. تطلّع ميناغو إلى الموزر ثم إلى الجد. طويلاً - طويلاً حدّقا في أعين بعضهما البعض - ايسيدر وميناغو - لكن ميناغو لم يتحمل فخفض رأسه. قرّب الجد الموزر من ميناغو، فلم يتحرك الأخير. عندئذٍ نهض ايسيدر، أمسك بيد زوجته وخرج من الغرفة.

وحين عاد إليها كان الموزر لا يزال مكانه على الطاولة، والغرفة خالية.

كان ميناغو يهبط الدرج والجد يتطلع إليه صامتاً وينتظر.

وحين اجتاز الفناء وأوشك أن يفتح البوابة خرج الجد إلى الشرفة.

- ميناغو!

تسمّر ميناغو جابوا مكانه. وقف طويلاً ينتظر الرصاصة. ثم التفت على مهل.

- اذهب، يا ميناغو جابوا، اذهب! فليس لديّ رصاصة للجبناء والمتسولين.. اذهب!

** **

.. عام 1924، أيام الهجمة المنشفية، ما أن دوّت في القرية، عند الفجر، أولى الطلقات حتى قفز ايسيدر من فراشه وهرع بثيابه الداخلية إلى مجلس القرية. التقى بجيرانه المذعورين الهاربين:

- لقد ضعنا يا ايسيدر! انتهت حكومتنا، وقعت القرية بين أيدي المناشفة، يقولون إن (جوردانيا)[1] و(راميشفيلي)[2] أصبحا في تبليسي وأن (تشولوكاشفيلي)[3] قد سيطر على (كاخيتيا)!

- إلى السلاح! _ صرخ ايسيدر.

وتبيّن أن أحداً لا يملك سلاحاً. فانكفأ الجد عائداً إلى بيته، و....

---

[1] نوح جوردانيا: زعيم المناشفة الغروزينين ورئيس حكومتها في غروزيا (1918 – 1921)

[2] راميشفيلي: أحد وزرائها .

[3] تشولوكاشفيلي: أحد منظمي حركات المناشفة في غروزيا عام 1924 .

خلف الطاولة كان يجلس ميناغو مدججاً بالسلاح، يحمل موزراً في كل يد، وصفّان من الطلقات يتصالبان على صدره، ومن خصره يتدلى سوط جلدي ذو لسان. وبجانبه كان يجلس رجلان مسلحان مجهولان.

- تحياتنا إلى ممثل حكومة العمال والفلاحين! - سخر (ميناغو) منه.

صمت ايسيدر.

- فلتجلسوا يا ايسيدر المحترم، شرّفونا!

لم يتحرك الجدّ من مكانه. عندئذٍ نهض ميناغو، دار حول الطاولة ثم توقف أمام ايسيدر. حدّقا طويلاً في أعين بعضهما البعض. صمد ايسيدر لم يخفض رأسه. لوّح ميناغو بسوطه وضرب الجدّ على وجهه، فسال الدم. وهدر ميناغو:

- اجلس، يا بن الكلب، حين تؤمر!

جلس ايسيدر، وعاد ميناغو إلى الطاولة.

- هكذا... _ قال وهو يفرك يديه _ لا تزعل يا ايسيدر، فأنا لم أضربك عبثاً. ربما استقام بوزك الأعوج، فمن غير اللائق أن تقف هكذا مسخاً أمام محكمة الإله.

صمت ايسيدر.

- أين جميلتك ؟ أخفيتها ؟ تسنّى لك ذلك ؟ حسنٌ، لن تفلت مني.

عضّ ايسيدر على شفته حتى الإدماء، وامتلأت عيناه بدموع الغيظ العاجز.

- أتبكي يا عزيزي ؟ حقك! كيف لا ؟ وسلطتكم قد انهارت! حسنٌ، هل اقتنعتم مَنْ منّا الأقلية ومَنْ هم الأكثرية!؟ كنا دائماً الأكثرية، يا سلالة القمل، ومع ذلك أسميتمونا ((الأقلية))، أيها الأوغاد!

- ميناغو، ضعْ حداً لهذا البازار... علام تداعب ابن الحرام هذا ؟

رصاصة في الجبهة وينتهي الأمر -تدخّل أحد الرجلين المجهولين.

- لا، لماذا نقتله ونتحمّل وزره ؟ سنفعل هذا وفقا للأنظمة والقوانين... ايسيدر دجاكيلي! بما أنك أهنت ولعنت الإله ولأنك كنت مسؤولا عن خلية الكفرة الكومسومولين، ولأنك لاحقت أحد أعضاء حكومة غروزيا المستقلة _ ميناغو جابوا....

- أبصقُ على حكومةٍ تضم ابن العاهرة (كيساريا) - همهم ايسيدر متأوهاً.

غصّ ميناغو بالكلام، لكنه ابتلع بسرعة ريقه وتابع:

-... وجزاءً للسلب والنهب والجرائم الأخرى التي ارتكبتها أمام الحكومة التي تدعى ((المجلس الثوري لانتفاضة غوريا)) حكمت عليك المحكمة الميدانية بالإعدام رمياً بالرصاص.

- أستحقُ هذا! - قال ايسيدر.

- بكل تأكيد! والآن قف!

وقف ايسيدر.

- اخرجْ إلى باحة الدار!

خرج ايسيدر.

و الثلاثة خلفه، توقف ايسيدر قرب الحظيرة.

كانت الشمس ترتفع من خلف الجبال. نظر ايسيدر إلى النور طويلاً دون أن يفتح عينيه أو يغمضهما إغماضة كاملة وكأنه يريد أن يتذكّره قبيل الموت وإلى الأبد، بعظمته ودفئه ولونه الذهبي.

وبنظرةٍ شمل القرية التي تسمّرت قلقاً وترقّباً. ومن بعيد تناهى إليه نباح كلب شاك، وفي ناحية ما ارتفع صياح أحد الديكة.

شعر ايسيدر، فجأة وبكافة حواسه، برائحة زكية محببة إلى قلبه لدرجة الإيلام - رائحة الأرض، العشب، القش، الأزهار، الخبز والعسل... الحياة الأبدية الأزلية تنبض وتضجّ فيما حوله... الحياة الحبيبة

الشهية وهي تنساب مفعمة كل عشبة ووريقة وكل حبة تراب. تمنّى ايسيدر أن يخرّ على ركبتيه ويقدّم المديح للشمس واهبة الحياة للأرض.

ـ إي..ي! لا يا صديقي ايسيدر ـ صرخ ميناغو ـ لن تموت ميتة جميلة كثائر من كومونة باريس[1]، بل ستفطس في الزبل! افتح الحظيرة!

بضربةٍ من أخمص البندقية فتح أحدهم الباب.

- ادخل! ـ قال ميناغو آمرا.

دخل ايسيدر الزريبة.

- أخرجوا البقرة!

أخرجوا البقرة.

- انبطح ووجهك إلى الأسفل، فمن المقرف النظر إلى بوزك القبيح.

طفرت الدموع من عيني ايسيدر إلا أنه بقي صامتاً.

سأله ميناغو:

- حسنٌ، بماذا تأمر أن نبلّغ جميلتك ؟

- لعن الله أمك يا بن القحبة، أيها الشقي، يا بن الحرام! ـ صرخ ايسيدر، وفي نفس اللحظة هدر مسدس ميناغو. كانت يده ترتجف. اخترقت ايسيدر سبع رصاصات من أصل عشر، وارتطمت الثلاث المتبقية بجدار الحظيرة.

سقط ايسيدر ببطء على إحدى ركبتيه ثم على الثانية ثم تراخى وتكوّر وهو يشدّ بأظافره على ألواح المعلف، ودسّ وجهه في الروث الرطب الدافئ....

* *

اقترب اثنا ن من الحظيرة. صرفَ البابُ. وبعد أن اعتادت أعينهما على العتمة شاهدا رجلاً ممدداً في الروث. قلباه على ظهره.

- قتله الأوغاد! ـ قال الأول ـ لقد خرّموا المسكين بالرصاص.

---

[1] كومونة باريس: أول سلطة للبروليتاريا، قامت في باريس 1871 ـ المترجم.

السفلة!

قال الثاني:

- أغلقْ عيني المسكين.. ينظر كأنه حي..

مسح الأول بحذر على عيني القتيل من الأعلى إلى الأسفل.

- ما هذا ؟ لا تغمضان. يبدو أنه حي...

- لا يمكن!

- حيّ، أقسم بالله، يجب نقله، ربما استطعنا إنقاذه...

سبعة أيام تعذّب ايسيدر على أبواب الجحيم، لكنْ عبثاً - لم يقبل الإله روحه الآثمة. أمضى ايسيدر أربعة أشهر وهو يبحث عن الشمس في سماءٍ قاتمة كعباءة شركسية، إلى أن رآها في الشهر الخامس.

شهر آخر أنقضى وهو يتقلّبُ بلا ذاكرة، حتى نالها أخيرا ـ ذاكرة القلب وذاكرة الروح. إذ ذاك رمق ايسيدر زوجته الجميلة، ولفظ كلمة وحيدة، لا غير:

- ميناغو...

- لا وجود لميناغو! ـ أجابته الزوجة.

- أنتِ ؟

- أنا هنا، معك!

وفكر ايسيدر، فكّر ملياً. يبدو أن فكرة واخزة كانت تتوارى في خبايا ذاكرته، بعدئذ انفجر فجأة وراح يتقلب:

- ميناغو... هذا ما أستحقّه أنا الأحمق... زوجتي... ميناغو، ميناغو... أيها السافل!

- يا لشقائي أنا التعيسة!... أيها الرب القدير كنْ في عون ايسيدري - وخرّت الجدة على ركبتيها وانخرطت في البكاء.

حين رأى دموع زوجته تنحدر كالبرد على وجنتيها الشاحبتين، بكى ايسيدر دجاكيلي. في البداية بهدوء دونما كلمات ثم رفع صوته بالبكاء. بكى بكاءً مرّاً، راح يشرق بدموعه حتى كاد يختنق.

شعر فجأة كأن دموعه المرة المالحة تنقّط على الصخرة الثقيلة الجاثمة على صدره، وكيف تتفتت شيئاً فشيئاً، إلى أن ذابت وانصهرت عبر الدموع. تنهد ايسيدر ملء صدره، ثم ترك الحبل لمشاعره وزمجر مالئاً البيت بزئيره:

- ميناغو! ذهبت أيها الشنيع!؟ أين أنت أيها الجبان ؟ أين أنت أيها السافل ؟

- لم يعد لهم من أثر، يا ايسيدر. توارى المناشفة؛ وهرب ميناغو إلى تركيا. اهدأ، كفاك وكفاني! ارحم امرأتك، فأنت شقائي!...

وهدأ جدي - ايسيدر دجاكيلي.

عام 1925 رزق بولدٍ أسماه غافريل - (غابو) أي والدي.

بعد أن استنفد جدي ما لديه من الطلقات والبارود، قصد البئر ورمى الموزر فيه قائلاً:

- كفى! لن أحتاج إليك بعد الآن!

وأخطأ ايسيدر دجاكيلي.

* *

بداية عام 1943انخرط في الحرب أبي "غابو دجاكيلي" ذو السبعة عشر ربيعاً.

" تحية الجيش الأحمر، يا أبي!

ابنك غابو يكتب إليك.

تلك الأربعة كيلو غرامات من الثوم نفعتني كثيراً. هي توشك أن تنتهي، ولا أدري صراحة ماذا سأفعل بعدئذٍ. يا للشيطان، كيف عتلت حقيبة الإجاص اللعين، كان الأجدى لو استبدلت بها ثوماً. في البداية كانوا يشتمونني: لم يعد بإمكاننا التنفس، دفر الثوم يفوح! أما الآن يكادون يتمسّحون على أقدامي ـ هات وهات! في مثل حالنا – رأس الثوم يعني دبابة، وإن لم يكن دبابة فهو رشاش على أقل تقدير. أمّا لماذا أكتب لك عن ظروفنا – لأنها قاسية جداً. تصوّرْ خندقاً كبيراً بعمق قامة الإنسان والمياه فيه تغمرنا حتى الرقبة أو على الأقل حتى الخصر. العزاء الوحيد – لا وجود للضفادع. والألمان أمامنا. لعلك لا تصدق أنني أراهم بأم عيني. وفي الليل حين يسود الهدوء تُسمعُ أصواتهم. تضم فصيلتنا سبعة غروزينيين وستةً من الأرمن وواحداً وعشرين روسياً. لا أدري ماذا ننتظر، أو ماذا ينتظر الألمان. فقد مرّ أسبوع كامل وكلانا ينظر إلى الآخر. يحدث أحياناً أن نخرج ليلاً أما نهاراً فلا نستطيع ـ تمدّ رأسك من الخندق تصبح أثراً بعد عين.

وهذه الرسالة أكتبها في الليل أيضاً، فأرجو المعذرة إن جاءت على غير ما يجب. بالأمس سهوت في الخندق واقفاً. حلمتُ حلماً رهيباً. جاءتني امرأة شابة جميلة متشحة بالبياض. أحضرتْ حزمة من الحطب وأضرمت النار. أجلستني بقربها، أدفأتني وجففت ثيابي، ثم خلعت جواربها الصوفية وأعطتني إياها، في حين مشت هي على الثلج حافية. جريتُ وراءها:

- مَنْ أنتِ ؟

أجابتني:

- أليس الأمر سيّان ؟ فأنت لا تعرفني!

رجوتها:

- لا، قولي. قد نتقابل يوماً!

- لا سمحَ الله! ـ قالت هذا ومسّدت على رأسي بحنان.

- أشكرك جزيل الشكر فلولاك متُّ برداً.

- حماك الله من الرصاص! ـ قالت ـ أما البرد فليس بكارثة، حسنٌ، وداعاً.

- لن أذهب قبل أن أعرف من أنتِ!

- اذهب إلى النار وادعُ رفاقك ليتدفئوا، اذهب، سأعود غداً.

- غداً... قد لا أعيش إلى الغد، فالألمان أمامنا.

- سيغادرون ليلاً، غداً لن يكونوا هاهنا. ثم ماذا ؟ أتخاف الموت؟

- أجل أخافه.

- أمرٌ طبيعي. الإنسان الحقيقي هو مَنْ يحارب متخطّياً الخوف. وحدها الحيوانات لا تعرف الخوف.

- فيما مضى، كنت أخاف كثيراً، أما الآن فقد اعتدت.

- الخوف ليس عاراً. الاستسلام للخوف هو الأمر السيئ. أبوك خاف لكنه تسلّق القبة. خاف أيضاً وانتصر على ميناغو. وأنا أيضاً أخاف. أواه كم أخاف عليك يا بنيّ! فقد غادرتُ دون أن أقبّلك ولو مرة واحدة...

ارتميتُ على ركبتيّ، أجهشت بالبكاء ورحت أقبل يديها. أبي إمّا أنني قد جننت أو رأيت أمي في الواقع. لقد كانت، تماما، كما وصفتها لي...

أيقظني غورغينيدزه وسألني لماذا أنشج. حكيت رؤياي فقال إنه حلم جميل ينبئ بعمر مديد.

حسنٌ، يا والدي، حان الوقت لأنهي رسالتي. كيف حالكم وكيف حال الجيران ؟ ومدرس الجبر؟ يا له من وغد! فلولا نشوب الحرب واستدعائي للخدمة، ما كان ليضع لي العلامة...

هل استلمت شهادتي ؟ خبّئها من فضلك، قد أحتاجها يوماً. قررتُ أن أختصّ بأمراض الفم، لعلها هي المهنة الأكثر ضرورة، ففي فصيلتنا

وحدها خمسة أشخاص بلا أسنان.

أنا حيّ وبصحة جيدة. تحياتي لآنساتنا وهنّئهم بعيدهم.

إلى اللقاء، أقبلك. ابنك غابو.

9/آذار/ (مارس) 1943

* *

ليلةٌ غاب قمرها، لكن سماءها مرصعة بالنجوم. يا للجمال! ويتملكك العجب: علام يجب أن يقترف مثل هذا القدر من الشرور والقذارة تحت سماء، كهذه، رائعة! تخطر ببالي كلمات والدي:

- كيساريا كانت امرأة جميلة، لكن ما الفائدة: كانت النتانة تفوح منها، لا تبدل ملابسها الداخلية طوال أسابيع!..

ورداً على سؤالي ـ عما أدراه بثيابها الداخلية، أجابني:

- سمعت من والدي...

ثمة من يتلمّس طريقه في الخندق. جزمته الملآى بالماء تخفق بصوت كريه وهو يمشي. أتساءلُ:

- مَنْ يمشي هناك ؟

- هذا أنا المساعد، بتروف." دجاكيلي، باتيوك، فينوغرادوف "

- هلموا إلى الملازم الأول.

- فينوغرادوف وباتيوك في الطرف الآخر من الخندق. مضى المساعد. بعد بضع دقائق كنّا عند الملازم الأول شميدوف. هو أعمر مني بقليل. لطيف وجميل.

قدم المساعد تقريره:

- أيها الرفيق الملازم الأول، وفق أوامركم...

- اجلسوا يا شباب!

تناول الملازم الأول عقب سيجارة صغير من الصحن وانحنى نحو الشمعة محاولاً إشعاله. مطّ شفتيه مطّاً مضحكاً، لهث طويلاً وهو يضمّ شفتيه فتصدر صوتاً مسموعاً. وأخيراً انطفأت الشمعة.

- يا للشيطان! أشعلها من فضلك يا بتروف!

أشعل بتروف الشمعة. كانت المياه عنده أقل مما عندنا، كما هو مفترض أن تكون لدى قائد فصيلة.

- الوضع، عموماً، كالتالي: لا وقت لطلب الفدائيين المتطوعين ولا رغبة في ذلك. الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل. سيبزغ الفجر في الخامسة. يفصلنا عن الألمان ستمئة متر. ساعة للذهاب وأخرى للإياب ونصف ساعة لتنفيذ العملية في الخندق. تعرفون الخندق جيداً فقد حفرتموه منذ شهر مضى. هل هناك من أسئلة ؟ لا توجد. أسمّي دجاكيلي قائداً لكم. ليس لديكم مهمة محددة. اعملوا ما استطعتم. قدموا الوثائق والتقارير للمساعد... انتهى. نفذوا الأمر!

كان باتيوك أول من خرج زاحفاً من الخندق. انبطح ما يقارب الدقيقة دون حراك ثم تابع زحفه نحو الأمام. تلاه فينوغرادوف ثم تبعتُهما. كنا نزحف خمسة أمتار بفواصلٍ زمنية. بعد أن قطعنا حوالي مئتي متراً أعطيتهم إشارة فتوقفا ثم زحفا نحوي.

- سألتفّ حول الخندق الألماني من اليسار. سأقترب ما استطعت، طبعاً إذا لم يلاحظوني. ثمة غابة خلف الخندق، لابدّ أن الألمان زحفوا إليها ليجففوا أنفسهم. سننصبُ كميننا هناك. سيرافقني باتيوك، أما أنت يا (فينوغرادوف) فستظلُّ بعيداً عنا مسافة ثلاثين متراً هيئ رشاشك وانتظر!. لا تطلق النار ما لم يفتحها الألمان. مفهوم؟

- مفهوم! _ أجاب فينوغرادوف.

- هيّا، إذاً!

.... زحفنا أنا وباتيوك نحو اليسار. فجأة وجدنا أنفسنا عند الخندق الألماني. كادت أنفاسي تتقطع. انتزع باتيوك القنبلة اليدوية من خصره. أمسكته من كتفه بحذر وجذبته نحوي. اقترب مني صامتاً. مرّت ساعة ونصف.... فترة مثلها وسيبزغ الفجر... حالنا سيئة! حبّذا لو تحوّلتُ خلداً، لكنتُ نقبتُ الأرض هاهنا قرب الخندق وانبثقت عند طرف الأحراج. كم كان ذلك جميلاً!... تطلعت إلى باتيوك. كان بكليّته يلتصق بالأرض، وأقسم بالله إنه كان يحلم أيضاً بتحوّله إلى خلد.

زحفنا إلى الغابة قبيل ساعة من بزوغ الفجر. لقد انتهى كل شيء فما تبقّى من الوقت يكاد لا يكفي للعودة. كانت الدقائق تعدو وساعتي تدق بصخب وكأنها تشي بي للعالم كله: هو ذا صاحبي، إنه هنا.

- كم تبقّى لنا من الوقت يا دجاكيلي ؟_ همس باتيوك.

- لدينا الكثير، لا تخف يا كولا!

- ومع ذلك، كم ؟

- ساعتان.

فقال باتيوك مستغرباً " أو....و....و...! "

انبطحنا خلف الأحراج وصمتنا.

- يبدو أننا غدونا وسط الألمان ـ همس باتيوك ـ أمامنا الألمان وخلفنا الألمان.. لو تابعنا طريقنا حتى برلين، كم سنصادف من اللغات؟....

.. لا أحد ينهض من الخندق. أحقاً عندهم جفاف ؟ يا للشيطان! حين غادرنا الخندق كانت المياه فيه حتى الركب، أين اختفت المياه عندهم؟.. الزمن يعدو، ويعدو.. آه ؟ ما هذا ؟ أحدٌ ما ينهض! وأخيراً هو ذا أحد الألمان. ينهض ويزحف باتجاه الغابة.. سيصل الآن إلى الأحراج،

سيخلع سرواله، يعصره ثم ينشره على الحرجة ليجف.. سأتسلل إليه... يجب أن نمسك به حياً...

- باتيوك، ألا ترى ؟ يزحف!... _ همست وأنا أشعر بالعرق البارد يغطّي جبهتي.

- مَنْ يزحف ؟

- ألماني.

- أين؟

- هناك، انظر!

حدّق باتيوك بثبات في الحقل، ثم نظر إلي باستغراب:

- مالك يا دجاكيلي ؟

- ألا ترى أحداً يا باتيوك ؟

- أرى الفجر قد طلع يا دجاكيلي، هذا ما أراه! - وضع قنابله أمامه بترو ثم قال ـ تودّع من الحياة يا أخي، فكما أنني لا أستطيع رؤية أذنيّ، كذلك لن نتمكن من الإفلات...... آه يا (إيفان سوسانين) إلى أين أوصلتني ؟!

غافريل دجاكيلي، هي ذي نهاية حياتك الشابة! أعطوك مهمةً وها قد فشلت فيها فشلاً معيباً. قفْ في الحال، تقدم إلى الأمام، امش إلى الخندق، اهجم بشجاعة، أو انتظرْ الليل واهرب بذلّ إلى حيث تقودك رجلاك!....

- أنا خائف، خائف جداً!

- لا بأس، مَنْ يكافح يتغلّب على الخوف. الحيوانات وحدها لا تعرف الخوف. انهض!

- لا أستطيع.

- هات يدك، سأساعدك!

- مَنْ أنتِ، قولي من أنتِ ؟

- أنا أمك!

نهضت، ضممتُ الرشاش إلى صدري ومشيت مباشرة باتجاه الخندق الألماني.

- دجاكيلي! ـ همس باتيوك ـ أَجننْتَ ـ وأمسك برجلي.

حررتُ رجلي منه وتابعت طريقي.

- غابو! - صرخ باتيوك، لكنني لم ألتفت...

سرت حاملاً رشاشي، منحنياً نحو الأمام، مواجهاً الموت، ذاك المختبئ في الخندق الألماني... الآن سيهدر الرشاش بشدةٍ وقرف. سأمسك بصدري، وسأرتمي ببطء على ركبتي ومن ثم سأسقط على وجهي متذوّقاً طعم الدم المالح الكريه..ثم سأنقلب وأحاول النهوض كما يفعل الجنود في الأفلام السينمائية.... أحدٌ ما يلامس كتفه كتفي.أدركت – إما بالرائحة أو بالدفء ـ إنه باتيوك. مشينا سويّةً نحو الخندق. عشر خطوات لا أكثر كانت تفصلنا عن الخندق. بزغ الفجر. رأيت وجنتي باتيوك الشاحبتين ويديه البيضاويين المتسمّرتين بالرشاش. ما بال الألمان ؟ أحقاً هم نائمون ؟ فليكن ذلك! ماداموا نياماً، تقدّمْ يا غافريل دجاكيلي إلى الأمام! عشر خطوات، ثمان، ست، أربع، اثنتان.... وصرخت: ماما! وأغمضت عينيّ وقفزت إلى الخندق ضاغطاً على زناد الرشاش.

- هورا[1]!

تناهى إلى سمعي صوت باتيوك. وبعدئذٍ لم أعد أسمع شيئاً سوى صوت الانفجارات المتواصل وقد ملأ الفضاء: ترا... تا... تا... تا...

... حين انتهت الطلقات وتوقفت يداي عن الرجفان، رميت بالرشاش جانباً ثم نزعت رمانةً من خصري وفتحتُ عيني. كان الخندق أمامي خالياً. على بعد خطوتين كان ينطرح ألماني فاتحاً يديه كالمسيح على

---

(1) هورا: صرخة النصر _ المترجم _

خشبة الصليب. وبجانبه كان ثمة شخص آخر قد تجمّد ممسكاً رأسه بكلتا يديه متكوراً على الأرض. وهنا وهناك كانت تتناثر بنادق ورشاشات ومعلبات وبطانيات ممزقة وكومة من الطلقات الفارغة. ودون أن أعي ما حدث مشيت ببطء في الخندق. هاك هي جثة أخرى وثمة... بطانيات سابحات في الماء، ومعلبات فارغة... تخاذلت ركبتاي وأحسستُ بضيق في حلقي. سقطت في الماء، رميتُ برأسي على ركبتي ورحت أنشج بصوتٍ عالٍ.

مسكين غافريل دجاكيلي، لماذا اقتحمت الموت؟ لماذا صارعت الخوف؟ كي تجد نفسك في خندقٍ خالٍ؟

- باتيوك، ما هذا؟ - أسأل، وأنا أغص بدموعي، باتيوكَ الشاحبَ كالموت.

- كفاك! كفاك! - تمتم باتيوك وجلس قربي.

- لا، قل لي، اشرحْ، كيف أمكن أن يحدث مثل هذا؟

- مَنْ كان بإمكانه أن يتصور ذلك؟ يبدو أنهم غادروا دون أن ندري بذلك!...

- والآن، ماذا علينا أن نفعل؟ الخندق فارغ؟

- هي..هي! وجدَ ما يفكر به! أتدري كم من الخنادق أمامنا؟ كفى بكاءً! فالخندق مليء بالماء بدون دموعك! ــ وابتسم باتيوك ابتسامة حزينة متكلّفة ودموعه تنهمر من عينيه الزرقاوين بلا انقطاع.

... نمت النهار كله وطوال ذلك كانت المرأة المتّشحة بالبياض تقف عند رأسي. كانت تبتسم.

- اتّضح أنهم فعلاً قد رحلوا كلهم - رحت أقول لها - قلتِ لي أنهم سيغادرون ليلاً. وغادروا. لكنني لم أعرف هذا، لم أعلمه. أقسم على ذلك. مضيتُ للموت المؤكد. خفتُ أقسم بالله، لكنني مضيت.

أخذت المرأة المتشحة بالبياض تبتسم، بعدئذٍ اختفت، ذابت في الضباب، وحيث كانت تقف انبثقت نار حامية هائلة ذات ألسنة زرقاء، لعوب. جلسنا حول النار أنا وباتيوك وفينوغرادوف مبلّلين تعبين مقرورين.

استدعانا ((شميدوف)) ليلاً.

- يا شبابي الطيّبين، لقد اقترحت مكافأتكم!

- لقاء ماذا أيها الرفيق الملازم الأول ؟ - سألته، فأجابني مقدماً لي سيجارة:

- لقاء الخندق الفارغ!

* *

عاد والدي من الحرب بأربعة أوسمة وثلاث ميداليات وبعكازين ولسان ثقيل قليلا.

وحين تزوج بأمي مانانا، هاج أهلها، فيما يبدو، وماجوا:

- الأب بشع الوجه، الابن أعرج، عَيْ - فكيف سيأتي الأولاد ؟

لكن فيما بعد، حين ولدت خالياً من العرج واعوجاج الوجه والتلعثم، غفر أهل أمي لها سلوكها...

أذكر أمي جيداً. كانت طويلة، هيفاء، بيضاء، زرقاء العينين واسعتهما، أما شعرها فكان أسود فاحما. كانت كل يوم تشبك لي ياقتي البيضاء وتأخذ بيدي وتسلمني للمعلمة ((نونو)). وبعد انتهاء الدروس كانت تستقبلني عند المدخل وتمسك بيدي وتأخذني إلى البيت. كانت لأمي (ماماتا) يدان ناعمتان حنونتان دافئتان وقد لاحظتُ أن الرجالَ، بل وحتى النساء، كانوا يتطلّعون إليها في أثناء مرورها في الشارع. أذكر، ذات مرة، ونحن عائدان من المدرسة أن رجلاً تطلّع إليها وتابع مسيره ورأسه ملتفتٌ إليها وقال:

- آه، يا للروعة!

وما إن أتم جملته حتى نطح شجرة كانت أمامه.

- آه، يا للروعة! - صرختُ وضحكت. ضغطت أمي على يدي بشدة وأسرعت في خطواتها.

كانت ثمة امرأة كردية جميلة تدعى (سارة) تنظف مدخل بيتنا وتنقل القمامة، وتحضر لنا الماء إذا ما انقطعت المياه. وكان لسارة طفلٌ تِرْبٌ لي يدعى (آبو)، كان يدعوني (دجاكو) وأنا أدعوه (الجاحظ) إذ كان يكثر من أكل البصل فتحمرّ عيناه باستمرار وتدمعان. وكان آبو يأتي، أحيانا، بدلاً من أمه لنقل الفضلات ويسأل:

- قمامة لا يوجد أيتها العمة ماماذ ؟[1]

فتجيبه أمي:

- عندنا يا (آبو) عندنا!

- هيا تأخذينها.

كان آبو ينقل القمامة ثم يعود، يضع الدلو الفارغ في المطبخ ويدخل إلى غرفتي. كان يحب تصفّح الكتب المصوّرة.

- حين كسرْتَ فرقة الإطفاء فلا رميتها بل أنت أعطاني إياها، تمام ؟

- أعطه إياها يا بني! - قالت لي أمي، فقدمت اللعبة له في الحال.

- لا، أيتها العمة مامانا، الآن، لا. عندما كسرها، عندئذٍ - واحمر وجه آبو.

- خذها، أيها الجاحظ، خذها. عندي غيرها.

- لا، هكذا لا أريد. حين حضرت لك الحمامة الزاجلة عند ذلك أعطيتني. حسن ؟

---

(1) يرد على لسان آبو الكثير من الأخطاء اللغوية نتيجة جهله للغة الغروزينية ـ المترجم.

- حسن، أيها الجاحظ.

وفي صبيحة أحد الأيام، وكنّا أنا وأمي قد عزمنا على الذهاب إلى المدرسة، قُرع الباب ففتحته أمي. كان آبو يقف بالباب.

- مرحباً آبو! _ وأحضرت أمي القمامة. انكمش آبو بشكل غريب، لكنه مع ذلك نقل السطل وعاد به فارغاً. ووقف في المدخل صامتاً. فقالت أمي:

- أدخل يا آبو!

لكن آبو لم يتحرك من مكانه.

- آبو، هل تحتاج إلى شيء ؟

هزّ رأسه سلباً.

- أتريد نقوداً ؟

صمت آبو....

- مالك يا صبي ؟ قل، قد نتأخر عن المدرسة.

- أيتها العمة (مامانا)، ماما (سارة) ماتت! ـ قال ذلك وجلس على إحدى درجات السلم. نظرت أمي، دون أن تفهم شيئاً، إليّ ثم إلى آبو. وحين اتضح لها معنى الكلمات التي سمعت، شحب لونها، صرخت وبسرعة جلست بجانب آبو:

- آبو، ماذا قلت ؟ كرر!

- أيتها العمة مامانا.... ماما سارة.... وانفجر آبو بالبكاء.

احتضنته أمي، ضمته إلى صدرها وراحت تبكي. بكت بصمتٍ دون كلام. رأيت كتفيها يهتزان. بعدئذٍ رفعت آبو الجامد، قادته إلى الغرفة، أجلسته على الأريكة، خرّت أمامه على ركبتيها ثم سألته بصوت مرتجف:

- كيف هذا... يا حبيبي الصغير... ما السبب ؟

- لا أدري، أيتها العمة مامانا... مساءً نام أمي وفي الصباح صرخ والدي - مات، مات!

- هل كانت تشكو من مرض ؟

- لا. مساء غسل الثياب ثم قال - قلبي يؤلمني، بعدئذٍ نام في الليل، وفي الصباح صرخ أبي: مات، مات!

- يا إلهي، والآن كيف ستتدبرون أمركم بدونها أيها المساكين، أربعة أولاد صغار، يا إلهي!...

انخرط (آبو) في البكاء من جديد. تناولت أمي منشفة مبلّلة وراحت تمسح وجهه ويديه ورجليه، ثم أخرجت من الخزانة سروالي وجوربي وحذائي وقميصي، ووضعتها أمام آبو:

- البسها جميعها يا آبو!

أحضرت أمي الكثير من الزهور الجميلة يوم تشييع سارة. ثم أمسكت بيدي ومضينا إلى آبو.

كان التابوت يتوسط الغرفة، فوق تخت. كانت سارة مسجاة فيه هادئةً، جميلة جدا، وقد بدت أصغر من سنّها.

لم أرها بهذا الجمال من قبل. كان يقف بجانب التابوت (آبو) وأخواه وأخته وأبوه.

- اذهب إليهم! _ همست لي بعد أن أعطتني الزهور، بينما وقفت هي في المدخل. اقتربت من آبو، قدمتُ له الزهور صامتاً. أخذها ووضعها عند رأس أمه. قادني إلى أبيه وقدمني إليه:

- بابا، هذا دجاكو.

ابتسم أبوه لي، لامس وجنتي براحته الخشنة ثم قبّل رأسي.

نظرت إلى أمي متسائلا، وأنا لا أدري ما الذي يجب عليّ فعله بعدئذ. غطت أمي وجهها بمنديلها وراحت تبكي بصوت عال.

استلقت أمي في ساعة متأخرة وقد سبقها أبي في النوم. وكان قد عاد من المشفى دون أن يجد شيئاً يتغدى به، فزمجر:

- شيء جميل، تعمل طوال النهار كثور مخصي، تدور كسنجابٍ في دولاب وما من أحد يطعمك!..

قالت أمي بصوت خفيض:

- كنت في تشييع الجنازة.

- حسنٌ ثم ماذا ؟

- لاشيء. لا بأس لو حضرت أنت أيضا!

- لا أعرف أحداً منهم. كنت أعرف سارة وسارة ماتت، فإلى مَن أذهب ؟

- إلى سارة.

- فليذهب عدوي وراء سارة.

- لا يتطلب الموت معرفة. حبّذا لو ذهبت ووقفت دقيقة ثم خرجت...

- بالله عليك لا تخلقي لنا من الأمر تراجيديا. حين أموت فليمتنعوا عن المجيء إليّ. حينذاك سنتساوى _ وابتسم والدي بتكلف.

- لا أرى ما يضحك!

– وماذا عليّ أن أفعل، أنا، الجائع، أأبكي ؟

- البكاء أسهل على معدة فارغة.

لم يجب أبي. قصد غرفة النوم، خلع ثيابه واستلقى.

- نمْ يا بني - قالت أمي وهي ترقدني في الفراش - ستنهض باكراً!.

التحفتُ البطانية. ظلت أمي تتجول في الغرفة طويلاً، ولم أدرِ متى نامت.

* *

كنّا أنا وآبو نجري على منحدر جبل الجامعة متجهين نحو نهر فيري الصغير. آبو حافي القدمين، أما أنا فأنتعل حذاءً جديداً وسروالاً وقميصاً جديدين وربطة عنق للطلائعيين

- ما من ضرورة لخلع حذائك، اركب على ظهري، سأنقلك عبر النهر هكذا - وأدار لي ظهره. أصبحنا في الماء.

- حسنٌ، أسرعْ، أسرعْ ـ وهمزت "آبو" برجلي، فغضب مني ورماني في الماء مباشرة.

- ما بك، أيها الجاحظ، هل جننت ؟ - هجمت على آبو، فدفعني هو بدوره فسقط كلانا، وسحبتنا المياه نحو الأعمق.

سألني آبو :

- أتجيد السباحة ؟

- لا. وأنت ؟

- لا!

- سنغرق ؟! ـ تساءلتُ خائفاً.

- سنغرق!

يأخذنا نهر فيري بسرعة أكثر فأكثر، وها قد أخذنا إلى مجرى نهر ميتكفاري.* إلى أين يحملنا ؟!

- هل بردت ؟ ـ سألني آبو.

- لا المياه دافئة تماما ولم أعد أخاف.

- أوه، أمي مريضة وإذا غرقتُ، مَنْ نَقَلَ القمامة ؟ _ تذكّر آبو فجأة وراح يبكي.

---

* ميتكفاري: التسمية الغروزينية لنهر (كورا) الذي ينبع من تركيا ويصب في بحر قزوين

- أوه، إذا غرقتُ فلن أذهبَ إلى المدرسة. ستجنُّ أمي! – تذكّرتُ وبكيتُ.

نبكي ونهر ميتكفاري يحملنا إلى الأبعد. هي ذي نهاية المدينة وأمامنا يبدو حقلٌ واسع. نسمع أصواتاً نسائية. كانت ثمة امرأتان جميلتان تركضان على ضفتي النهر مرسلتين شعريهما.

- آبو، أفتو[1] _ إنهما والدتانا تصرخان.

- أفتو، يا ولدي! ـ تصرخ أمي.

ـ آبو، يا ولدي! ـ تصرخ الخالة سارة.

ونحن نجري أبعد فأبعد. مياه (ميتكفاري) دافئة، حنونة كَيَدِ الأم. أمامنا كانت تسبح الحقول، الغابات ثم الحقول فالغابات. إلى أن برز أمامنا البحر. بحر هائل لا حدود له.

وها هو النهر سيصبّ الآن في البحر. ماذا سيحل بنا عندئذٍ ؟

- آبو، أفتو، آبو، أفتو – كنا نسمع عويل والدتينا.

غدونا على أبواب البحر. حينذاك رمتْ المرأتان بنفسيهما في الماء. غطتا المياه بأطراف ثوبيهما. توقّف النهر. بعدئذٍ بدأت المياه ترتفع فيه من جديد. وهاهي تغمرهما حتى الركب ثم حتى صدريهما، حتى عينيهما، حتى شعريهما..... ثم تماهى النهر بالبحر، وغدت الدنيا سماء وماء. غطت المياه الأرض كلها. اختفت الجبال والغابات والحقول. اختفت والدتانا.

- ماما... ا... ا – صرختُ

- ماما... ا... ا – صرخ آبو.

- ماما... ا...!..

- أنا هنا، يا بني! اهدأ، ما بك يا حبيبي ؟

[1] أفتو: الاسم المصغّر لـ ((أفتانديل)) بطل الرواية _ المترجم .

فتحتُ عينيّ. كانت أمي الجميلة تقف منحنيةً فوقي بثوب نومها الأبيض، وشعرها الأسود الفاحم المسدل.

- يا أحمقي الحبيب! مم خفْتَ ؟ يا إلهي غاطس في العرق، هيا اخلع قميصك! - نزعت أمي قميصي ونامت بجانبي.

- نم يا حبيبي، نم يا صغيري!

- ماما، لا تذهبي!

- لن أذهب إلى أي مكان، نم...

بقيت طويلاً لا أتجاسر على إغماض عيني. وأخيراً سهوْتُ، وفي الحال ظهَرَ آبو.و من جديد بدا حافياً. لكن أمي كانت قد أعطته حذاءً وملابس ؟ مسكين آبو. لم تعد لديه أم... لكن لا بأس، سنضم آبو إلينا. ستحمّمُه أمي وتلبسه كل جديد ونظيف. سيصطحبه الأب إلى الحلاق، وسيتحول جاحظنا صبياً جميلاً نظيفاً، مسرّح الشعر. وسنعطيه اسم عائلتنا وسيصبح ((آبو دجاكيلي)).

- أليس كذلك يا ماما ؟

- ماذا يا بني ؟

- سيصبح آبو دجاكيلي.

- ولماذا ؟

- لأنه أضحى يتيماً. سيعيش معنا، وسندرس معاً، والمعلمة (نونو) ستدعوه (آبو دجاكيلي) كما تدعوني. أليس كذلك يا ماما ؟

- أجل يا بني، اجل! آبو دجاكيلي.

- هو ذا! ـ سمعت صوت والدي المتعض من غرفته ـ تلك هي النتيجة. هرعت إلى جنائزك وتأبيناتك وها هو الطفل يهذي.

- وأنت، ماذا تعتقد ؟ أيجب أن ينمو الطفل إنساناً أم حيواناً ؟

- فليجأرْ كما الحيوان!

- ليكن.

- ممتاز. اتركاني في راحتي!

- من أجل الإله!

- اسمع يا ولد - ورفع أبي صوته - استلقِ ونَمْ وإلا خرجت إليك وأعطيتك (آبو دجاكيلي)! يا أبو مخطة!

ضمتني أمي إليها بحنان ومسدت على رأسي.

- أجل يا ماما ؟

- أجل، يا بني، أجل! نمْ...

نمتُ. حلمت طوال الليل أنني أنام وأمي الجميلة، الحبيبة تداعبني بحنان.

غاب آبو أسبوعاً كاملاً. صرت، قبل ذهابي إلى المدرسة، أنقل سطل القمامة إلى فناء الدار.

وذات مرة حمل إلينا ساعي البريد برقية عاجلة تتضمن استدعاء أبي وأمي للسفر إلى (خوني) لزيارة قريبة أمي المريضة مرضاً شديداً والتي ترغب أن يعاينها غافريل دجاكيلي بأي شكل. تركاني في عهدة الجيران وسافرا بالسيارة ليلاً.

في اليوم الثالث وبعد أن عدت من المدرسة وجدت بيتنا يغصّ بالناس. اختفت من الغرفة الواسعة الأشياء كافة وحلّت في وسطها أريكتان بلا مساند تغطيهما ملحفتان بيضاوان وحولهما صفت الكراسي بموازاة الجدران. ودون أن أفهم شيئاً، رحت أتطلع مشدوها إلى الناس الغرباء الذين لم ينتبهوا لدخولي. فجأة ساد صمت مميت، اقترب مني أحدهم ثم داعب رأسي وأخذ يبكي.

- يا للطفل التعيس!

- ولدي، ولدي الحبيب!

- لا عدالة في الأرض!

فهمتُ كل شيء....

تفرق الجميع، وبقي في المقبرة حفّارا القبور وجدي وأنا.

- أسكنهما الله مملكة السماء! ولتطمئن روحاهما! - قال حفّارا القبور بعد أن شربا جرعة من الخمر، ثم صبّا البقية فوق القبر، بعدئذٍ تناولا رفشيهما، شكرا جدي ثم غادرا بهدوء.

فجأة ارتمى جدي، الذي لم ينبس ببنت شفة طوال فترة الدفن، فوق القبر وابتلع حفنةً من التراب وهو ينشج. ثم نهض، ألبسني قبعتي، وارتجفت من هول المفاجأة: أمامنا كان يقف (آبو) حاملاً طاقة من الأزهار، ووراءه كان والده يبكي وهو يستند إلى جدار القبر المجاور. قدّم آبو الأزهار صامتاً. وضعتها على القبر ثم أخذتُ بيده وقدّمته لجدي:

هذا آبو!

ربّت جدي على خده بحنان، وقبل رأسه...

بعد أسبوع باع جدي أملاكنا كلها ورحلنا إلى (بوكيتسيخي). كان جدي يصرّح لأقربائه من أهل تبليسي:

- الصبي - لحمي ودمي، يجب أن يترعرع في بيته الأم...

أكملت دراستي الثانوية في بوكيتسيخي.

منحتني مدرّسة المنطق إلى جانب الشهادة وثيقة، محتواها: (أعطيت هذه الوثيقة لأفتانديل غافريلوفيتش دجاكيلي وهي تثبت أنه اجتاز دراسته في ثانوية بوكيتسيخي وأن جده البولشفي القديم ايسيدر دجاكيلي - عضو المجالس المحلية كافة، الخبير بالعمل الحزبي - قد ربّاه كيتيم.

وكان في أثناء دراسته، حسن السلوك، شارك بانتظام في قطاف الشاي (الذهب الأخضر) وساهم بنشاط في الدورات الرياضية المحلية والمناطقية. كان يؤدي الصوت الجهير في الجوقة. كما كان في عداد العشرة الأوائل في الشطرنج (على مستوى صفه)

كان يلعب كرة القدم والطائرة والتنس وكرة الماء وكرة الطاولة وكرة الشاطئ. كما كان يُعَدّ عضوا ناشطا في الدراما والحلقات

الأدبية. كان يؤدي الأدوار الرئيسية التراجيدية في المسرحيات الكلاسيكية. بما في ذلك (هاملت) و(إيفان الرهيب) و(خليستاكوف).

مارس كتابة القصص القصيرة والشعر في مجلة الحائط. جدّه حالياً متقاعد.

أفتانديل دجاكيلي عضو في منظمة الشبيبة منذ عام 1965، وقد سدّد بشرف وانتظام اشتراكاته كافة. عمل في الكلخوز / 92 / يوماً. لا يدخن.

الخلاصة: شخصية أفتانديل غافريلوفيتش دجاكيلي إيجابية، وعلى هذا أوقع.

زينائيدا كيشفاردوفنا شيشيليدزه ــ مدرّسة المنطق في ثانوية بوكيتسيخي، القائمة بأعمال المدير مؤقتاً نظراً لمرضه.

أعطيت هذه الوثيقة لتقديمها إلى معهد الطب ".

* *

إلى مدير معهد الطب في تبيليسي

مقدمه: الطالب المتخرج حديثاً أفتانديل غافريلوفيتش دجاكيلي.

من سكان مدينة تبيليسي

شارع نينو شفيلي رقم 50

= تصريح =

أعرض ما يلي: أكملت دراستي الثانوية في مدرسة بوكيتسيخي، منطقة تشوخاتا - أورسك في حزيران (يونيو) من عام 1967.

منذ طفولتي الأولى ومهنة الطب تثير اهتمامي كفرعٍ هامٍ ومعقد من فروع العلوم. وأنا على يقين من أن الطب ضروري لمواجهة متطلبات تزايد السكان عاماً بعد عام.

وإضافة لذلك لدي جدٌّ عجوز، عاجز، شيوعي قديم، حزبي، مشهود له في عمله وهو، دون عناية طبية خاصة، لا يمكنه الاستمرار في الحياة.

لهذا كله أرجو أن تحققوا حلم طفولتي وتسمحوا لي بالتقدم لامتحانات القبول لأصبح في عداد المنتسبين إلى معهدكم المؤتمن.

صاحب الطلب: أ. غ. دجاكيلي.

تبيليسي في 15 / 7 / 1967

جدي هو مَن كتب هذا التصريح وأنا نسخته. وإلى هذا التصريح ربطنا الشهادة والوثيقة وتقريراً طبياً مع أربع صور - ثم هبطنا أنا وجدي إلى تبيليسي في السابع عشر من تموز. استقبلتنا العمة (شورا) - هكذا أدعو قريبتنا شوشانا أرتيلاكفا - بحفاوة. وضعوا الخرج[1] المليء تماما في مكان فخري، على رأس الطاولة في حين جلسنا بتواضع على الأريكة.

- يا إلهي صورة عن أبيه! - ضمّتني العمة شورا وراحت تبكي بطريقة دفعتني للبكاء وراءها وتبعني جدي.

- حسن يا (شوشانتي) - قال جدي أخيراً - والآن أصبح الأمر بعهدتك. سأترك الصبي تحت وصايتك.

- ايسيدر دجاكيلي! أنت أبونا، وحفيدك ابني. والده كان أخاً لي وسأكون عمّة لولده أفتو. بيتي بيته. سأهتم وأعتني به، سأطعمه وأسقيه كابن القيصر.قسما بالصليب! سأخلق منه خلال خمس سنوات

---

[1] وردت الكلمة بلفظ " خورجين "، ولعله مختلف، في الشكل، عما هو مألوف لدينا - المترجم.

مختصاً يدهش العالم بأسره. تذكّر كلماتي هذه! ماذا تزمع أن تدرس يا ولدي ؟ - توجّهت العمة شورا بسؤالها إليّ، فأجابها جدي:

- في معهد الطب.

جمدت العمة شورا فاغرةً فمها. ثم غطّتْ بتمهل عينيها بيدها.

- ما بك يا شوشانا ؟ _ سألها جدي متخوّفاً.

- لاشيء، لا شيء... الانتساب إلى معهد الطب أمرٌ ليس بهذا اليسر، يا ايسيدري...

- أعرف، أعرف يا عزيزتي... نحن لسنا من أولئك... لسنا بالدراويش، فرأس الصبي مليء نباهة، وهذه ليست فارغة! _ وضرب جدي على جيبه المليئة بقطع الثلاثمئة روبل.

ـ حسنٌ، إذا كان الأمر كذلك.. ـ وافقت الجدّ دونما ثقة وقامت لتفرش المائدة.

العمة شورا متزوجة من رجل أرمني يدعى بالروسية (ايفا ن سيرغييفتش كوتينوف) وبالأرمينية (أوفانيس سيدراكوفيتش كوتينيانتس) لكنني أدعوه ببساطة العم فانتشكا.

عمنا فانتشكا إنسان رائع. معتدل القامة، ممتلئ الجسم، أشيب كطائر الرخم، واسع العينين أزرقهما، حليق الذقن دائماً، بسّامٌ، وكذا يتحدث بصوت محّبب كأن في صدره ناقوسا فضّيا صغيرا مشدودا. لا يزال شاباً، ليس بأعمر من والدي المتوفى لكن لسبب ما هو أشيب بشكل كامل.

كان وقت الغداء قد أزف، حين قدم العم فانتشكا.

- أ و - - و - - تحياتي ل" إشبيني" العزيز! – صاح العم فانتشكا فاتحا ذراعيه.

- أي إشبين؟ ـ صاحت زوجته ـ سمه كما قلت لك.

- ماذا أسميه ؟

- ليس إشبينا على أية حال!

- وكيف ؟

- لا أعرف.. سمّه..

ـ قولي، قولي بماذا أدعوه.

- سمه " الأب"، هكذا – وجدت العمة شورا الحل.

- ايسيدر العزيز - توجّه بكلامه إلى جدي – طوال حياتي وأنا أدعو أبي ((سيدراك)). قولوا لي صراحة بما سأدعوكم ؟ الأب ؟

- لا تعرها اهتمامك، سمّني كما يحلو لك!

- ولن تزعل إن دعوتك إشبينا ؟

- طبعا لا!

- طيب، تحياتي، إذا، للإشبين العزيز – واندفع يعانق جدي، بعدئذ لاحظني.

- فـا وأنت هنا ؟ ولماذا تصمت ؟ دعني أراك جيدا! واخ، واخ! صورة عن أمه.

- ليس عن أمه بل نسخة عن أبيه – صححت العمة شورا كلام زوجها.

- فليكن كذلك. المهم أنه نمرٌ حقيقي، هذا والسلام! حسنٌ، والآن إلى المائدة!

نهض جدي، كور الخرج الذي فرغ، وضعه في الحقيبة ثم قفلها بمفتاح معلّق في رقبته وجلس مقابل العم فانتشكا.

- ماذا في هذه الزجاجة ؟ - سأل العم فانتشكا جدي وقد لمعت عيناه، فأجابه جدي:

- تشاتشا[1].

---

[1] تشاتشا: فودكا محلية مستخلصة من العنب ـ المترجم.

- وماذا في تلك ؟
- فودكا إجاصية.
ـ يا للروعة! ـ قال العم فانتشكا وصبّ الفودكا، مباشرة، في الأقداح ـ حسنٌ فلنشرب الجرعة الأولى.
- كان الله معنا! ـ قال جدي.
- في صحتكم! ـ قلت.
جرعنا الكؤوس دفعة واحدة. ولبعض الوقت سادت أصوات حركات الفكوك النشطة والأنفاس المتسارعة. لم يستعمل أحد الشوكة والسكين ما عدا العم فانتشكا، كان الجد يغضن وجهه، دون إرادته، كلما حزت السكين قطعة اللحم وصرفت متزحلقة على الصحن. لاحظ العم فانتشكا ذلك:
- فليأخذ الشيطان مَن اخترع الشوكة والسكين! – وضعهما جانبا وشمر عن ساعديه. بعد أن أسكت العم فانتشكا جوعه صب الجرعة الثانية.
- نخب وصولكما، يا إشبيني ويا أفتانديلي العزيزين. فليمنحكما الله الصحة!
وقفتُ وقلت:
- شكرا، أيها العم فانتشكا!
- أجلس ـ أجلس! إذاً، إلى أين قررت الانتساب ؟
قالت العمة شورا بسرعة:
- إلى معهد الطب.
- إلى معهد الطب ؟ - رفع العم فانتشكا حاجبيه.
- نعم إلى معهد الطب، ما الذي يدعوك للاستغراب ؟ ما الذي يجعل ولدي المجيد أسوأ من سواه ؟ وإن شئت أن تعرف، يجب أن يقبل في كلية أرفع من الطب، فيما لو وجدت – اشتعلت العمة شورا حماسا ثم أضافت – ودون امتحان!

- فا – فليقبلوه! وهل هذا يؤسفني ؟ فليصبح، بإذن الله، وزيرا للصحة. هذا سيكون أفضل بالنسبة إليّ!

أكدت العمة شورا:

- سيصبح – سيصبح وزيرا!

- أجل يا عزيزي فانتشكا – قال جدي – لقد اخترنا كلية الطب وعليك مساعدتنا.

صبّ العم فانتشكا الفودكا لنفسه. صمت قليلا ثم مسح شفتيه بمنديل ورقي وقال:

- سأقول بصراحة، يا عزيزي ايسيدر، قد أزمعتم على أمر ليس بالسهل. بم سأساعدكم ؟ سأرافقكم، فحسب، لتقديم الوثائق وأنتظر هناك في تلك الجهة من الشارع..

- ولمَ هكذا ؟ - تحفزت حواس الجد.

- لأن التفاحة إذا سقطت هناك لا تجد مكانا لها. هذا أولا وثانيا ـ حتى تقطع إلى تلك الناحية لا بدّ، كما يقولون، من أن تحمل شيئا في جيبك!

- ماذا أحمل ؟ - لم يفهم جدي.

- شيئاً ما ـ كرر العم فانتشكا القول.

- هذا ليس بصحيح! – قال جدي مستاء.

- ربما كان هذا غير صحيح – وافق العم فانتشكا – لكن بعد أن قُبل ابن مدير مؤسستنا (أ. ت. ك)[1] في معهد الطب، أعترف بأنني أصبحت أشك...

- ولماذا ؟ - لم يستسلم جدي – هل تُحظّر على ابن مدير(أ. ت. ك.) الدراسة، يا تُرى ؟

---

[1] أ. ت. ك. ـ اختصار لعبارة: دائرة النقل البري. ـ المترجم.

تناول العم فانتشكا (التشورتشخيلا)[1] من الزبدية:

- طيب، أنا أسألكم: أيمكننا أن نحصل من هذا الملبن على مزمار؟

تبادلنا النظرات دون أن نفهم.

- أجيبوا ، هل يتحول هذا إلى مزمار ؟

- لا ـ أجبت.

- يعني أنه لا يتحول ؟

- لا – قلت بثبات.

- حسنٌ ـ كان العم فانتشكا قد رفع الكأس حتى كادت شفتاه تلامسه، حين تدخلت العمة شورا:

- ستحترق أيها البائس، ستفطس ألا تدرك أن درجتها ستون ؟

- بل سبعون – قال جدي مصححا.

- معقول ؟ - استغربت العمة شورا.

- أقسم بالله! ـ وصلّب جدي.

و في أثناء انشغال جدي والعمة بتدقيق مسألة الأدلة النوعية للفودكا، كان العم فانتشكا قد جرع كأسه وملأه من جديد.

ـ لقد هدّ السكْرُ تماما هذا المسخ! – وضربت كفا بكف – قد حذرني المرحوم غابو، قال لي: لا تتزوجي من هذا الأرمني، لكن هل كان بإمكاني أن أخمن أن هذا الأرمني سيتحول، فوق كل هذا إلى سكّير ؟

- أين توقفتُ ؟ - تساءل العم فانتشكا. فذكّرته

ـ عند خيط الملبن.

---

(1) تشورتشخيلا: نوع من الحلوى قوامها الجوز وعصير العنب المجمد حول خيط طويل (ملبن).

- هكذا إذا. قلت أن خيط الملبن لا يتحول إلى مزمار لكنني أقول لك: يتحّول! إذا ما أصبح أبن مديري طبيبا، فقد يتحول ليس فقط إلى مزمار بل وناي أيضا!

ـ لماذا ؟ ـ سأله، عندئذ، الجد.

- لأن ذاك الأبله حين كان في الصف التاسع دّس في غليون جده، من باب المزاح، كبسولة. فقَد جده إثر ذلك أبهامه الأيمن، وفي الصف العاشر فجّر، بالديناميت، سيارة " الفولغا " لمدرس الفيزياء، وفي السنة الأولى من المعهد جرح أثنين من المارة الأبرياء.

- وبماذا يفكر والده ؟ ـ تساءل الجد.

- نقله من كلية الصحة العامة إلى كلية الجراحة. مفهوم ؟

- لا. ليس مفهوما! أنت مجرد سكران، فانتشكا!

- سكران ؟ وماذا في ذلك فالفودكا قوية، لذا سكرت. وإليك هذا: منذ أسبوع مضى، عبأ ذاك الولد العبقري أذني أبيه النائم بالبطاطا الحارة. قل لي: لأي سبب ؟

- شيء يجنّن – قفز جدي من مكانه ثم جلس – وماذا فعلوا به؟

- أخذوه إلى (أفلييي زورباشفيلي)[1]، طبعا أنتم تعرفون أنه من أشهر أطباء العالم بالأمراض... وحرك العم فانتشكا إصبعه بشكل دائري على جبهته ـ سأله الطبيب: لماذا فعلت هذا يا بني ؟ فأجابه الولد: هذا ما هو مكتوب في رواية ((قائد الهنود الحمر)) ل(أو هنري)[2].

هنا التفت الطبيب إلى أهل الولد العبقري وقال: من حسن حظكم أنه لم يقرأ كتاب ((قاتل أبيه)) للكاتب كازبيغي[3]. قال الأهل

---

(1) عالم نفسي جورجي.

(2) أو. هنري: الاسم الأدبي للكاتب الأمريكي وليام سيدني بورتر. توفى عام 1910 ـ المترجم

(3) ألكسندر كازبيكي: كاتب غروزيني توفى عام 1893 ـ المترجم.

للطبيب ودموعهم تجري: اشف ولدنا وسنمنحك وزنه ذهباً. فقال لهم الطبيب: هو لا يزن أكثر من خمسين كيلو غراماً. سأعطيكم ما يعادل وزني أنا ذهباً، أي ثمانية وسبعين كيلو غراماً وخذوه من هنا.

- وبعدئذ ؟ - كاد جدي يسقط عن الكرسي.

- وبعدئذ لا شيء. أمنوا له وثيقة – فيما لو قتل إنساناً لن يكون مسؤولا عن فعلته. وثيقة ضرورية جداً للطبيب!

أفرغ العم فانتشكا قدحه الأخير ثم تنهد بحزن وقال:

- انتهت حبيبتي..

- لكن، أتعلم - بدأ جدي الحديث - هذا كله مصادفة، أقول قد اندسّ هذا في المعهد بمحض المصادفة - -

- ربما كان هذا صحيحا يا ايسيدر العزيز!

- لا. هذا كله هراء! فلدى حفيدي وثيقة من الكلخوز وشهادة صحية والكثير من أيام العمل – وابتسم – وها هي النقود.. ليست بالكثيرة..

- كم ؟ - سأله العم فانتشكا.

- حوالي سبعمئة روبل.

- هاك ما سأقول لكم: غداً مباراة بكرة القدم بين دينامو – تبيليسي وتوربيدا – موسكو. اشتروا بهذه السبعمئة روبل (بذراً) و(فصفصوها) هنيئاً لكم. ستكفيكم طوال الشوطين.. أما أنا فسأنام قليلا– ومضى إلى الغرفة المجاورة.

*

يذكرُ يوم الفاتح من آب في شارع (فاجا بشافيلا) بيوم الحشر. كانت الحشود تغلي وتهدر وتفور مالئة باحة المعهد والشارع أمامه وحتى الشوارع المؤدية إليه. كل طالب متقدم يرافقه ثمانية أو أكثر من أقربائه. ها هنا تواجد الآباء والأمهات والأجداد والجدّات، الأخوة والأخوات، الأعمام والعمات، الأخوال والخالات، وأولاد الأخ وأولاد الأخت... توافدوا بالسيارات العامة وبسياراتهم الخاصة – فولغا، موسكوفيتش، زابوروجتس، زيل، بل وحتى على دراجاتهم النارية والعادية يقفون تحت أشعة الشمس اللاهبة، يتصببون عرقاً، يتحدثون ويتنهدون، يتجادلون ويتصارخون، يتبادلون نظرات الريبة: ماذا إذا قُبل ولدُه وليس ولدي؟ كان البعض يبدو مطمئناً في حين يبدو بعضهم الآخر في غاية الاضطراب.

وبماذا يمكننا أن نشبه بناء المعهد؟ ربما بفلك نوح، حيث حمل العجوز نوح في بداية الخليقة، في سفينته، من كل زوجين اثنين وفق قائمة لديه من عالم الحيوان. أحسست أنني أشاطر الجاموس مصيره، إذ نسيه نوح، فراح يسبح وراء السفينة المبتعدة ويعّج: "نو - وح، نو.. وح!"

دخلت السفينة في التاسعة صباحاً وغادرتها في الواحدة ظهراً.

كان جدي ينتظرني تحت شجرة الدلب. التقت نظراتنا. شعرت أن جدي قد فهم كل شيء. أشاح بوجهه عني كأنه لم يرني. إلهي، لماذا لا تنشق الأرض من تحتي؟ أيها الإله القدير أنعمْ على هذه الأرض الآثمة بصواعقك ورعودك، بزلازلك وحرائقك وزوابعك بحيث لا تبقي عليها ولا تذر - كي لا أضطر لمواجهة سؤال جدي الأخرس!

- أية علامة نلت أيها الفتى؟ - سألتني امرأة غريبة فأجبتها:

- خمسة![1]

- هكذا يوزعون الخمسات وبعدئذ... - قال أحدهم ممتعضاً.

---

[1] العلامة العليا - خمسة والدنيا اثنتان - المترجم.

- كيف الحال أيها الشباب ؟

- خمسة!

- وماذا سألوك ؟

- عن قانون أرخميدس.

- أي قانون ؟

- ذاك - - - عن الكتلة والسائل.

- أنت محظوظ أيها الأخ.

- طبعا محظوظ..

لكل شيء نهاية. وقد انتهى طريقي إلى (الجلجلة). وقفت أمام جدي وصمتُ. ضم جدي كتفّي، وبصعوبة خرج من بين الجماهير ثم اصطحبني إلى البيت.

- أيها الجد.. ـ بدأت الكلام.

- ما من ضرورة يا بني! ـ قال الجد ذلك فشعرت وكأن صخرة كبيرة سقطت عن كتفي..

تلقت العمة شورا حزننا بتفاؤل، عكس ما توقعت، وقالت:

ـ رسبتَ، بسيطة! معهدك باق، فان لم تقبل هذا العام، ففي العام القادم، بل ستسبق زملاءك، فبمثل رأسك!..

- ماذا حصل يا أفتو ؟ - سألني العم فانتشكا.

تمتمتُ:

- رسّبوني في الامتحان!

- وعلام قمت بالثورة ؟! ـ صاح جدي.

سألني العم فانتشكا:

- رسّبوك أم رسبتَ ؟

- رسبتُ.

قال العم فانتشكا مدققاً:

- لم تعرف ؟

- لم أعرف!

- والآن، ماذا تنوي أن تفعل ؟

- لا شيء..

ـ عزيزي ايسيدر – قال العم فانتشكا لجدي – اترك لنا الشاب، سنهيئه خلال عام في مادتي الفيزياء والكيمياء بحيث لن يرسب أمام اينتشتين!

لم يجب جدي. رماني بنظرة لائمة واتجه نحو الباب.

ـ يا لك! لم تستطع أن تحضر مادتين اثنتين ؟ أترى كم يعاني العجوز!

صمتُ.

بعد ساعة عاد جدي. أخرج من جيبه صرةً من النقود ورماها على الطاولة:

- هذه سبعمئة روبل ومثلها سأرسل في شهر كانون الثاني. سأعود في أب القادم إن بقيت حيا.. سأقول للجيران إنك التحقت بالمعهد – نعم سأقول لقد قُبل في المعهد، آه، ويلك يا ايسيدر دجاكيلي! والآن وداعاً، لم يعد لدي عمل هنا...

* * *

.. بنايتنا شهيرة في المدينة، قبل كل شيء، بموقعها مقابل مستشفى الأمراض التناسلية. إذا ما دعا أحد ما من جيراننا بعضا من معارفه للمرة الأولى، فهو يدلهم هكذا على وجه التقريب:

أتعرف مستشفى الأمراض التناسلية ؟ بيتنا يقع مقابلها. هي معوجة قليلا، تدعمها أربعة من الأعمدة، أفهمت ؟ تدخل من جهة الفناء، بوابة

حديدية قديمة، حديدها ملولب. لكنها غير منتصبة بل مرمية في مكانها. أفهمت ؟ وفي فنائه حنفية مياه، وثمة رتل أمامها، تصطف الدلاء. أفهمت ؟ إن لم أكن موجوداً، اسأل عني الساعاتي (روبين)، يجلس عادة في الكشك عند مدخل البناية. أفهمت ؟ سيقول لك بكل تأكيد أين أنا.

في بنايتنا تسكن فتاة جميلة جدا تدعى ((دادونا خوميريكي)). في الطابق الأول، باب شقتها يطل مباشرة على مدخل البناية. أم (دادونا) تتاجر بالبضائع المهربة. تدرس (دادونا) في السنة الثانية في معهد اللغات الأجنبية، قسم اللغة الفرنسية، أعمر مني بما يقارب السنتين. ساقا دادونا جميلتان، فخذاها طويلتان، مرتفعة الوركين كـ (مارينا فلادي)* - شعرها أسود فاتح اللون، عيناها مائلتان قليلا.

يجتمع، عند دادونا، في الأماسي، فتيات جميلات وشبان. يعزفون على الغيتار، يغنون، وفي ساعة متأخرة يخرجون إلى فناء البناية عصبة صاخبة حاملين تحت آباطهم مختلف الربطات والرزم. يقبّلون يد أم دادونا، ويدعونها ((مدام اينيسا))، في حين يقبّلون (دادونا) في وجنتيها ويدعونها (دادو). تعرفت إلى دادونا في أثناء وقوفي في الدور أمام صنبور المياه. وضعتُ الدلو في صف طويل من الدلاء والأباريق وعزمت على الصعود إلى البيت حين خرجتْ دادونا تحمل دلوين بيديها. كان هذا في الصباح الباكر.

- عفوا أين الدور ؟ - تساءلت وابتسمت ابتسامةً ساحرة، خفق لها قلبي.

- أنا الأخير.

- حسن سأكون بعدك. تذكرتني ؟

---

* مارينا فلادي: ممثلة عالمية اشتهرت في الستينات والسبعينات من القرن الماضي - المترجم

- وكيف لا! - وشملتها بنظرة من أصابع قدميها حتى عينيها البيضاويتين المزوقتين بالحبر الصيني.

- أحقاً ؟ ـ قالت مرتبكة.

- كلمة شرف، سأتذكرك دائماً.

- أشكرك على اهتمامك، سأذهب.

- وإلى أين تسرعين ؟

- إلى المحاضرة.

- قفي قليلا!.. أدعى دجاكو.

- دجاكو ؟ - رفعت دادونا حاجبيها باستغراب[1]

- أعني ليس دجاكو بل أفتانديل، (أفتو) ويدعونني دجاكو لمجرد أن كنيتي دجاكيلي.

- جميل!

- حقاً ؟

- جميل جداً.

- حسن وتستطيعين مناداتي بـ (دجاكو)

- بكل رحابة صدر، وأنا أدعى دادونا – مرحباً – ومدت لي يدها. إلى اللقاء!

- إلى اللقاء ـ أجبتها دون أن افلت يدها. فكررت:

- إلى اللقاء!

- ماذا ؟ هل عقدتما الرهان ؟ - اقترب منا الساعاتي روبين ودسّ سطله قبلنا بلا لباقة.

حررت دادونا يدها، وهزّت لي رأسها ومضت تتوثّب برشاقة وجمال.

---

[1] لأن " دجاكو " اسم منتشر كثيرا في " أوسيتيا "

- حسن، كيف ؟ ـ تساءل روبين.

- لا شك أنها جميلة! – أجبته – فليأخذها الشيطان!

- حينما انتقلوا إلى هنا، كانت أكثر جمالاً. بعدئذ اصفرّ شعرها فجأة وازرقت عيناها وقصر ثوبها حتى إنني فكرت إذا ما استمرت البنت في نموها سيصل الثوب إلى سرّتها عما قريب، لكن اتضح أن تلك هي الموضة (ميني) – هكذا تُسمى وقد فكرت، أنا الأبله، أن أسرتها تعاني من ضائقة مالية، لذا يلبسونها ثياب أطفال.ماذا تقول يا دجاكو ؟

لم أقل شيئاً بل أخذت سطله ونقلته إلى الوراء.

- أي.. ي، ماذا تفعل ؟ – قال روبين متعجباً – ها قد حلّ جيل من الشباب.. لا احترام ولا تقدير للشيوخ!

ـ الماء للصغير، أيها العم روبين! ـ ذكّرته بذلك.

ـ اسكت من فضلك. أخذتم كل شيء ـ الماء والفودكا والكونياك ومازلتم تتغنون دونما حياء عبر الراديو (واسعة بلادي الحبيبة، الاحترام لشيوخنا أينما كانوا) رُح، رُح، أعرفكم! – لوّح بيده امتعاضاً ومضى إلى كشكه.

- اعذريني يا أماه، من فضلك، ها هنا كان يحيا طفل منذ سبع سنوات، وهو ترب من أترابي، كان يدعى أبو، ألا تعرفين شخصاً كهذا ؟

- لا أدري يا بني. هذا الحي أعادوا بناءه مئة مرة لدرجة أنك لا تعرف جارك، فما بالك بصبي؟

قصدت مكتب الاستعلامات:

- يا آنسة، منذ سبع سنوات كان يسكن صبي كردي في شارع ميليكيشفيلي يدعى آبو.....

- يعيش في تبليسي عشرة آلاف من الأكراد، ونصفهم يدعى آبو، فما اسم عائلته ؟

- لا أدري، لم أهتم بذلك أبدا ، عشنا معاً ، كنا ندعوه الجاحظ.

- الجاحظ ؟

- أجل، كان يأكل الكثير من البصل، فتدمع عيناه..

- لا أعرف أيها الشاب، ولا يمكنني مساعدتك في شيء!

- عذراً!

- أهلاً وسهلاً!

- إلى اللقاء!

- ادفع، من فضلك، عشرة كوبيكات!

- سامحيني، قد نسيت، تفضلي!

- إلى اللقاء!

ـ أيها العم، منذ سبع سنوات كان يسكن هاهنا صبي كردي يدعو آبو.

- آبو ؟ ولدي يدعى آبو، ما علاقتك به ؟

- لقد ماتت أم صديقي آبو منذ سبع سنين

- وولدي (مات) أمه منذ سبع سنين.

- آبو صديقي من جيلي.

- صحيح! أنت وآبو في سن واحدة.

- لكنني أعرف والد آبو.

- أنا ؟

- لا ، ليس أنت بل والد آبو.

- أنا والد آبو.

- أنت والد آبو، غير ذاك الآبو.

- أي آبو أخر ؟

- صديقي آبو.

- لا أعرف، يا عزيزي

- حسن، أرجو المعذرة!

- لا بأس، يا عزيزي!

- إلى اللقاء، أيها العم!

- فلتلازمك الصحة، يا عزيزي!

* *

لا أثر لآبو. جبتُ أرجاء المدينة، ذهبت إلى (نافتلوغي) إلى المنطقة السكنية الثالثة، المنطقة الجديدة حيث يقطن الكثير من الأكراد. أينما سألت وحيثما نظرت لا أثر لآبو، لجاحظي، كأن الأرض قد ابتلعته! دُرت الحي السكني (ديغومسكي) و(ديزرتيركا)[1]، بازار مولوكانسكي، والمحطة وعلى كل الأماكن التي يمكن أن أجد فيها عمالاً من الأكراد. وجدت مالا يقل عن مئة من الأيتام ممن يماثلونني في سني وكلهم يدعون أبو، لكن دون أن أجد بينهم صديقي الوحيد آبو...

ـ مللت منك ومن صديقك آبو ـ قالت العمة شورا ـ اعتكف على دراسة الفيزياء وإلا سيعود الجد ويهز أعصابك..

إيهِ يا عمتي شورا الحبيبة، أنّى لك فهمي! الفيزياء! الفيزياء لن تهرب، لن تضيع. أما آبو فقد اختفى!

اختفى إنسان، ويجب أن أجده بأي شكل كان، لا أستطيع العيش بدونه، إذ يتجسد فيه كل شيء: طفولتي وأمي بيديها الدافئتين وعينيها

---

(1) فاكي، سابورتالو، ديغومي: من أحياء تبليسي.

الزرقاوين، وتلك الليلة التي نامت بقربي وهي تمسد على رأسي وتهمس لي " نعم، يا بني، نعم، هيا نم.."

لا تفهم العمة شورا شيئاً من هذا كله. الأمر مختلف مع العم فانتشكا! انه مستقرئ جيد ، يرى، يحس ويفهم كل شيء. فقد قال لي:

- اسمع أيها الشاب، علام تجري في المدينة دون طائل ؟ اذهب إلى المقبرة، أبحث هناك عن ذاك الآبو، فلا بدّ للابن من أن يزور قبر أمه، إن كان حياً. ألا تذكر أين دفنت سارة ؟

كيف لا، أيها العم فانتشكا! أفتانديل دجاكيلي يذكر كل شيئ! أم (آبو) مدفونة تحت قبر والديه بقليل وسيذهب إلى هناك. سيجد القبر وسيلتقي "آبو " بكل تأكيد. كيف لم يفكر قبل الآن بزيارة المقبرة ؟ سيأتي آبو إلى هناك حتماً، وإذا لم يأتِ فهو ليس بحي، وسيكف أفتانديل دجاكيلي عن البحث عنه.

منذ زمن بعيد والمقبرة في "فاكي" مغلقة. فتحوا مقبرة جديدة في " سابورتالو"ثم أغلقوها وفتحوا مقبرة أخرى جديدة في ديغومي[1]. وكلما ابتعدت المقبرة عن المدينة، قلت أعداد الأقرباء المشيعين للميت إلى مثواه الأخير. وإذا ما استمر الحال على هذا المنوال لن يودع الميت سوى أبنائه.

أما في القرية فالأمر مختلف. مقبرة القرية جزء من الطبيعة. والسير، ليلا، عبر مقبرة القرية لا يخيف، فلكل شخص أهل أو أقرباء مدفونون فيها، فعلام الخوف ؟ في المقابر الريفية تقام الاجتماعات والألعاب والأعياد وحلقات الرقص، لأن المقبرة عادة تقع ضمن حرم الكنيسة، ومنذ القدم والإنسان يقصد الكنيسة أيام الأفراح والأتراح.

---

[1] ديزرتيكا: التسمية القديمة لأحد أسواق تبليسي.

في المقبرة الريفية يستقر الناس، كما في الحياة، وفق مبدأ العائلية. فالمقبرة، كما القرية، مقسمة إلى أقسام عديدة – قسم لآل دجاكيلي، قسم لآل بيريدزه، والآخر لآل كلاندادزه، وهكذا.. في القرية لا وجود لمهن كمهنة حفار القبور أو صانع التوابيت ـ الجميع يحسن صنع التابوت والمهد.

في المدينة تحول الموت إلى قضية معقدة. أقيمت له تروستات ضخمة ومكاتب ودوائر وفروع للقبور والتوابيت، والأوركسترات وقداديس التأبين، وأواني وطاولات الولائم، والباصات وملابس الحداد ومستلزماتها والزهور والأكاليل والمرمر والغرانيت والتماثيل والمياه......

في مقبرة المدينة تسرق الأشجار والورود والمزهريات والبلاطات المرمرية بل وحتى الأعشاب. هنا استولوا على الأرض بصورة قطعية ودرّعوها بالمرمر والغرانيت. وأخيرا غدت مقبرة المدينة مزودة بالكهرباء ومكبرات الصوت.. أجل الموت في المدينة مسألة معقدة. في المدينة يخشون الموت..

- مارو..... و

- ها أنا ذا، من الذي يندهُ ؟

- اصعدي إلى هنا، من فضلك!

- من هذا ؟

- أنا، دجاكيلي!

- قادمة – قادمة..

(مارو) مكلفة برعاية قبر والديّ. يرسل لها جدي خمسة عشر روبلا في الشهر لتسقي الأزهار وتمسح الغبار عن الشاهدة وتقتلع الأعشاب التي تنمو حوله أحياناً. ومع ذلك فالقبر يكاد يكون مغطى بالأعشاب، الورود مقصوفة، والشاهدة مغطاة بطبقة من الأوساخ سماكتها سنتمترات.

ـ مرحباً! ـ أقبلت مارو وفي يدها سطل مليء بالماء.

ـ مرحباً، أنا ابنهما.

ـ نعم، قد فهمت ذلك.

ـ قولي يا مارو، لماذا هذه الأزهار مقصوفة ؟

ـ يسرقونها يا عزيزي. ماذا بوسعي أن أفعل ؟ يقطفونها ويبيعون الواحدة بروبل.

ـ لو أنهم قطفوها بشكل مرتب..

ـ أجل، بالضبط، لو أنهم قطفوها..

ـ والأعشاب ؟ هي ذي الأعشاب الطفيلية.....

ـ ماذا أفعل يا عزيزي ؟ كم لدي من الأموات ؟ وهل بوسعي العناية بهم جميعاً ؟

ـ كان ثمة مقعد ،أين هو ؟

ـ ماذا ؟ المقعد غير موجود ؟ سرقوه على ما يبدو، يا لهم من وقحين!

ـ ألا يأتي أحد إلى هنا ؟

ـ نعم يأتي أحد الرجال، ممتلئ الجسم، أشيب، يعطيني نقوداً، له الشكر.

ـ العم فانتشكا ؟

ـ لا أعرف يا عزيزي، لم أسأله عن اسمه.

ـ نظفي هنا من فضلك! سأعود قريباً.

ـ الآن، الآن يا عزيزي وفي الحال!

هبطت إلى الأسفل عبر الممر الضيق.ها هنا ، في مكان ما قريب، يجب أن يكون قبر المسكينة سارة. هذا القبر أذكره جيدا . في السابق كان يحمل شاهدة فقط والآن عليه تمثال نصفي:

الطبيب راجديون ايسيدروفيتش ميما رنيشفلي 1900 - 1950

و رباعية من الأبيات:

فجأة غادرتنا، لم تفلت من يد الموت الرهيبة

آخر هدية أحضرها لك أولادك الذين لا عزاء لهم.

يا للشيطان! وحتى الأطباء يموتون فجأة ؟

و أمشي ببطء في متاهة المقبرة بين قبور عادية وذوات شاهدات وتماثيل كاملة ونصفية... بحر من المرمر! قصور من المرمر، أجنحة خاصة فسيحة، مغطاة بالتوتياء، وهنا وهناك قبور منسية تعلوها الأعشاب.

تناهى إليّ، من مكان قريب، نحيب نسائي وندب. سرت باتجاه ذلك الصوت. فوق ركام قبر حديث كانت تجلس امرأة مسربلة بالسواد.

- أفتو، يا بني، يا حياتي، أفتو يا أملي الوحيد، يا شمسي! ويل لي، أنا التعيسة!

ارتجفت حين سمعت أسمي (أفتو). من هو ذاك الشاب المسكين ؟ جلستُ غير بعيد وتابعتْ المرأة نحيبها بصوت عال:

- لماذا أهلكتَ والدتك التعيسة ؟ أفتو الحبيب، يا ولدي الحبيب، العزيز!..

أخذتني القشعريرة وبرد جسمي كله. تخيلتني مستلقياً تحت كثيب هذا القبر الطري، وأن هذه المرأة هي أمي الحبيبة العزيزة تبكيني فبكيت.

- أأنت، يا بني، صديق أبني أفتو ؟

- أجل يا خالة.

- درستما معاً في الجامعة ؟

- نعم يا خالة.

- لقد أهلكني، أهلكني..

ـ أجل يا خالة.

ـ لا تنسني، زرني..

ـ بكل تأكيد، يا خالة.

ـ ما اسمك ؟

ـ أفتو، أيتها الخالة.

ـ يا لشقائي! وكيف لم أذكرك ؟ وأنت أيضا تدرس في كلية الفيزياء ؟

ـ أجل يا خالة.

ـ إذاً، كنتَ هناك في أثناء المشاجرة ؟

ـ أين يا خالة ؟

ـ هناك على شاطئ بحر تبيليسي، فليلعن الله هكذا بحر!

ـ لا يا خالة.

ـ شكراً لك، يا بني، إلى اللقاء

ـ الشكر لك، أيتها الخالة!

ـ علام ؟ يا بني!

ـ هكذا، شكراً. إلى اللقاء أيتها الخالة، ولتلازمك الصحة!

ـ فلتلازمك السعادة، يا بني، فلتلازمك السعادة!

كانت الشمس تنحدر فيما وراء الجبل. والصمت سيطر على المقبرة. وشجرات الصنوبر والدلب والست المستحية تتهامس، محركة أوراقها بهدوء، وكأنها تودع أسرارها بعضها لبعض.

انحدرت متثاقلاً نحو المخرج. كان ثمة أطفال من حي " باغيبي " التبيليسي يلعبون " الغميضة " في نهاية المقبرة. وقد استندت بنت صغيرة إلى تمثال أحد القبور، وراحت تعد بصوت مرتفع، مغطية وجهها بيديها :

ـ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة..

تفـرق الأولاد، كـأفـراخ خائفـة مـن حـدأة، راكـضين في أرجـاء المقـبرة، واختبـئوا، اسـتلقوا وراء التماثـيل وخلـف شـاهدات القـبور المرمرية، واندسوا بين الأحراج.

ـ ثمانية وأربعون، تسعة وأربعون، خمسون! ها أنا ذا أفتح عينّي! ـ صاحت الفتاة وتطلعت فيما حولها بحذر باحثةً عن الأولاد المختبئين. فجأة صفقت البنت بيديها وصرخت فرحة:

ـــ إنـني أراك، أراك! أخـرج يـا (تـيمو) أنـت هـناك وراء قـبر (تشخنكيلي)! دق – دق!

و خرج تيمو من وراء القبر.

ـ تاتيا، أخرجي، أراك! أنت تحت تمثال (باكورادزه) دق دق!

تابعت البنت بحثها. أما (تاتيا) فحذرت الأخرين:

ـ إن قلتُ (إجاصة) – اطلع، وإن قلتُ (تفاحة) لا تطلع!

كنت أقف على رابية وأرى الأطفال المختبئين وراء شاهدات وتماثيل القبور. أوشكت الشمس أن تختفي وبدأت الدنيا تعتم. فجأة تملكني الرعب وانحدرت من على الرابية وركضت نحو الأسفل مطوّحاً بيدي، صارخاً وبأعلى صوتي:

ـ أيها الأطفال كفوا عن هذا فوراً! أخرجوا يا أعزائي، أخرجوا جميعاً يا أطفالي الطيّبين، الأحبة. لا تتجرؤوا على الاختباء! اخرجوا أيها الأطفال!..

تراكض الأطفال على جناح السرعة، كلٌ إلى بيته، وقد تملكهم الرعب حتى الموت...

* * *

ـ مساء الخير دادو!

ـ مرحباً دجاكو!

ـ أفي وقت متأخر كهذا تعودين من المحاضرات ؟

ـ كان لدينا، اليوم، " عملي "، بعدها قصدنا السينما.

ـ ماذا شاهدتم ؟

ـ لا أذكر، فيلماً سخيفاً (الأموات يتحدثون بصخب أشد من الأحياء) أم العكس، كيف ؟

ـ حسن جداً.

ـ أي حسن ؟

ـ تسمية جيدة.

ـ أجل وهذه التسمية هي التي قادتني إلى الفيلم.

صمتت دادونا وراحت تدير رأس الصنبور الذي نضب ماؤه، فصمتُ أنا، أيضا.

ـ ومعي، أكنت تذهبين إلى السينما ؟ - قلت بسرعة وشعرت بالحمرة تكسو وجهي.

ـ معك ؟

ـ نعم.

ـ لم لا ؟

ـ متى ؟ - فرحتُ.

ـ عندما تدعوني.

ـ غداً.

ـ لا. غداً لدي ضيوف. تعال أنت أيضاً سأكون فرحة جدا. هل تأتي؟

نظرتُ إلى سروالي ومن ثم إلى دادونا وهززت كتفيّ. قهقهت دادونا وقد أدركت قصدي:

ـ أمر تافه! تعال بكل تأكيد.

ـ شكراً، سآتي.

ـ في العاشرة تماماً. ألن تخيب رجائي ؟

* *

رفضت العمة شورا، رفضاً باتا، أن تلبي طلبي في كيِّ السروال والقميص، عندئذ أخذت المبادرة بنفسي. حين بدأت رائحة النسيس تفوح في الغرفة للمرة الثالثة نفد صبرها:

ـ لا تجد بأسا في مصادقة المحتالين والمتاجرين بالبضائع المهربة! رأيت شباناً أفضل منك أضاعوا رشدهم بسبب مثل أولاء الغانيات ـ الشيطانات! يقفون حتى الصباح في فناء البناية وهم يعزفون على قيثاراتهم صارخين بأغان غبية تافهة. تفوه! النظر إليهم مقرف، أتمنى ألا تراك عيناي بين هذه المجموعة!

كان العم فانتشكا يقرأ الجريدة برزانة.

ـ قل ولو كلمة! ـ انقضّت عليه العمة شورا ـ قص على مسامعه مشاجرة السكاكين تلك التي حصلت بسببها. قصّ عليه! - أزاح العم فانتشكا زوجته بحذر وتابع القراءة.

ـ ماذا وجدت في هذه الجريدة، أيها اللعين ؟ - زعقت العمة شورا ـ الشاب على شفا الهاوية وأنت لا تكترث ؟

ـ دعيني وشأني، بالله عليك! ليس لدي الوقت لأفكر بكما، فثمة مقالة عن ماو تسي ـ تونغ ـ ثم ماذا سأقول له؟

وضع العم فانتشكا الجريدة جانباً وتطلع نحوي.

ـ قل، ألم تحدث مشاجرة بالسكاكين ؟

ـ حسن، حدثت، وماذا في ذلك ؟

ـ ماذا في ذلك ؟ - وقفزت العمة من مكانها ـ علام يدلّ هذا برأيك ؟

ـ هذا يعني، يا شورتي العزيزة، أن دادونا جميلة وتروق للكثيرين!

ـ ولا شيء سوى ذلك ؟ - وتخصّرت العمة شورا.

ـ وأي شيء آخر ؟ فالمشاجرات تقع دائماً بسبب الفتيات الجميلات. وما رأيك أنت ؟

تدخلتُ:

ـ ألم تحدث مشاجرات من أجلك يا عمة شورا ؟

ـ مشاجرات ؟ - استغرق العم فانتشكا في الضحك ـ لقد دسوها إليّ عنوة. وعدتني أمها (أرتيلاكفا) بكيسين من النقود، وبعد مرور شهر على الزواج، اقترحت عليهم ثلاثة أكياس مقابل أن يستردوها. لكن أنىّ لهم أن يفعلوا !

شحب لون العمة شورا :

ـ ماذا قلت ؟ ماذا قلت أيها الشنيع ؟ دسّوني عنوةً إليك ؟ يا لك من سافل! أنا - - -أنا.. فقدت بسببك أقربائي كلهم، لم يشأ أحد سواي أن ينظر إليك، فلتخفك الأرض!

ـ حسن، هذا ما أستحق! ـ تنهد العم فانتشكا ـ ومن جرّني إلى هنا؟ لو بقيت في ميلانو لعشت في نعيم مع حبيبتي! قد كانت امرأة، لا كهذه الغول!

كان العم فانتشكا قد وقع في الأسر مرتين: وقع، بداية، بين براثن الألمان الذين أجبروه على الحرب في صفوفهم ضد ا لأميركان في ايطاليا. وهناك أختطفه الأميركان. وبعد ذلك عاش في ميلانو وكانت لديه، كما يقول، عشيقة غنية تدعى (لوتشيا).

ـ مع من ؟ مع من كنت تعيش ؟ ومن بحاجة إليك، أيها التعيس ؟ أو تظنني لا أدري أي ذهبٍ أنت ؟! لقد آوتك تلك العجوز وأطعمتك كثور فلاحة لديها، فهمت ؟

تنهد العم فانتشكا مرة أخرى ومضى بتثاقل إلى غرفة النوم.

ـ إذا، ومع ذلك قررتَ الذهاب ؟ - التفتت العمة شورا إليّ.

ـ عزيزتي العمة شورا، أنا محرج. قد أعطيتُ وعداً، اسمحي لي بالذهاب اليوم، وستكون المرة الأولى والأخيرة ـ قلتُ راجياً.

- حسنٌ، امضِ حالاً، على أن تعود إلى البيت في التاسعة ؟

- أنا مدعو في العاشرة، فكيف سأعود في التاسعة ؟

- في الحادية عشرة، أسمعت ؟

- بكل تأكيد، أيتها العمة شورا!

* *

في العاشرة دخلتُ دارَ مدام (انيسا) الفاخر. لم تظهر ربةُ البيت أي سرور أو اهتمام لمجيئي. قادتني، بابتسامة معهودة من أية ربة بيت، إلى غرفة الاستقبال.

كانت الغرفة زاخرة بالأثاث وعبق العطور ودخان التنباك، وهذا الأخير كان واضحا أنه منتج مستورد. وعلى الأرائك الموزعة في أنحاء الغرفة كانت الفتيات جالسات دونما تكلف، مرتديات الميني جوب والشبّان يرتدون بزاتهم الدكرونية[1]. وقفتُ في الباب. رفعت دادونا أصبعها إلى شفتيها، محذرة، وأشارت برأسها إلى الأريكة الفارغة. كان ثمة، شاب نحيف، أشيب يقرأ أشعاراً مغمضاً عينيه، رافعاً إصبعه نحو السقف:

هاجت العاصفة

و طوال الشهر في شباط

ثابرت على منوالها..

على رؤوس أصابعي مشيت إلى الأريكة وجلست.

و الشمعة على الطاولة

كانت تحترق

كانت تحترق الشمعة..

(1) الدكرونية: نسبة إلى الدكرون وهو نسيج قوامه من الخيوط الصناعية المرنة - المترجم.

انتهى الشاب من إلقائه قصيدته، اقترب من الطاولة المنضدة بالفواكه والمشروبات، صبّ قدحاً من الكونياك واحتساه، وبعد هذا ابتسم للجماعة التي عبرت عن إعجابها بصخب.

ـ هات أيضاً، شيئا آخر يا أرتشيل - صرخت الفتيات بصوت واحد.

ـ لا أرغب! - وصبّ لنفسه قدحاً ثانية.

ـ نرجوك! نرجوك أشد الرجاء!

رفع أرتشيل كأسه ودون أن يحول ناظريه عن السائل الذهبي قال:

تحت الصفصافة الملتفة باللبلاب

نبحث عن ملاذ

يقينا سوء الأحوال الجوية

أكتافنا متشحة بالواقي المطري و يداي حولك ملتفة.

أخطأتُ: شجيرات ذلك الدغل

لا يكتنفها اللبلاب بل الحشيشة.

حسن، دعينا نعرّض تحتنا

هذا الواقي!

ابتسم الجميع بتحفّظ. جرع أرتشيل قدحه بسرعة وجلس. صفقتُ، فالتفت الجميع نحوي.

ـ أيها الأصدقاء ـ اغتنمت دادونا فترة الصمت ـ هذا جاري دجاكو، أرجو أن تحبوه وتلاطفوه!

نهضت وانحنيت للجميع.

ـ هل هو (أوسيتيني) ؟ - تساءل، دون أن ينظر إليّ، شاب عتريس، صدره ويداه كمصارع، كان يجلس إلى الطاولة مباشرة. مدّ يده، دون أن يقف، ملأ كأسه وعبّه.

ـ لا، هو غروزيني – أجابت دادونا.

ـ لماذا، إذا، يدعى دجاكو ؟

ـ كنيته دجاكيلي، أفتانديل دجاكيلي. (دجاكو) لقب.

ـ آ...آ...آ - مطّ العتريس صوته.

ـ والآن ندعو (مزيا)! - صرخ أحدهم.

ـ ندعوها، ندعوها! ـ آزره آخرون.

أتضح أن مزيا هي تلك الفتاة الجالسة بجانب الشاب الذي اهتم بمعرفة قوميتي. نظرت إليها وفكرتُ (غبيّة!). كانت تدخن سيجارتها بشرود نموذجي.

ـ مزيا، نرجوك!

ـ ماذا ؟ أنا ؟ - ونفضت رأسها.

ـ نعم، نعم ـ ناجتها الفتيات ـ أقرئي، أيتها العزيزة، قصيدتك (رقيقة أنا..).

ـ لا أذكر، أقسم بالله، لا أذكر...

ـ ستتذكرين!

و فعلاً تذكرتْ:

فتاة رقيقةٌ أنا

طيّبة، هادئة

مستعدة، دائما،

للتضحية بنفسي.

على سؤال أحدهم

((أتهبين قلبك ؟))

أجيب دون أن أرمش،

دون أن أفكر- نعم!

يحمل إليّ النسيم التحية

من البحر، أو الجبل
طائرا نحوي من الشرق أو الغرب،
يداعبني برقة، ويهمس بخفوت:
انسي، انسي،
انسي كلمة (لا)!

ـ يا الهي! يا للرقة! يا للأنوثة! ـ قالت جارتي هذا وتنهدّت. اقتربت دادونا مني وجلست على ذراع أريكتي ثم سألتني وهي تضع يدها على كتفي:

ـ أأعجبك ذلك ؟

صمتُ.

ـ سأمضي! - قال ارتشيل وهبّ واقفاً.

ـ إلى أين تمضي ؟ انتظر! ـ قفزت دادونا إليه.

ـ لا، أنا تعب! ـ وخرج أرتشيل بشكل استعراضي دون أن يودع أحداً. خرجت دادونا وراءه وخرجت أنا وراء دادونا.

ـ أنا لا أستطيع تحمل الحماقة والتفاهة! إلى اللقاء! –قال هذا وذهب، لكنه عاد في الحال، مدّ لي يده ـ أعتذر منكم!

ـ لا عليك، أرتشيل!

ـ أعذروني، إلى اللقاء!

ـ إلى اللقاء!

عدت إلى الغرفة، اقتربت من الطاولة، صببتُ كأسا لنفسي وجرعته دفعة واحدة.

ـ أوه! ـ قال أحدهم متعجباً. سكبت من جديد، لكن نصف كأس هذه المرة، وارتشفت.

ـ ذهبَ، فليذهبَ برفقة الشيطان! ـ صاحت الفتاة التي كانت تجلس بجواري ـ يا له من (فولكنر)[1]، لقد مللته، حين يقرأ لا يجرؤ أحدٌ على الحركة، أما هو فلا يعير الآخرين اهتماماً، دجاكو ـ وجّهت كلامها إلي ـ أعطني، اعمل معروفا، قدحاً من الكونياك وفنجاناً من القهوة! نفذت طلبها ورجعت إلى مكاني، وأنا أشعر أن الكونياك قد بدأ يفعل فعله. ضجّت الدماء في صدغيّ، ثم طنّت أذناي، وانساب الدفء في جسدي كله وبدأت يداي تتخدران، لكنني لم أقلق بل على العكس غمرني شعور لذيذ جعلني أنهض وأقترب من الطاولة وأجرع ما تبقى في الكأس.

ـ واه! وهذا مَنْ ؟ ريمارك[2]؟ - قال أحدهم.

جلست صامتاً في أريكتي. تابعت جارتي تنديدها بأرتشيل:

ـ يقرأ أشعار (باسترناك) وكأنه يقرأ أشعاره الخاصة! المسألة في نهاية الأمر مسألة لباقة! يا له من علاّمة في الشعر! مثلاً أنا معجبة جداً بشعر (مزيا)! وأنت ؟ فجأة سألتني الجارة.

ـ أرتشيل، شاب طيب! ـ هربت من الجواب.

ـ ومن قال أنه سيء ؟

ـ وشاعر جيد!

ـ ومن أين تعرفه كشاعر ؟

ـ إذا كان (أرتشيل) هذا هو نفسه أرتشيل غيغاوري، فهو شاعر رائع!

ألقيت بنظري إلى (مزيا). كانت تجلس لا هي بالحية ولا بالميتة فقلت لنفسي بتشفّ (يا لك من حمقاء بامتياز!). ثم حدث شيء ما رهيب.

---

(1) وليام فولكنر(1897 – 1962) روائي أميركي نال جائزة نوبل عام 1949 المترجم.

(2) ايريخ ماريا ريمارك (1898 ـ 1970) روائي ألماني ، ترجمت أعماله إلى أغلب اللغات ، أشهرها: كل شيء هادئ في الجبهة الغربية ـ المترجم .

بدأ الناس يتحركون في الغرفة. راحوا يعومون، يرتفعون إلى السقف ويهبطون إلى الأرض بسلاسة. فيما تقلصّ العتريس ذو الصدر المصارعي، انكمش كبالون مثقوب وتحول دمية صغيرة حمراء الخدين. قهقهت بصخب. جاءت إليّ دادونا:

ـ مالك ؟ أأنت سكران ؟

ـ لا ، أنا لا أسكر من الكونياك! – قلت بصعوبة.

ـ علام تضحك، إذا ؟

ـ أنظري إليه كم هو صغير.. ومضحك! ـ وأشرت بإصبعي إلى العتريس. فتململ هذا في أريكته وقد أحسّ بشيء ما مزعج. أغلقت دادونا فمي بيدها ثم قالت بصوت عالٍ:

ـ يا بنات، نرجو أن يقرأ (غيلا) شيئا من أشعاره الجديدة!

ـ هيّا، غيلا!

ـ لا أستطيع، فهي غير مكتملة بعد! – قال غيلا الوسيم، حليق الشعر على الموضة القصيرة.

ـ أتدري من هذا ؟ – همست لي جارتي، فسألتها:

ـ ما اسمك ؟

ـ اسمي " ايزيدا " ـ أجابتني باستغراب.

ـ حسن يا (إيز.زيدا) العزيزة، أنا لا أعرفه!

ـ كيف، ألم تسمع بـ (غيلا فيشابيدزه) ؟

ـ لأول مرة أسمع عنه منك!

ـ يا إلهي! ألا تخجل! إنه أملنا!

ـ أمل من ؟ أملك ؟

ـ أمل غروزيا – أمل الشعب!

كان غيلا قد بدأ يقرأ:

عبر ضباب الوثنية

ملعلعا، كاسحا كل شيء

في طريقه

بجلاميد هائلة،

يسعى شبح أبيض،

شبح الماضي والمستقبل!..

استعر الكونياك في جسدي. كانت الغرفة تتقافز في رقص متوحش. دارت الثريا. ثم بدأت أشعة المصابيح تسقط على شكل أطواق ذهبية محيطة بالفيلة المصفوفة على البيانو الأحمر مختطفة إياها. وبدأت الفيلة تدور كأحصنة المراجيح ثم حدث أن اعتلى كل منّا أحد الفيلة. راحت الأرجوحة تسرع في دورانها. كانت دادونا تركب الفيل الأول وأنا وراءها أمتطي الفيل الثاني ثم (ايزيدا)، (مزيا)، غيلا. كان أحد الفيلة بلا راكب. لعله مكان أرتشيل. وعلى الفيل الأخير - كان أصغر تلك الفيلة - ركب عتريسنا، مادّا رجليه بشكل مضحك.

راح غيلا يقرأ:

عبر القرون

يطير لقلق أبيض الجناحين،

مختطفا الكرة الأرضية

بقائمته المخلبية..

ظلت الأرجوحة تدور وتدور وتدور...

" أي هذيان هذا ؟ - فكّرتُ ـ أم أنني فقدت عقلي نهائيا ؟ ". فجأة حل الصمت. عاد الجميع إلى أمكنتهم. اختفت الأرجوحة واصطفت الفيلة، كسابق عهدها، فوق غطاء البيانو الأحمر. طال الصمت، وأخيراً تكلم أحدهم ثم تبعه آخر ثم البقية.

ـ يا إلهي! يا للقوة! – قالت إيزيدا.

ـ يا للروعة! – أردفت الفتاة ذات الشامة.

ـ من هذه ؟ – سألت دادونا وأنا أشير إلى الفتاة.

ـ إنها " فيتا ". فتاة طيبة تتذوق الفن جيداً. هل أعجبك غيلا ؟

ـ أمل غروزيا ؟

ـ لا تسخر مني من فضلك! أجب، هل يعجبك ؟

ـ "غيلا " أبله ودجال! ـ أجبتها وأنا أشعر بصوتي يعلو أكثر من المعتاد.

ـ ماذا قلت ؟ التفت العتريس إليّ.

ـ ما اسمه ؟ – انحنيت نحو دادونا.

ـ أنزور – أجابت دادونا بصوت متوسل ـ أرجوك يا دجاكو!

ـ أنا أسألك! – كرر أنزور سؤاله.

ـ ماذا تريدون ؟ – سألته بأدب.

أف، لم يعد يبدو لي صغيراً. كبر السافل فجأة، يا لرقبته وساعديه القويتين! كيف تحمله الأريكة ؟!

ـ أتساءل، ماذا قلتم ؟ ونهض أنزور.

ـ لا شيء، لم أقل شيئاً!

ابتسم أنزور بخيلاء وجلس. سألته:

ـ أتمارس الرياضة ؟

أرتبك وقال:

و لم ؟

- وصديقك الذي يقرأ الشعر يصطحبك دائماً معه ؟ ابتسمت دادونا. سألني أنزور:

- وماذا في الأمر ؟

الأحمق لم يفهم شيئاً.

- هـل أعجبـتكـم الأشـعـار ؟ - تـوجهت ايـزيدا بـسؤالها إلـيّ. لم أجبها. تطلعت إلى "غـيلا". كـان وجهـه ووضـعية جلوسـه يعـبران عـن توتـر شديد.

قالت الفتاة ذات الشامة باستفزاز:

- يبدو أنـك قليل الاطـلاع علـى الأدب الحديث. الآن تُعتمَدُ كتابة الشعر الحر أي بلا قافية.

ـ أتوجهين كلامك إليّ ؟

ـ أجل إليك. هل قرأت فولكنر ؟

ـ قـرأته. قـرأت فولكـنـر وهمـنفواي وكـافكـا وشـتاينبك والآن أنـا أقرأ سـارتر.

ـ سارتر لم يترجم بعد.

ـ أقرؤه بلغته الأصلية.

ـ ومن يعجبك منهم ؟

ـ كلهم.

ـ ومع ذلك من تُفضل ؟

ـ غالاكتيون[1].

ـ حسنٌ، لدى غالاكتيون الكثير من الأبيات التافهة.

ـ مثلاً ؟

ـ أنـا لا أذكـر الآن بالـضبط. لكـنه كـتب عـن حبـة الـشوندر الـتي تضحك. فكيف تفسّر ذلك ؟

ــ مـاذا تقـولين ؟ تـشبيه رائـع! أولاً ثمـة تجـانس الأحـرف في بـدء الكلمـات وثانياً، يـا للصورة البـديعة! تخيلـي إنـسـاناً يضحك ويحمرّ من الضحك. ألا يقولون بهذا الخصوص، احمرّ كما الشوندرة!

---

(1) غالاكتيون تابيدزة: شاعر شعبي غروزيني – المترجم .

ـ أهكذا تظن ؟

ـ لا أظن، بل هو الواقع!

ـ على أية حال، الشعر ليس نظاما داخليا للكلخوز!

ـ وهو، بوجه أخص، ليس عرضاً في السيرك. أتستطيعين أن تتصوري لقلقاً يحمل بقائمته الكرة الأرضية ؟ ابتسمت ايزيدا بشكل أخرق ثم سألتني:

ـ أتكتب الشعر ؟

ـ طبعاً.

ـ طيب، اقرأ لنا.

ـ بكل رحابة صدر.

تحت نظرات الحاضرين الدهشة، قمت إلى الطاولة، سكبت كأساً طافحاً من الكونياك ورجعت إلى مكاني والكأس في يدي.

ـ هذه القصيدة كتبتها أيام طفولتي، كان عمري ثمانية أعوام. أذكر كنا نستجم في كوبوليتي. وكان الجو حاراً والشاطئ لاهباً. اعترفت لأمي أنني كتبت بالأمس شعراً، وهناك قرأته على مسامع والديّ السعيدين:

كنت أتنزه في جادة باريسية.

كانت عيناي تضطرمان بشراهة،

حين شاهدت الشارع العريض الهائل

و أمداءً من البناء

لا يطاولها النظر.

يضجّ، يهدر المعمل الهائل

يئن العامل ـ عبد الرأسمال

لكن يعرف العاملُ، كما أعرف:

تعيش العبودية أيامها الأخيرة!

هاهنا قوى الحرية بدأت تنمو

و الشمس بدأت تسطع للعمال

و الأغلال الفاشية سرعان ما تسقط،

و سيهلُّ يوم العمال السعيد!

صرخ الجميع، وزعقت البنات وضحكت أنا أيضا. طفحت عينا دادونا بالدموع جراء الضحك

ـ وماذا قال والداك؟ - بصعوبة تفوهت ايزيدا.

ـ لم تقل والدتي شيئاً، لكن أبي أجلسني تحت الصنوبرة وقال لأمي: " انتبهي إليه، احميه من الشمس وإلا هلكنا!".

حين سكنت نوبة جديدة من القهقهة، توجّه أنزور إليّ:

ـ وهذا يسمى شعراً ؟!

ـ يا عزيزي، كي تفهم الشعر لا يكفي أن تتمسك بأقراص الأثقال، لا بدّ أيضا من قراءة الكتب، مفهوم ؟ ـ أجبته.

ـ من أي منطقة قدمت ؟ سألني أنزور مقترباً مني.

ـ من تشوخاتاورسك.

ـ هو ذا الوقت المناسب لعودتك إلى هناك!

ـ انتظر حتى آب. ستجرى في آب امتحانات القبول، إن رسبت سأسافر في الساعة ذاتها، وإن، قُبلتُ، ستضطر لتحملي طوال ستة أعوام.

بدا الشحوب واضحا على وجه أنزور.

ـ أما فيما يخص أشعار صديقك فهي ضعيفة جداً، أعني ليست ضعيفة فحسب بل هي ببساطة لغو.

ـ ما هي ببساطة ؟

ـ لغو. إن كانت الكلمة غريبة عليك انظر القاموس تحت حرف اللام – ل غ و.

نهض العتريس، رمش بعينيه وقد أعياه الجواب، وابتسم بغباء.

كان واضحاً أن دافعا ممضا يحثه للرد بحدة جارحة. وأخيراً قال بسرعة وقوة:

- أنت بكل بساطة، أحمق!

طبعاً، لم أنتظر منه الأحسن، وعلى الفور اجتاحتني البرودة، ارتجفت يدي التي كانت تحمل كأس الكونياك. سألته:

ـ ماذا قلت ؟!

ارتبك، لكنه كرر:

ـ أنت مجرد أحمق!

حينذاك صمّمتُ. بصقتُ في قدح الكونياك ورشقته في وجهه.

ثم حدث ما يصعب شرحه. أضيئت الغرفة فجأة بوميض ساطع، ودارت الأرجوحة من جديد. ومرة أخرى امتطى الجميع الفيلةَ. وحدي أنا لم أكن بينهم، كنت مستلقياً على الأرض وأنا مستغرب: لماذا تشتعل وتنطفئ الثريا بسرعة كهذه.

.. ظلت العمة شورا يومين كاملين تبدل، دون كلل، كمادات الماء الباردة على وجهي المشوه. وفي الفواصل الزمنية بين هذه الإجراءات، كانت تهبط إلى الأسفل، فيلعلع صوتها مالئا أرجاء الشارع:

ــ أفتحوا الباب، أيها الأوغاد، افتحوا وإلا سأخلعه بمواكبة الشرطة. أيها المحتالون، يا تجار المهربات، أيها الفاسقون اللعينون، سأحرق وأدمر عش أفاعيكم. نصّابون أنتم قذرون!

و لزم آل خوميريكي الصمت. لم تكن العمة شورا لتجبن، وقد بلغت أوج غيظها، عن تنفيذ تهديداتها لولا قرينة هامة: أنني كنت البادئ بالمشاجرة.

لـزم العـم فانتشكـا الحـياد. كـان، في كل مرة، وهو يمر من أمام سريري، يسألني:

ـ أحقاً هذا كله عمل شخص واحد ؟

ـ أجل عمل شخص واحد.

ـ أحقاً رشقت وجهه بالكونياك ؟

- رشقت، أيها العم فانتشكا.

ـ وقبيل هذا بصقت في الكأس ؟

ـ أجل، يا عم.

ـ ومن أين ابتدعت هذه الفكرة ؟

ـ رأيتها في فلم أجنبي.

ـ لا بأس، قد خرجت، يا أخي، من الورطة باليسير من الأضرار!

ـ أي يسير ؟ بماذا تهرف ؟ احتدت العمة شورا ـ لا تدري أنفه من فمه!

غمزني العم فانتشكا وابتسم بخبث.

في اليوم الثالث عاد لوجهي شكله وللعمة شورا هدوءها النفسي.

صعد إلي صبي من صبية الجيران، صباحاً، منتهزاً غياب عمتي عن الغرفة وأعطاني وريقة: ((أفتو، تعال إن استطعت في الثالثة. سأنتظرك قرب المعهد. دادونا)).

وكعميل سري مجّرب حرقت الوريقة. في الساعة الثانية تماماً كنت أتسكع في المكان الموعود. وفي الساعة الثالثة إلا ربعا تبدّت دادونا.

ـ فكرت أنك لن تأتي!

ـ مرحباً، دادو!

ـ مرحباً دجاكو!

ـ ماذا حصل يا دادو ؟

ـ أأنت زعلان ؟

ـ وممَ أزعل ؟

ـ لا أدري...

ـ أنا المذنب في كل ما حدث.

ـ لا!

ـ ومن إذا ؟!

ـ لا أدري ربما الجميع أنذهب إلى مكان ما ؟

ـ إلى أين دادو ؟

ـ سيان أريد التحدث إليك.

ـ فلنمض!

.. جلسنا في مقعد التاكسي الخلفي ـ أنا وراء السائق ودادونا بجانبي.

ـ إلى أين ؟ ـ سأل السائق وأدار العداد.

ـ إلى حيث تشاء!

نظر السائق إلي باستغراب. فكررت:

ـ سيّان، سرْ حيث تشاء!

ـ فهمت! سنسافر إلى (أفلابار) [1] - قرر السائق.

ـ ولماذا إلى أفلابار بالذات ؟

_ـ إلى أفلابار يسافر العشاق دائماً.

ـ ولماذا ؟ - سألت دادونا.

---

[1] أفلابار: حي قديم في تفليس (تبيليسي) .

ـ هناك الكثير من الشوارع الضيقة والمنعطفات. وعند كل منعطف يتعانقون زاعمين أن ذلك حصل نتيجة الصدمة.أتفهمان ؟

ــ إذا كان الأمر كذلك، فلنذهب إلى شارع (فوبينا ــ غروزنسكايا) صمتنا طوال الطريق. مرة وحيدة قطع السائق الصمت محدثا نفسه:

ـ سفيتيسخوفيلي[1] في طور الترميم وأيام الاثنين لا يصعدون إلى دجفاري[2]، أفضل مكان، الآن، مطعم (ناتاختاري).

ـ أوصلنا من فضلك، إلى دجفاري!

التفت السائق إليّ. تبدّى لي في عينيه شيء أعرفه بشكل مبهم. انعطف فوراً وزاد في سرعته.

كانت دادونا تتطلع متأملة الغيوم البيضاء السابحة في السماء، ويدها اليسرى تستقر فوق المقعد، كأنها ليست لها. رنوت إلى دادونا ما يقرب من دقيقة، لكنها لم تلتفت إليّ. قرّبت بحذر يدي نحو يدها، لكنني لم أجرؤ على لمسها: اصطدمتُ من خلال مرآة السيارة بنظرة السائق الثابتة المحرقة من عينيه السوداوين. ((وقح)) ـ خطرت الفكرة ببالي. فجأة انعطفت السيارة نحو اليمين باتجاه الطريق المؤدية إلى دجفاري.و ارتمت دادونا عليّ بجسدها كله. احتضنتها دونما قصد. بدا وجهها لصيقاً بي، وكانت عيناها تنظران إليّ بحنان لدرجة أنني لم أتمالك نفسي فقبلتها. أغمضت دادونا عينيها، لكنها استدركت في الحال وأبعدتني عنها بلطف.

ـ ثمة، في طريقنا، ثمانية من أمثال هذا المنعطف! ـ قال السائق من جديد، والتقطتُ عبر المرآة، من جديد نظرته المهتمة.

---

[1] أحد الآثار الحربية في جورجيا بني بين (1010 – 1029)

[2] دجفاري: معبد قديم شيد بين (589 – 604)

ـ انظر أمامك، من فضلك! ـ صرخت في وجهه ـ اهتم بعملك. أخشى أن تنقلب السيارة.

وفعلاً، كأن الأمر جاء تأكيداً لكلامي، تعرجت السيارة ثم اهتزت وتوقفت.

ـ يا للشيطان اللعين! مرة أخرى حطّ الدولاب - خرج السائق من السيارة. ضرب حانقاً العجلة برجله ثم بصق ـ للمرة الثانية ينزل هذا اليوم. أعتذر، لا بدّ من نزولكما. ـ أخرج العدّة من صندوق السيارة ونظر إليّ نظرة الاعتراف بالذنب. قلت مقترحاً:

ـ أنزع العجلة وسأقدم الاحتياطي لك.

ـ شكراً.

رحت أنفخ إطار العجلة الداخلي. بعد أن عددت حتى المئة، التقطت أنفاسي قليلاً ثم تابعت النفخ وأنا أعد، بيني وبين نفسي: واحد ـ اثنان ـ ثلاثة...

ـ أربعة – خمسة، - سمعتُ صوت أحد ما ـ التفتُّ. كان يقف أمامي صبي في حوالي الرابعة عشرة من عمره. طويل وجميل، بلبدة مخددة وكثيفة لم تحلق منذ أمد بعيد. يلبس سروالاً مرقعاً وقميصاً أحمر كتانياً. كان يبتسم. قلت:

ـ مرحباً!

ـ مرحباً ـ أجابني ماداً يده.

ـ من أنت ؟

ـ ميراب.

ـ ألا تساعدني، يا ميراب ؟

ـ نعم! – فرح ميرا ب وأمسك بالمنفاخ وراح يعدّ:

ـ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة - ثم يكرّر – واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة – قلت: ستة! فكرر هو:

ـ خمسة! سألته: أين تسكن ؟

ـ أنا ؟

ـ أجل.أنت.

ـ هناك – وأشار بيده إلى (تسيساموري)*

ـ ألك أم ؟

ـ لي

ـ وأب ؟ ـ سألني بدوره:

ـ أب ؟

ـ أجل، أب.

ـ عندي اثنان.

ـ كيف اثنان ؟

ـ عندي أب وأب آخر.

ـ لا أفهم.

ـ رستم و(تيدو). أب كبير وأب عادي.

ـ آه! واضح – أبوك وجدك، أليس كذلك ؟

ـ نعم.

ـ أتدرس ؟

ـ نعم.

ـ في أي صف ؟

ـ في الثالث.

ـ وكم عمرك ؟

ـ سنة! – ابتسم الصبي ولمعت عيناه ببريق غريب سقيم.

انقبض قلبي.

ـ كيف "سنة"، وأنت صبي كبير ؟

ـ سنة، سنة! – كرر بعناد.

---

* أسم قرية .

فجأة رمى الصبي بالمنفاخ، رفع سرواله وركض وهو يصرخ ((داتو، داتو!)).

كان ثمة، صبي يسلك الطريق الضيقة حاملاً حزمة حطب على كتفه. ركض ميراب إليه، اختطف حزمة الحطب وجرى نحونا. وضع الحزمة جانباً وأمسك بالمنفاخ.

- يكفي! - قال السائق - سأركب الدولاب بسرعة ونمضي! سألت ميراب:

- من هو هذا الصبي يا ميراب ؟

- داتو، أخو (ناتيلا) - أجاب بصوت دبّ الدفء فيه فجأة وخفضَ عينيه.

- ومن هي ناتيلا ؟

- ناتيلا أخت داتو.

- أتحب ناتيلا ؟

ارتبك الصبي وخفض رأسه وارتبكتُ أنا :

- أين ناتيلا ؟

صرخ الصبي:

- ناتيلا غير موجودة.

- أين هي ؟

- ذهبت ناتيلا.

- إلى أين ؟

- وحدي أنا أعرف، غيري لا يعرف. أنا أعرف.

- حسن، قل لي، إذاً، إلى أين ذهبت ؟

- لقد اختبأت. أغمضت عينّي وعددت - واحد - اثنان - ثلاثة - أربعة - خمسة - عددت كثيراً لكن "ناتيلا" لم تأت.

- كنتم تلعبون الغميضة ؟

ـ نعم.

ـ والآن، أين هي ؟

ـ لا وجود لها. لقد عددت وعددت وجاء الجميع ما عداها.أنا أعرف أين ناتيلا، أراها. لا أحد يدري أين هي.أنا أعرف!

ـ ميراب! ـ وشعرت بصقيع يدبّ في جسمي ـ حسن، أين اختفت ناتيلا ؟

ـ لا، لا وجود لها. ألا تصدق ؟ اسأله! ـ قال بصوت عال وركض نحو الصبي الذي رأيته منذ برهة. كان يقترب منا حاملاً رزمة جديدة. وصل الصبي إلينا ثم قال لميراب:

تعال، قدِ الحمار!

راح ميراب.

مرحبا أيها الصبي!

مرحبا!

من ذاك ؟ - وأشرت إلى ميراب المبتعد.

ميراب.

ـ ما به ؟

ـ أصيب بحمى دماغية.

ـ كم عمره ؟

ـ ثلاثة عشر عاماً، لكنه يقول: سنة.

ـ وعمرك ؟

ـ اثنا عشر.

ـ ومن هي ناتيلا ؟

ـ أختي.

ـ أين هي ؟

ـ ماتت منذ ثلاث سنوات.

وكـي أخفـي نـشيجاً وصـل إلى حنجرتي، درتُ بسرعة واتجهت نحو الـسيارة. زمّـر الـسائق. جـاءت دادونـا تحمـل باقـة مـن أزهـار الأقحـوان والخشخاش.

ـ أنظـر، كـم هـي جميلة! ـ قالـت وهـي تـناولني الـباقة. انطلقـت السيارة. تطلعت عبر النافذة، فرأيت ميراب يشدّ بزمام الحمار الحارن.

ـ قف من فضلك! ـ خرجت من السيارة وركضت نحو ميراب.

ـ ميراب، خذ هذه الأزهار إلى ناتيلا.

ـ إلى ناتيلا ؟ - قال ميراب مستغرباً.

ـ نعم إلى ناتيلا.

ـ مـا حاجتها للأزهـار ؟ انظـر مـا أكثرها. هـذه كلها أزهارهـا ـ وأشار بيده إلى الحقول الملآى بالأقحوان والعنبر والخشخاش.

ـ لا بـأس، أحملـها إلـيها، فالبـنات يحـببن الأزهـار، خـذ ووضـعت الباقة في يده، ثم رجعت راكضاً. قال السائق لدادونا:

ـ إنه أهـبل. يقـف هـنا ويلوّح للسائقين. ونحـن، طبعاً، نـتوقف. مثير للشفقة. لكنه لا يريد شيئاً، لا يأخذ نقوداً، مجرد أهبل! فلننطلق!

الـتفتّ. كـان مـيراب يقـف والـباقة في يـده وحـوله يـتماوج بحـر مـن الأقحوان والعنبر والخشخاش.

.. بدأ الطـريق يـرتفع.غيّـر الـسائق الـسرعة ونتيجة الارتجاج الخفيف لامـست يـد دادونـا يـدي. الـتقطت يـدها وضـغطت علـى راحـتها الدافـئة البـضة. اسـتجابت بحـركة تكـاد لا تُلحـظ مـن أصـابعها. حيـنذاك احـتضنت الفـتاة، جذبـتها إلـي قليلاً ودفـنت وجهـي في شـعرها المنفوش الكـثيف. أسـكرني عـبيرها اللذيـذ لـذةً لا توصـف، عـبير الـتقت فـيه العطور والأزهار والأعشاب اليابسة. أخذت بشفتيّ شحمة أذنها الصغيرة. كانـت حـارّة كـصدفة بحـر محمـاة تحـت أشـعة الـشمس علـى الـشط.

وكصدفة بحرية كانت ترن وتوشوش، وتغني أغنية أسطورية خفيّة. انتفضتُ بعد أن شعرت بنظرة السائق الثاقبة، واستقمتُ. سألني:

ـ أليس لديك سيجارة ؟

قدّمتُ له، صامتا، علبة السجائر والكبريت. بمهارة مهنية، ودون أن يخفف من السرعة، أشعل السيجارة وسحب باستمتاع نفساً وقال:

ـ تشيسترفيلد ؟ من أين تؤمنها ؟

ـ أسرقها.

_ واه، من أين ؟

_ من جدي.

ـ آ...آ. هكذا أفضل، فسعرها في "ميدان "* غال جدا.

ـ أجل، غالية..

ـ ها لقد تذكرت.. ـ توجّه السائق بكلامه إلى دادونا ـ حين أهدى الأزهار إلى الصبي ـ وأشار بأصبعه إليّ دون أن يلتفت ـ تذكّرت الأزهار.. منذ ثمانية أعوام خلت كان عمري عشر سنوات..

ـ أحقاً ؟ - سألته دادونا من باب اللباقة.

ـ أجل، كان عمري عشر سنوات.. أنا كردي.. حين كانت أمي تمرض أو تنشغل، كنت أنقل الزبالة.. كانت تسكن في بنايتنا أسرة.. يعني كنت أساعدهم..

فجأة انقطعت أنفاسي وخفق قلبي بشدة. نظرت في المرآة. كان السائق يلوك السيجارة بعصبية.

ـ كان يعيش ضمن تلك الأسرة صبي من أترابي. كانت أمه جميلة جداً. الخالة مامانا..

أخرجت سيجارة. أشعلتها و فهمت أنني أمسكها بفمي من طرفها الأخر.

---

* ميدان: حيّ قديم في تبيليسي ، وقد ورد الاسم بلفظه العربي ـ المترجم .

ـ ثم ماتت أمي سارة.

ـ أحقاً ؟ - تساءلت دادونا دون اهتمام.

ـ أجل، لقد ماتت المسكينة وأهدتني الخالة مامانا في ذلك الصباح ملابس ابنها. بكت كثيراً وأحضر ابنها كثيراً من الأزهار.

ـ لعل أمه أشارت عليه بذلك.

ـ لعلها.. كان صبياً طيباً نظيفاً، يلبس دائماً ياقة بيضاء. ثم مات والداه في يوم واحد، بعدها أضعته. قالوا: أخذه جدّه إليه، إلى القرية لا أدري لقد فكرت إذا كان إنساناً فسيزور قبر أمه. أمي أيضاً مدفونة هناك في (فاكي). نحن مسيحيون، ها كم الصليب ـ فتح قميصه وأخرج صليباً ذهبياً كبيراً معلقاً بسلسلة.

ـ يا الهي، يا للجمال! ـ صرخت دادونا.

ـ نعم منذ فترة وجيزة كنت في المقبرة. قالت (مارو) وهي المرأة التي تعتني بالقبور إن شاباً جاء إلى المقبرة أعتقد أنه هو. كنت أدعوه (دجاكو) وهو يدعوني (الجاحظ).

ـ ماذا ؟ ماذا كنت تدعوه ؟ - انتفضت دادونا.

لم يجبها السائق. التقيت في المرآة بعينيه السوداوين الجميلتين. في صدري كان ثمة شيء يغلي ويجيش.

قلت:

ـ مرحباً آبو!

ها قد وجدت صديقك آبو، يا أفتانديل دجاكيلي! أنت بحثت عنه أم هو بحث عنك ؟ لا يهمّ. المهم أنكما وجدتما بعضكما. كانت طفولتك في تبليسي وذكرياتك كلها مرتبطة به، تلك التي علاها تدريجياً رماد النسيان. ولكي تحولا دون ذلك كان لا بّد من أن يجد أحدكما الآخر.

هـا قـد وُجـد صـديقك آبـو! عـلام تـصمتان ؟ هـيا افـتحا قلبـيكما وروحيكما. اسألا بعضكما بعضاً عن الأيام التي انصرمت دونما أثر. دونمـا أثـر ؟ لا ،فآبـو لا يـزال يذكـر أمـك الجمـيلة الطيـبة ودفء يـديها الحنونتين. وأنت، هـل نسيت سارة الكردية السمراء ؟ ربما كان آبو لا يـريد أن يتذكّـر كـيف كانـت أمـه تـنظف مـداخل بـنايات الآخـرين القـذرة، وكـيف كـان هـو نفسه يـنقل القمامـة حـافي القـدمين ممـزق الثياب ؟ لكن لماذا كان يحلم بلقائك ؟

ـ مرحباً، دجاكو - قال آبو.

عـند أقـدام دجفـاري، وقـف كـل مـنا مقابـل الآخـر. ابتـسمنا دون إرادتنا. ثم مدّ يده فمددت يدي. تعانقنا. شدّ كلُّ منا الآخر إليه. وسمعت همس صديقي آبو:

ـ أين كنت يا دجاكو ؟ أين كنت يا دجاكو ؟أين كنت ؟

مـضت ساعة. لقد اتسعت هذه الستون دقيقة لأعوامك الثمانية عشر يـا أفتانديل دجاكيـلي وكـذا اتـسعت لمثيلتها مـن سـنوات صـديقك آبـو. سـألك (آبـو) عـن أمـه وأدركـتَ لـماذا بحـث عـن لقائه معك. وسألتَ (آبو) عـن أمـك وأدرك هـو لماذا بحثتَ عن لقائك معه. تحدثتما وتحدثتما طويلاً غير راغبين في الفراق، لكن كان العمل بانتظار (آبو) أما أنت فكانت تنتظرك دادونـا الباكـية. ثـم دسـست يدك في جيبـك وبـرقت عينـا (آبـو) حين أخرجت منديلاً بدلاً من النقود. قال آبو:

ــ حـسن، سأمـضـي الآن وسـأعود إلـيكما بعـد سـاعتين، جـيد ؟ لكنك قلت:

ــ لا، آبـو. سـننزل إلى متـسخيتا، ومـن هـناك سنـستقل القطـار أو الباص.

ـ سآتي إلى متسخيتا. في أية ساعة ستكونان هناك ؟ فقلت:

ــ مـا مـن ضـرورة، آبـو، سـنعود بطـريقتنا الخاصـة! بعدئـذ تبادلـتما العناوين وتواعدتما على أن تلتقيا في الأيام المقبلة.

- صبية جيدة! - قال آبو خافضاً صوته.

- دادونا! أقدم لك (آبو) صديق طفولتي.

- أعرف.. أعرف كل شيء. أقسم بأمي إنني لم أبك في حياتي مثلما بكيت اليوم.

- حسن، إلى اللقاء يا دجاكو!

- إلى اللقاء، آ بو!

- إلى اللقاء يا أختي!

- إلى اللقاء!

انطلقت السيارة دفعة واحدة. بعد عشرات الأمتار فرمل (آبو) بشدة، وخرج من السيارة. لوّح بيديه وهو يصيح بشيء ما.

- إلى اللقاء، آبو، إلى اللقاء!

* *

أنا ودادونا نقف على شرفة صغيرة مسيّجة بمنخل معدني، تبدو كأنها أُلصِقت إلى جدار دجفاري الشاقولي بأعشاش السنونو.نقف ونتمتّع بمرأى اللوحة المفتوحة أمامنا. تحتنا يتوضّع حيّ (متسخيتا) ببيوته وكنائسه وأديرته وأجراسه وأطلاله الجميلة ذات الأسطح القرميدية القرمزية اللون... يقْبل الناسُ، الكثير ــ الكثير من الناس. بداية يصعدون إلى هنا، يطلون من علٍ على حي (متسخيتا) و(سغيتسخوفيلي) ويدسون خفية في حقائبهم وجيوبهم الأحجار الصغيرة المتفتتة من الجدران، ثم ينزلون إلى متسخيتا ومن هناك يتطلعون إلى تلك المعجزة — "دجفاري " ثم يتنهدون ويتعجبون ويدهشون مأخوذين بجمال المعبد وعظمة الأيدي التي شيدته وبالأرض التي أطعمت أولئك الناس، وبالسماء التي نوّرت عملهم ومأثرتهم الكبرى..

و دجفاري يربض ويلزم الصمت...

ـ أفتو!

ـ نعم!

ـ بماذا فكرت حين استلمت رسالتي ؟

ـ فرحت!

ـ فقط ؟

ـ فرحت كثيراً.

ـ علام فرحت ؟

ـ حقيقة كنت مصمماً على الكتابة إليك وفجأة استلمت رسالتك!

ـ وماذا كنت تريد أن تكتب لي ؟

صمت.

ـ هيّا، قل بصدق!

ـ أردت.. على وجه التقريب: عزيزتي دادو، إذا كنت غير غاضبة عليّ، فسنلتقي! صديقك دجاكو.

ـ ((صديقي دجاكو))! – ومررت دادونا أصابعها على عروقي بحنان ثم تابعت ـ ألا تزال تؤلمك حتى الآن ؟

ـ لا، لقد مرّ الألم.. زدت الملح في الطبخة كثيرا أليس كذلك ؟ ماذا قالت البنات ؟

ـ أنت لم تزد في ملح الطبخة.. أنزور بهيمة!

ـ لا، أنا المخطئ. سخرت منه. ومع ذلك ماذا قالت البنات ؟

ـ لقد أعجبن بك!

ـ والشباب ؟

ـ قال الشباب إنك وغد!

ـ وماذا قلت أنت ؟ - سألتها وأنا ألفّ كتفيها.

ـ نعم.. قالت البنات إنك شاب جميل، جميل وذكي.

ـ جميل ؟!

ـ حسن، وسيم. هذه كلمة ايزيدا. هل أعجبتك ايزيدا ؟

ـ أهي تلك ؟

ـ هي ذاتها، أم الشامة. قالت عنك: وسيم وذكي. فهمت ؟ - قالت دادونا وهي تحاول التملص من بين ذراعي. قلت فيما يشبه الصراخ:

ـ وأنت. ماذا قلت يا دادو ؟

ـ أنا.. أنا لا شيء.. وغضت طرفها.

ـ لا. قولي لي بصدق، قولي!

رنتْ إلي بشيء من الامتعاض وصمتت. عندئذ جذبتها إلي وقبّلتها في شفتيها. في البداية تجمدت اثر المفاجأة ثم التصقت بي وشعرت كيف كان جسدها الحار يختلج بارتعاشات خفيفة. وحين خفّفتُ قليلاً من شدة عناقي، همست دادونا:

ـ لا داعي يا أفتو...

ـ لماذا يا دادونا ؟

ـ لا داعي، أرجوك..

خفضت يديّ مستجيباً.

تناهت إلينا ضجة من فناء المعبد. سرعان ما وصل إلى الشرفة عشرة رجال بينهم جنرال في حوالي الخمسين من عمره، طويل، ممتلئ الجسم، أصلع بالكامل. كان من السهل التكهن أن هذه الزيارة نُظمت على شرف الجنرال. اقترب منا أحد الرجال وقال:

ـ تنحوا قليلاً، يا شباب! تفضل إلى هنا، أيها الرفيق الجنرال!

أخذ الجنرال راحته في زاوية الشرفة وتهيأ للاستماع.

ـ دجفاري – وراح الرجل يكرر، كلمة بكلمة، محتوى النقوش المثبت على اللوحة التذكارية. شمل الحضور، وهو يسعل، بنظرة منه،

ثـم نظـر إلى الجنـرال نظـرة اسـتفهام.اقـترب مـن سـور الشـرفة وانخـرط في الموضوع بجدية كاملة.

روى كـيف كـان ينتصب فوق جبل أرماز، في الأزمنة الغابرة، صنم أرمـاز. وعـن غـياب الـشمس المفاجـئ، ذات يـوم، في أثـناء لهـو القيـصر الغـروزيني " ميريـان " بالـصيد، وكـيف أنقـذت القديسة (نينـا) البلاد من هـلاك محتّم، فتحول القيصر منذ ذلك اليوم إلى المسيحية. وكيف أثبت علمـاء الفلـك، أيامـنا هـذه، بوضـوح لا لـبس فـيه[1]، أن القيـصر كـان مخطئاً جدا، إذ إن كسوف الشمس كان يجب أن يحدث في ذلك اليوم وفـق القوانين الطبيعية، ولـم يكـن من دور للصنم أرماز أو لرب المسيحية في أن الـشمس لم تغـادر القيـصر (ميريان) وشعبه. ربما لولا غفلة القيصر تلك، لكـنا نـنعم الآن بعشر من الزوجات على الأقل، إن لم تكـن مئة، تمشياً مع عادات وتقاليد الوثنيين.

ثم تحدث عن الطريق التجارية التي كانت تعبر " متسخيتي " واصلة إلى الهـند، وعـن القـوافل المحملـة بالـذهب والفضة والمنـسوجات الأجنبـية والمجوهـرات. وعـن الحـضارة الـتي نفـذت إلى غـروزيا مـن جهـة الغـرب. ثم تحدّث أخيراً عـن تحفـة الحـضارة المسيحية " دجفـاري" الـتي جـاءت ثمرة تمازج الحضارات المحلية والهيلينيستية والحثية والعربية.

أنهـى الـرجل حديـثه اللاهـب، مـسح جبيـنه المـبلل بالعـرق بمـنديل أبيض كـبير. وحدّق في الجنـرال. مـرة أخـرى نظـر الجنـرال باهتمـام، إلى المنطقة الممتدة أمامه وقال:

ـ ن...نعم، نقطة رصد جيدة!.

شحب الرجل، وتابع الجنرال:

ـ ترصد وتتحكم بالممرات كافة!

نفـد صـبر دادونـا فأطلقـت ضـحكة. أغلقـتُ فمهـا بـيد، وقـدتُها بالأخرى وخرجنا إلى الفناء.

---

[1] بوضوح لا لبس فيه ـ في الأصل: كما الأسود على الأبيض ـ المترجم.

الهواء مشبع بعبير الحصيد، نستلقي ساكنين عند أقدام كومة هائلة من القش. كنّا هادئين لدرجة أن طيور السمان كانت تتنّزه حولنا دونما خجل، تنّقب في القش محركة رؤوسها الجميلة بشكل مضحك، وهي تتحدث فيما بينها بحماس عن شيء ما بلغتها السمانية.

تنحدر الشمس نحو المغيب ببطء، والجبال تزرقّ في المدى، والنسيم يحفّ بالقش الجاف. عمّا قليل يعم الظلام. سكنت السمانات وساد الهدوء والسكينة الأنحاءَ.. نهضتُ بقفزة واحدة.

- ماذا حدث ؟ - فتحت دادونا عينيها.

- لا شيء، أريد أن أدخن سيجارة!

دخنتُ السيجارة واستلقيت من جديد على ظهري، واضعاً رأسي على ذراع دادونا الممدودة.

- ألا ننزل ؟ - تساءلت دادونا.

- أجل، آن الأوان - وافقتها.

- هاتي يدك!

أمسكت بيدها الممدودة، وبجذبة قوية رفعتها عن الأرض. كانت الأعشاب والقش متناثرة على شعرها وظهرها.

- انفض! - وأدارت لي دادونا ظهرها. مررت بيديّ طويلاً، بلذة، على قدها الرائع وحوضها اللدن. أخيراً اكتشفت خبثي، التفتت إليّ ودفعتني بقوة في صدري. ارتميت في القش وأنا أضحك. قهقهت دادونا بصخب. قفزت بسرعة على قدميّ واندفعت نحوها. دارت بمهارة واختفت وراء كومة القش وصرخت:

- كو...كو!

ركضنا طويلا حول مكدس القش مرحين مقهقهين كما الأطفال. فجأة لاحظت في أسفل المكدس

دخاناً خفيفاً، وفي الحال شبّت فيه النيران.

هكذا تراكضنا! لابدّ أن عقب سيجارتي قد أشعل المكدس. التهمت النيران القش اليابس بسرعة. توهج المكدس كله. كانت ألسنة اللهب تتقافز وتتلوى، تختفي للحظة لتندلع بقوة جديدة من أعماق القش. وترتفع مفرقعة في السماء.

رفعت دادونا يديها عالياً فوق رأسها، وتطلعت مأخوذة إلى رقصان اللهب الساحر، ثم خلعت حذاءها وأسدلت شعرها وراحت تدور مع رقص النيران هذا - المتوحش الغريب.

- دادو! فلنجر! – صرخت بها.

لم تنظر إلي مجرد النظر. كانت ترسم، فاتحةً عينها إلى أقصى مدى، ضامة شفتيها بإحكام، هازة جسدها كله، دوائرَ متموجةً حول المكدس الملتهب. كان ثمة في رقصها الكثير من البدائية وفوضى الخلق الأول، مما أثار تلقائيا الخوف في نفسي.

- دادونا! بسرعة، يجب أن نذهب!

لكن، كأنها لم تسمعني.

ارتفع صياح من مكان قريب:

- أي..ي، مَن هناك ؟ فلتتمزق إربا، إربا !

تبيّنتُ ظلين في الظلام يحملان مذراتين.

- فلنركض، فلنركض، دادو! – وأمسكت بيدها

- دعني!

- حمقاء! سيذبحوننا.

- أين أنتم يا أولاد الكلاب ؟ أي.. ي...

- دادو، أفهمي! هيّا، معهم لا يجوز المزاح، فلنركض!

و عدونا نحو دجفاري.

- هيّا، أدخل من الأعلى، فلن يتمكنوا من الهرب!

دخلنا المعبد واختبأنا.

- أين اختفوا ؟ - تناهى إلينا الصوت من الفناء.

- وما أدراني!

همستُ إلى دادونا :

- فلنختبئ، فهما قادمان إلى هنا !

وصلنا إلى الأبواب بصعوبة ونحن نتعثّر في الظلمة، خرجنا إلى الشرفة، ومنها نزلنا إلى الصومعة السفلية وتسمّرنا.

- فلندخل! - سمعتُ صوت الأول.

- إلى أين ؟ - أجابه الثاني.

- إلى هناك، ماذا ؟ أ تخاف ؟

- باطل!

- أي....ي! - صرخ الأول، فردد الصدى: أي....ي!

- ليسوا هنا! - قال الثاني.

- آو....و...!

فجأة صرخت دادونا.

- أي! - ارتفع في الفناء صوتٌ خائف.

- آو..و..و آ!

كررت دادونا.

- أسمعت أم أنه خيّل إلي ؟

سأل الأول.

- فليأخذهم الشيطان! - قال الثاني - هيّا لنمض!

- أو...و...و!

كررت دادونا.

ـ أسمعت ؟ أي..ي! مـن هـناك ؟ أخـرج حـالاً وإلا.. ـ ارتجـف صـوتُ الأول.

ـ كف عن هذا! لا أحد هناك! ـ قال الثاني راجيا.

ـ أو...و..و!

توقحت آخر الأمر دادونا.

ـ هاك، أسمعتَ ؟ ـ قال الأول.

ـ فلننصرف من هنا، بالله عليك، لماذا سنتعالق معهم فلنمض، هيا!

بعـد أن تيقّـنت مـن زوال الخطـر قـررت أن أسـخر مـن أصـحاب المكدس فصحتُ:

ـ آو...و...و!

فارتفع صوت من الفناء:

ـ إن وقعتم في أيدينا، سنريكم!....

هبطـنا إلى الأسـفل عـبر المـنحدر، وصـلنا إلى حـيث يلتقـي نهـر (أراغفـا)مـع نهـر(متكفاري).كـان ثمـة قـارب مـربوط بـوتد يتأرجح فوق سطح الماء. ناديت:

ـأي...أي...! هل يوجد أحد هنا ؟

ـ لماذا تصرخ ؟ - نهض شاب من بين الأعشاب.

ـ انقلنا إلى الجهة المقابلة!

بحث الشاب في القارب وناولني علبة كونسروة فارغة:

- أمسك، انزح الماء!

- وأنت ماذا ستعمل؟

ـ سأنقلكما، فهمت؟ اجلسا!

بعد أن وصلنا إلى الضفة المقابلة شكرنا الشاب وقدمت له روبلاً.

- روبلاً آخر!

- ياه، روبلان للذهاب فقط ؟ هل لديك طرّاد ؟

- أجل طرّاد، وأنا ربّانه.إن كنت تظن أن ذلك غالٍ باستطاعتي أن أنقلكما ذهاباً وإياباً. فأعطيته روبلاً آخر.

- مع السلامة!

كان قطار العاشرة للضواحي مكتظاً بالناس.تمكنّا بصعوبة من إيجاد مكان لنا قرب النافذة. حين صرنا بموازاة دجفاري. تطلعت نحو الأعلى. كان دجفاري، وهو مضاء بالبروجكتورات من جميع جهاته، يبدو معلقاً فوق متسخيتا.

- دادو، انظري، يا للجمال!

كانت دادو تنام بلذة وقد ألقت برأسها على كتفي....

* * *

أيقظني العم فانتشكا في الصباح الباكر:

- انهض، لقد استدعتك شعبة التجنيد.هاهي بطاقة الدعوة. مضت شورا إلى السوق.أوصتني أن أرافقك إلى الشعبة. قالت: " إن ساقوا الصبي إلى الخدمة تستطيع ألا تعود إلى البيت! " أي حالٌ هذه ؟ انهض!

-علام يستدعونني، ماذا تظن يا عم فانتشكا ؟

- آ، نسيت أن أقول لك! يُحكى أن معاطف من الجوخ وجزمات من الكروم قد وردت إليهم، وهم يريدون توزيعها على الشبان العاطلين عن العمل أمثالك. هيّا ارتدِ ملابسك!

بعد نصف ساعة كنا في شعبة التجنيد.

- حسن، أدخل الآن وسأنتظرك هنا.

كان البهو يغص بالشباب من مثل سني. فكرت "يبدو الأمر ليس

مزحة!". اقتربت من أول شاب صادفته:

ـ إلى أين سأمضي بهذه البطاقة؟

- في البداية، اذهب إلى هناك ثم إلى هنا.

- كيف ؟

- هكذا.التسجيل هناك، واللجنة هنا.

- ماذا ؟ هل سيسوقوننا ؟

- أجل يسوقون. لكن لن يسوقوني، فبطاقتي بيضاء[1].

يا ه، كم هو خدّاع المظهر الخارجي! شاب عريض المنكبين[2]، بوزه ينضح صحة[3]، وبطاقة بيضاء! يا له من مسكين!

أنهيت إجراءات التسجيل بسرعة.وبعد ربع ساعة استدعوني للمثول أمام اللجنة.

-اخلع!

خلعت ثيابي.

- اخلع أيضا!

خلعت القميص الداخلي. فصرخ رئيس اللجنة من جديد:

- تعرّ تماماً! لا وقت لدي أضيّعه معك!

تعرّيت من كل شيء ووقفت بشكل مضحك في الزاوية.

- افتح فمك!

- افتح عينيك!

- خذ نفساً!

- اقطع التنفس!

---

(1) البطاقة البيضاء: بطاقة إعفاء من الخدمة ـ المترجم.

(2) في الأصل: عرض منكبيه "ساجين"، ما يعادل 213 سم ـ المترجم.

(3) في الأصل: بوزه يتحدى القرميد. ـ المترجم.

- ارفع يديك!

بعدئذٍ ضربوا ركبي بمطرقة صغيرة، دعكوا بطني ((نقروا)) جسمي بأكمله. وأخيرا وضعوني على الميزان.

- كم؟ - سأل رئيس اللجنة.

- تسعة وخمسون كيلو غراماً.

- أ ليس عندك أهل، أقرباء ؟

- نعم.

- أين هم؟

- هناك في الفناء.

- اسم عائلتك؟

- دجاكيلي!

- لا يمكن هذا، أنت من غورش؟

- نعم.

- ومن أية قرية؟

- بوكيستسيخي.

- أجل! وعنب (أوديسا) ينمو وينتشر عندكم؟

- نعم ينمو.

- أجل! حبذا زجاجة أوديسا[1] باردة مع فخذ خنزير مشوي! آ..؟

- آه!

- اذهب إلى هناك. الطول! ـ صرخ.

- متر وتسعة وستون سنتمتراً.

- اكتب: متر وسبعون.

---

[1] أوديسا: أحد أنواع النبيذ المصنع من عنب أوديسا.

انحنيت له :

- أشكركم.

- لاشيء يستحق الذكر.أتدري، أنا أيضاً من غورش (تفارتكيلادزه). أتريد أن أسجلك متر وواحد وسبعون؟

- شكراً، لا تتعبوا نفسكم!

- كما تشاء.. حبذا الآن زجاجة أوديسا!؟ آ ؟

- لاشك في ذلك

ـ لعلك تخشى الذهاب إلى الجيش ؟

- وهل هذا ممكن؟

- احذر أن تتكتّمْ!

- لا ، أبداً!

- إذاً ، وزنك تسعة وخمسون ؟ هل ندوّرها إلى الستين؟

- الرأي لكم، أيها المحترم!

- أنا عقيد!

- الرأي لكم أيها الرفيق العقيد!

- إذاً، دجاكيلي أفتانديل....

- غافريلوفتش.*

- نعم!.أي غافريل ؟ ذاك الذي يعمل في معمل (مارنوأولسكي) للعصير؟

- لا. أبي كان طبيباً.

- أجل! وأين هو الآن؟

- قضى نحبه.

---

* اسم الأب يأخذ ، عادة ، في نهايته حروف (ايتش) في الروسية - المترجم

- أو...و، هــذا أمــر ســيء! - فكّــر العقــيد ثــم الــتفت إلى السكرتيرة وصاح ـ اكتبي: دجاكيلي أفتانديل غافريلوفتش ـ وزنه واحد وستون كيلو غراماً، طوله متر وواحد وسبعون سنتيمتراً(1,71 م) الخدمة ميدانية. كتبتِ؟

- كتبتُ، أيها الرفيق العقيد ميخائيل زخاريتش!

- والآن أسرع إلى البيت. تعال غداً إلى محطة ((نافتلوغ)) في تمام السابعة صباحاً هيّا انصرف!...

- شكراً جزيلاً!

- لا شــيء يــستوجب الــشكر ــ قــال العقــيد مبتــسماً وفجــأة احتضنني من كتفيّ وأضاف بصوت خفيض

- اذهب، يا بني، فلتلازمك الصحة!

كان العم فانتشكا ينتظرني في الشارع. سألني:

- كيف الحال؟

- سأكون غداً صباحاً في تمام السابعة في محطة ((نافتلوغ)). رفّ العــم فانتــشكا بعينــيه بــشكل مــضحك. ثــم تــأبط ذراعــي صــامتاً واصطحبني. حين اقتربنا من مطعم ((سالخينو)) الفخم أبطأ في خطواته. تلمّس جيوبه ثم توجه نحو المدخل بثقة....

أخذنا مكاننا حول منضدة صغيرة قرب مدفأة الحائط.

- مرحباً، فانتشكا! ـ مسح النادل فتات الخبز عن الطاولة ثم رفع المزهرية ونظر إلينا مستفسراً.

- هــاتِ زجاجــتين صــنف (8)*، طــبقين مــن الــشاشليك، لكــن بسرعة يا أرخيب!

بعد دقيقة أحضر النادل النبيذ و(المازة).

---

* يعني بهذا النبيذ ((ستولوفوي رقم 8))الشهير لديهم – المترجم

- أتريد شيئاً آخر يا (فانتشكا)؟

- لا شيء.

صبّ العم(فانتشكا) لي أولاً ثم لنفسه، أدار الكأس طويلاً بين يديه ثم سأل أخيراً:

- ما رأيك، ألا يستحق الأمر أن تقصد المفوض العسكري وتشرح له أنك يتيمٌ وتريد الدراسة وما شابه ذلك؟

- لاشيء يفيد....

- نعم، وأنك المعيل الوحيد لجدّك؟ ؟ فحتى في عهد القيصر نيقولاي لم يسوقوا الوحيدين إلى الجيش..

- عمّ تتحدّث، عم فانتشكا؟ في عهد نيقولاي كانوا يخدمون خمسة وعشرين عاماً. أما الآن؟ عامين فحسب!

- هذا صحيح.لكن ماذا ستقول لجدّك ؟

- قولوا لجدي.. أجل ماذا يمكن أن يقال له ؟

فعلاً ماذا سأقول لجدي؟ أنني فرحت لالتحاقي بالخدمة ؟ وإني أفضّل أن أسافر إلى أقصى المعمورة على أن أتقدّم من جديد لامتحانات القبول في المعهد الطبي ؟ ثم ماذا حدث في نهاية الأمر ؟ يا للقضية العظيمة ـ الخدمة العسكرية!

- قل له سيعود حفيدك من الجيش جنرالاً، وسيقبلونه في أي معهد بلا امتحان.

ـ حسن سأقول هذا ـ وطوّح بيده استخفافاً - لكن شورا؟ هل نسيتها؟

أجل يجب ألا ننسى العمة شورا.فهي لن تريد أن تعرف، ولن ترغب في سماع أي شيء.فهي واثقة ثقة تامة إنني لست كسواي ـ فأنا ابن غافريل دجاكيلي لذا يجب أن تفتح المعاهد كلها أمامي أبوابها على أوسع مدى ويجب أن تُقدم إليّ مختلف الامتيازات الممكنة في الاتحاد السوفيتي. يلتحق بالجيش ؟ وأي جيش ؟ أنّى لي أن ألتحق بالجيش

وأنا((الولد))الغر الذي لم يرَ بعد شيئاً من الحياة ؟ هراء، لن يذهب إلى أي مكان!

- قل لها، أيها العم فانتشكا، إنني تطوّعت في الجيش.

فكّر العم" فانتشكا " دقيقةً ثم ابتسم ابتسامة ساخرة:

- عام 1941 تطوعتُ فعلاً، ومع ذلك لا تصدق هذا فكيف ستصدق كذبتك ؟ دعك من هذا - وطوّح بيده استخفافاً - فلنشرب!

- فانتشكا المحترم، أنت لا تعجبني اليوم - قال النادل وهو يضع طبقي اللحمة على الطاولة.

- أشعر بالصداع بسبب شراب الأمس يا أرخيب... أحضر لنا زجاجتين أخريين.

أترع العم فانتشكا القدحين من جديد.

- خلق الإله الكثير من المحن لابتلاء الإنسان، يا عزيزي أفتانديل، والجيش واحد منها: إن جبنت وتراجعت في الجيش، فالموت أمامك! إن خنت وخيبت أمل الصديق – هو الموت! أقول:

في الجيش، أعني في أثناء الحرب....عام 1942 وقعت كتيبتنا في الحصار بالقرب من روستوف. من استطاع الإفلات من الطوق نجا، ومن لم يستطع وقع في الأسر. صفّونا، وكنا حوالي ثلاثمئة رجل، في نسقين أمام العنبر.

- فليخرج اليهود! - أمر الضابط الألماني.

كان بيننا يهوديان فخرجا.

- والآن شيوعي خروج[1]

لم يتحرك أحد. راح الضابط الألماني يضرب راحته بمسدس " بارابلوم " بنفاد صبر:

- ماذا؟ الجيش الروسي لا شيوعي واحد؟

كان أول مَن خرج - قائدنا الملازم أول كوزلوف وتبعه الآخرون.

---

[1] الأخطاء اللغوية الواردة إشارة إلى عدم إتقان الألماني اللغة الروسية. المترجم .

كان عددهم واحداً وثلاثين بينهم صديقي بوختوي أفلياني.طيب الروح، جميل جمالا مرسوما، هرقل بقلبٍ فتي. كان لديه ثلاثة أولاد، مولع بهم.. كان يحبني كأخ ويقاسمني حتى اللقمة الأخيرة، يغطيني بمعطفه في الليالي...ثلاثة وثلاثون شيوعياً ـ كان اليهوديان حزبيين أيضاً - وقفوا قبالتنا في نسق واحد. كان بوختوي يتطلع إليّ بحنان ويبتسم. استبد الخجل بي لدرجة أنني خرجت من الصف ووقفت بجانب بوختوي.

- أجننت ؟ - همس إليّ بوختوي باللغة الغروزينية – انصرف حالاً – ولكزني بمرفقه ـ انصرف قبل فوات الأوان!

هززت رأسي رافضا. كنت أرتجف خوفاً ولم يكن باستطاعتي إيقاف ذلك الرجفان اللعين... لقد خفت، هل تفهمني؟ خفت من الموت.. لكنني لم أستطع الانصراف.

كان الضابط يقول شيئاً ما. كنت أراه يفتح فمه باستمرار ويلوّح بيديه، لكنني لم أكن أسمع صوته..بعدئذٍ ظهر الجنود الألمان أمامنا حاملين بنادقهم. ستةٌ منا لم يتحمّلوا الموقف خروا أرضاً وغطّوا وجوههم بأيديهم. أمّا بوختوي واليهوديان فقد وقفوا براحةٍ، رافعين رؤوسهم باعتزاز وهم يبتسمون ـ جرع العم فانتشكا بقية الكأس ولعق شفتيه الجافتين ـ وفجأة خرج بوختوي من الصف واقترب من الضابط، فرفع ذاك مسدسه بسرعة.

- إنه يكذب، فهو ليس شيوعياً! ـ قال بوختوي بصوت عالٍ وأشار إليّ. أدار الضابط رأسه ببطء، نظر إليّ دهشاً ثم مشى نحوي دونما استعجال.

- ألست شيوعياً؟

- خفضت رأسي صامتاً. فكرتُ ((سأجلس، سأجلس ها هنا في الوحل وليكن ما يكون، لا أستطيع أن أتحمّل المزيد... يقتلوني ـ فليأخذني الشيطان! المهم أن ينتهي هذا العذاب..)).

رفع الضابط رأسي بقبضة المسدس:

-الوثيقة! ـ ومدّ يده اليسرى.

فتّشت جيوبي. طالت مدة البحث، فالبطاقة الحزبية لم تكن لديّ ولا يمكنها أن تكون. وفهم الضابط أنني خدعته فسدد إلى صدغي ضربة رهيبة.سقطت إثرها أرضاً وأغمي عليّ..وجدت نفسي بين الجثث. ثلاثة وثلاثون من رفاقي كانوا يرقدون حولي مشوهين غارقين في الدماء وقد جمدت على وجوههم الدهشة والألم والرعب....

سكت العم فانتشكا، مدّ يده نحو زجاجة النبيذ. كانت يده ترتجف. وضع الكأس، أخرج سيجارة وأشعلها بصعوبة. سألته:

- وبعد ذلك؟

- بعدئذٍ ؟ بعدئذٍ، حدث أكثر الأمور هولاً..حدث ما لا يصدقه أحد، وإن صدقه، لن يفهمه.....

- ماهو يا عم فانتشكا ؟

- رأيت بوخوتي...كان مستلقياً على ظهره مائلاً برأسه جانباً، شبيها بالمسيح ساعة إنزاله عن الصليب... الدم قد تخثر على صدره وقد أمسك بيده اليمنى بقطعة من قميصه الدامي... زحفت نحوه، التصقتُ بصدره ورحت أبكي.. بكيت فرحاً...أيمكنك فهم هذا ؟.. بكيت فرحاً، إذ كانت ثلاث وثلاثون جثة ممزقة ترقد حولي، في حين كنت أنا حياً...حياً، حياً. كان في وسعي أن أتنفس، أن أرى الشمس، أتحرك، وأن أبكي! كنت حياً وبكيت شجناً وفرحاً!...

كان العم فانتشكا على حق: من الصعب فهم هذا...

- وحتى نهاية الحرب بقيت في الأسر.. هربت مرتين، لكنهم اصطادوني. كووني مرتين بالحديد المحمى على شكل صليب معقوف...بعدئذٍ عدت، عدت من ميلانو...فكرت أنهم سيواسونني، أنا المسكين المعذّب سيلاطفونني ويدفئونني.. ــ وابتسم العم فانتشكا بحزن ــ إيه، ما مضى قد مضى..هيّا نشرب! فلنشرب نخبك ونخب خدمتك العسكرية! تذكر يا أفتانديل، يا عزيزي، أن الجيش هو امتحان يبقى أثره مدى الحياة. تماسك! كن شجاعاً، ومهما حصل

ومهما كانت الصعوبات ابق، دائما، إنساناً! اعلمْ أن قيمة الإنسان لا تتأتّى من قيمة اللوحة فوق تمثال القبر، بل ينحصر الأمر كله في سلوكيّته في دنيا الخطيئة. كن شريفاً... ليس من الصعب أن نهيّئ لأنفسنا حياة سعيدة، ثق بذلك! أن تكون إنساناً ـ هو ذا الأصعب! مسكينتي شورا لا تملك ثوباً ثانياً لاستبداله إذا ما بللها المطر..وعند زوجة مدير مؤسستنا (ا. ت. ك.) معطفان من فرو النمس. منذ فترة غير بعيدة تعرضوا للسرقة. سُرق المعطفان وأساور وخواتم قيمتها تفوق نصف المليون ـ وجدت الشرطة المسروقات لكنهم أبوا أن يعترفوا بملكيتهم للمسروقات... كان بيننا في الأسر شخص.. يخبئ الخبز نهاراً لينهض ليلاً ويأكله وحده ونحن نيام.

- وماذا حدث ؟

- لاشيء.عام 1947 مات بالزحار. أنت لا تخف. الحمد لله، الأمن الآن مستتبّ على الأرض.. الجيش مدرسة رائعة، سترى الكثير، ستتعلم الكثير.. حسن، في صحتك يا فتاي العزيز!

- وفي صحتك أنت، أيها العم فانتشكا! أقسم بأمي أنني أحبك كثيراً! وأنا....

- حسنٌ.. أعلم هذا.. — ونادى على النادل ـ الحساب يا " أرخيب"!

في الثانية عشرة ليلاً عدت إلى البيت وحيداً ثملاً. كان المصباح الكهربائي الكبير مناراً في كشك الساعاتي. وكان روبين، نفسه، يجلس على المقعد الخشبي يسبّح بمسبحته.

- تحية حارة للعم روبين ـ قائد الساعاتيين في غروزيا!

أخرج روبين الساعة من جيبه، فتح غطاءها الفضي ونظر إلى "الميناء" ثم رفعها إلى أذنه، وبعدئذٍ ضربها مرة، مرتين بركبته، استمع إليها من جديد، وكرةً أخرى تطلع إلى مينائها، وبعد هذا كله أجابني:

- مرحباً، أصبحت تتجول، أيها الشاب، حتى ساعة متأخرة وكأنك في دورية!

- وأنا كذلك فعلاً. غدا سألتحق بالجيش، يا عم روبين، أنا الآن عسكري! وصرختُ:

- هورا !...

- أي...ي، أين ضميرك! الناس نيام. تعال واجلس!

جلست على المقعد برضىً. كنت أتوانى في الذهاب إلى البيت. وأرغب بالحديث والصخب والمزاح...

- ألم تسمع ؟ يزمع الأميركيون على الصعود إلى القمر في تموز "يوليو" - قال روبين.

- أبصق أنا على الأميركيين! إن شئنا صعدنا نحن إلى القمر! ألديك خمر؟ تعال نشرب، فغداً سألتحق بالخدمة العسكرية!

- انتظر! قل لي كيف يمكن أن يحدث هذا ـ إلى القمر، آ ؟ أتعلم ما معنى هذا - الإنسان على القمر ؟

- إذاً فلنشرب نخب ذلك الإنسان! أحضر الخمر!

- أية خمر؟ فأنت تعلم أنني أشكو من القرحة. أنا لا أشرب!

- لا تشرب - ما من حاجة لذلك! سأشرب أنا، هات!

مضى روبين بتثاقل ودونما رغبة إلى كشكه ثم عاد حاملاً زجاجة من كحول الذرة. فسألته:

- والكأس؟

- أوه!قدّمْ له كأساً أيضاً! ومن سيغسله ؟ أشرب من الزجاجة.

- حسن، سأشرب نخب الإنسان الذي سيرنو إلينا، بعد أن يطأ القمر، سيذكرنا وسيعود إلينا ويقول ((أيها الناس، يا أعزائي، أنتم الأغلى في هذا الكون! القمر حسن، جميل يضيء علينا، وما إلى ذلك، لكن الأرض أعزّ من القمر. أيتها الأرض، أنت أمي!)) نخب أرضنا، أيها العم روبين!

شربت من الزجاجة ثم مسحت شفتيّ بيدي وسألت الساعاتي:

- جيد ؟

- أتدري ؟ لعل هناك شيئاً ما على سطح القمر وإلا فلماذا يسعى الناس إليه ؟ هل هم مجانين؟

- فيما يخصّ الناس، لا أدري، أمّا أنا فمجنون اليوم، فهمت ؟ هيّا غنِّ!

إيهِ أيها القمر، يا قمري
إنني أحترق حباً
أشفقْ عليّ أنت
على الأقل.

ورحت أغني.

- اخرس، أيها المجنون، لا توقظ الناس! أتدري ماذا حصل هنا اليوم ؟ سيرك حقيقي!

- أي سيرك ؟ عمّ تتحدث يا عم روبين ؟

- واه، ألم تسمع ؟ منذ فترة قريبة جَرَدوا ممتلكات (دفدرياني) في الطابق الثاني، أتدري هذا ؟ يعني، جاؤوا اليوم لمصادرة الأغراض! راحت زوجة دفدرياني (مارو) تولول وتقول - هذه عملية نهب، أين هي العدالة! الأغراض - تقول - أغراضي زوجي لم يُدخل كوبيكاً واحداً إلى البيت! وراحت ترجو الجيران ليؤكدوا أن الأثاث يخصها وحدها. والأمر بالنسبة للجيران واضح - مَنْ كان على وفاق معها قال نعم، ومَنْ لم يكن كذلك قال لا. أما العمة (بيلو) فقد أفسدت أخيراً كل شيء إذ قالت: هذا ما تستحقونه أيها المحتالون. فأمسكت (مارو) بها.وراحت تجرّ العجوز على الرصيف. زعقت العمة (بيلو) وراحت تدعو الجيران ليكونوا شاهدين. سأترك هذه النصابة تتعفن في السجن، أشاهدتم كيف تضربني؟)). مَنْ كان من الجيران على وفاق معها، قال: نعم. ومَنْ كان في خصام معها قال لا، لم نرَ شيئاً!)). فصاحت

إحدى الجارات ـ وكانت قطة (بيلو) قد اختطفت فرخاً من أفراخها - بصوت ملأ الحارة:

- الأفضل لك أن تهتمي بابنتك، فقد أجرت عملية الإجهاض الرابعة، يا لها من قحبة!))

- ماذا ؟ إجهاض! والغروزينيون بدون هذا قليلو العدد!

- الإجهاض غير ممنوع - هدّأني العم روبين - النكتة والجوهر إنها لا تدري ممن حملت...

- الأمر سيّان ـ لم أثبْ إلى رشدي وتابعت كلامي ـ لو أن أجدادنا تصرفوا هكذا منذ عهد القيصرة (تامارا) لما وصل عددنا الآن إلى الثمانية ملايين.

- أنت محق، المهم ألا تصرخ، بحق الإله! - وضمني العم روبين.

- نخب غروزيا ـ صرختُ ـ عاشت غروزيا!

- فليوفقها الله! لكن هيّا اذهبْ واسترح!

- اشرب نخب غروزيا!

- مالك ؟ هذا محظور عليّ!

- كيف ؟ ألا تريد أن تشرب نخب غروزيا ؟ - زعلتُ.

- سأشرب، سأشرب. وليكن الذنب في رقبتك! ـ جرع روبين بقية الخمر في الزجاجة - والآن اذهبْ للنوم! فالوقت متأخر - وتطلع إلى ساعته.

- كم الساعة؟

- الشيطان يعرف! الواحدة أو الثانية.

- وأي ساعاتي أنت، إذا كنت لا تدري كم الساعة ؟! عندك، في الواجهة، مئة ساعة فانظر إليها على الأقل!

- لو كانت تدور لما بقيت في الواجهة...وأنت، مالَكْ؟ هل قررت البقاء هنا حتى الصباح ؟ يا للشيبية!.. بالأمس جاءت البنت ذات اللون الجزري في الواحدة ليلاً..

- مَنْ ؟ دادونا ؟..

- هي بذاتها!

" أتسمع يا أفتانديل دجاكيلي؟ بالأمس رجعت دادونا في الواحدة ليلا، وغداً ستلتحق بالجيش! ماذا تنتظر إذاً ؟ "

- دادو! دادونا!.. ا.. ا

- مَنْ هناك؟

- هذا أنا، يا دادونا، اخرجي!

- أجننتَ يا أفتو ؟

- أرجوك، أتوسل إليك! لدقيقة فقط!

- دجاكو، أيها العزيز، امضِ ونم! فأنت ثمل. قريبا سيحلُّ الصباح.

- غداً سألتحق بالخدمة. اخرجي يا دادو!

- حسن، لا تصرخ! سألبس حالاً.

- اخرجي، هكذا كما أنت.، فأنا أحبك!

- أ جننت!

- أيتها الحبيبة، يا حبيبتي!

- يكفي، اسكت، ياأفتو!

- قبليني!

- لقد قبلتك!

- مرة أخرى، قبليني أيضاً!

- اسكت بحق الإله! ماذا سيقول الجيران ؟

ماذا يمكنهم أن يقولوا ؟ أفتانديل دجاكيلي سكران، وهو يحب دادونا. وهو ليس لصاً ولا محتالاً ولا قاتلاً! مجرد ثمل لأنه سيلتحق غداً بالخدمة العسكرية ولأنه يحب دادونا، وأي ضير في هذا؟

- أيها الجيران الأعزاء،أتسمعون ؟ أنا أحب دادونا ، أحب الأغنية، أحب الخمر، أحب الإنسان الذي يتهيأ للصعود على القمر. اخرجوا أيها الجيران!

تملصت دادونا من بين ذراعيّ وهربت. وخلسةً اختفى روبين، وانطفأ المصباح فوق الكشك. وتابعت سيري مترنحاً، متعثراً عبر فناء البناية وأنا أصرخ:

- لا تختبئوا، أيها الجيران، اخرجوا، فأنا أحبكم، أحب الجميع!

لم يستجب أحدٌ إليّ، لم يصرّ باب، لم يشتعل مصباح في أية غرفة. لكنني كنت أعلم أن أحداً لا ينام وأنهم ينظرون إليّ ملتصقين بالنوافذ.

...كان العم فانتشكا ينام في غرفتي. " تخاصما من جديد " - لمعت الفكرة في رأسي. أشعلت النوّاسة وبدأت بخلع ثيابي. تنهّد العم فانتشكا وتمتم بكلام غير واضح وانقلب. رأيت كيف كان ظهره يهتز بإيقاع موزون. فجأة أحسست كأن أحداً ما لكزني. اقتربت من فراشه، رفعت بحذرٍ قميصه حتى كتفيه وارتددتُ مذعوراً: كان الصليبان المعقوفان يتوردان منحفرين في ظهره الأبيض. تنهّد مرة أخرى ثم أفاق:

- أين كنت تتسكع أيها الشاب ؟ أتريد أن تهلك شورا ؟

- حسن يا عم فانتشكا، سأنام حالاً! - قلت مرتبكاً.

- نمْ! عليك أن تستيقظ باكراً في الغد. لقد جهزت شورا أغراضك.

أطفأت النوّاسة، خلعت ثيابي بسرعة واستلقيت.

* * *

تستيقظ القرية، في الجهة المقابلة، باكراً. والأصح ـ يوقظها الملاّ. ما إن يبزغ الفجر حتى يصعد إلى المئذنة العالية ويمد رقبته، يغطي أذنه

بيده، ويبدأ:

- اللـــــــــه، اللـــــــــه!...

يتوجّه إلى ناحيتنا غير مرة ـ عسى أن يجد ولو مؤمناً واحدا ؟ لكنه، على ما يبدو، فَقَد الملا هذا الأمل منذ أمدٍ، ولذا تصل دعوته إلينا ذابلة فاترة.

- اللـــه!..

ثم يختفي الملاّ وتدبّ الحياة في القرية. البعض يسرع إلى البحر، والبعض الآخر إلى الحواكير، في حين يتوجّه قسم ثالث إلى الحقول. أحيانا كانت تصل إلينا صرخات نسائية وشتائم – إذ كنّ يلاحقن العساكر السارقين للفواكه من الحدائق. بعدئذٍ نرى العساكر يركضون محنيي الظهور، عبر الطريق الضيقة المارّة بمقبرة القرية والثمار تتساقط منهم فيلتقطونها مقهقهين. ثم يخرج معلم القرية من بيته الخشبي المنحرف ذي السطح القرميدي المخملي اللون ـ يخرج وهو يصفّر هابطاً نحو البحر. وينضم إليه في طريقه بنات وصبيان بياقاتهم البيضاء وسرعان ما يحيط به حشد صاخب من الأطفال كدجاجة مفرّخة. وأخيراً يصلون إلى بناء من طابق واحد على الشاطئ ـ مجرد سقيفة حقيرة ذات نافذة واحدة ـ تلك هي المدرسة! ثم يختفي المعلم مع أبنائه في السقيفة. ويبدأ اليوم الدراسي. وبعد هذا تظهر، في فناء بيت المعلم، زوجته الشابة الجميلة في سروالها الرياضي الأزرق وكنزتها الحمراء. تعتلي الصخرة الملساء الهائلة القائمة في فناء الدار، متسلحة بمنظارها الطويل وتبدأ بالتطلع، متمعنة، إلى قريتنا. ويستمر هذا بضع ساعات.

تتوضع نقطة الحراسة التركية خلف المسجد تحيط بها حورات باسقات، مما يجعلها تتوارى عن أنظارنا طوال الربيع والصيف. وتتناثر المراصد التركية فوق تلال منبسطة فتبدو قريتنا أمامهم كما لو أنها على راحة اليد. أعتقد أن هذا لا يشكّل خطراً علينا بل على العكس فلينظروا إلى بيوت عمالنا الكولخوزيين المكونة من طابقين وثلاثة

طوابق سابحة في ضياء الكهرباء.

قريتنا جميلة لدرجة أنني، أحياناً، وأنا أتطلع إليها لا أستطيع أن أحوّل ناظري عنها. وبدلاً من أن أراقب الناحية المتاخمة لنا، أجد نفسي أحدق إلى ناحيتنا.

كان جدي ايسيدر يقول: من غير اللائق مراقبة دُور الآخرين، لكن ما العمل؟ بماذا سأشغل نفسي طوال الساعات الثماني؟ وهكذا أجد نفسي دون إرادتي أرى ما يجري عندنا وعندهم. أعرف عن ظهر قلب عدد أفراد كل أسرة. أعرف كم بقرة وكم دجاجة لدى كل فرد، وإلى أين ولماذا يذهب ومتى يعود، متى يتناول طعام الغداء ومتى يهجع للنوم ومتى يستيقظ. باختصار أعرف كل شيء!

ففي هذا البيت يعيش" علي خورافا ". لدى " علي " حديقة برتقال رائعة، كثيراً ما نتنعم بثمارها ليلاً أنا و(بارخومنكو) و(شيربينا). و(علي) لا يشتكي علينا، بل يخرج عادة إلى شرفة بيته ويتوجّه نحونا ثم يبدأ دعاءه:

- فزركم الله، أيها السفلة! تعالوا نهاراً بشرف وبإنسانية وتعلّفوا ما وسعت بطونكم! أين العدالة؟ أضع أملي فيهم، أنام مطمئناً وأنا أقول: الشباب يحمونني من اللصوص والأشقياء والجواسيس ومختلف السفلة، لكنهم بالذات، يسرقونني ليلاً. آهٍ، أيها المحتالون، عديمو التفكير، لو تركتم الثمار تنضج على الأقل.. قد تتعرضون للزحار، قد تموتون يا أولاد الكلاب!

كنا نسمع زمجرة العجوز طاهرة النيّة ونبتسم....

وعلي خورافا - صياد سمك شهير، فحتى في أسوأ الأحوال حيث لو نزل سكان (لازستان) جميعهم إلى البحر لما تمكنوا من اصطياد سمكة واحدة من أسماك البوري - كان (علي) يضم راحته فوق عينيه ويتطلع نحو البحر ثم يرمي بزورقه في الماء، يدور سويعةً من الزمن قريباً من الشاطئ وتفضلوا! - يكون قد اصطاد كمية من السمك تكفي القرية جميعا.

ورئيسنا (تشخارتشفيلي) يحترم علي خورافا كثيراً. ولمَ التكتّم: فبالإضافة إلى أن (علي) يزوّد المركز بالسمك، هو أيضاً مقياس للضغط الجوي موثوق به. وكما هو معروف، للحالة الجوية على الحدود أهمية كبيرة. يتطلع (علي) نحو الشمس الغاربة، نحو السماء، نحو الغيوم، نحو البحر _ ثم لا مجال لمثل هذه الكلمات (الطقس غائم جزئيا.. الرياح خفيفة إلى متوسطة الشدة..الفرصة مهيأة لسقوط زخات خفيفة من المطر).

- سيكون البحر هائجاً غداً. أيها الرائد! - يقول علي ذلك فنسرع لنقل أغراضنا عن الشاطئ.

- أيها الرائد، غداً سيهبط الضباب من على الجبال وسيهطل المطر! - يقول "علي" ذلك فنكثّف الدوريات.

- أيها الرائد، غداً ستضربُ حرارة قاسية تجعل البحر يغلي! - يقول (علي) ذلك وفي اليوم التالي يغلي البحر فعلاً، ونختنق حرارةً.

لم يحدث مطلقاً أن أخطأ عليٌ في تنبؤاته. علي خورافا إنسان رائع، طويل، نحيف - جلدٌ وعظم وقد تغيّر لون حاجبيه ورموشه بتأثير أشعة الشمس، متين البنية، نشيط على الرغم من سنيّه الستين.

يزورنا علي خورافا من وقت لآخر. يصعد إلى البرج ويطيل النظر إلى هناك، إلى الجهة المقابلة ثم يتنهد بعمق ويهبط مغادراً.

علام يتنهد العجوز؟ على قبور أجداده التي ضاعت في أرض الآخرين؟ أم على أقرباء له غدوا بعيدين عنه جداً؟ أم على "لازيتي"[1] الحبيبة؟ أم على بيوتها الحقيرة الصغيرة وأطفالها الحفاة، ذوي الثياب الرثة؟ مَنْ يدري؟ يلزم عليٌ الصمت فنصمتُ نحن أيضاً. ذات مرة قدمت

---

[1] لازيتي أو (لازستان) اسم منطقة في تركيا يسكنها اللازيون وهم إحدى السلالات الغروزينية، يعيش القسم الأكبر منهم في تركيا ، ويحيا جزء منهم في منطقة (أدجاريا) الغروزينية .

له المنظار، فأبعد العجوز يدي وقال بصوت أجش:

- لا أحتاج إلى المنظار، بدونه أرى كل شيء بوضوح.

وبجانب بيت (علي) يقوم بيت مدير الكولخوز وهو بيت جميل، مرتب، مؤلف من طابقين.

لدى مدير الكولخوز أربعة أبناء، كل واحد منهم أفضل من سواه، وهو كل صباح يعانقهم ويقبّلهم قبيل ذهابه إلى عمله. يحب الفلاحون قائدهم. وذاك القائد لا تنقصه المتاعب: فالمسكين مضطرٌ لأن يشرب مرّات عديدة في اليوم — السياح يتوافدون فرادى وزرافات، المحلّيون منهم والأجانب بالإضافة إلى ضيوفه الذين يعرف والذين لا يعرف، وأيضاً الموظفون القادمون في مهمات رسمية سواءً كانوا قياديين أو موظفين عاديين _ الكلُّ يتوافد إلى هذه القرية الرائعة بجمالها وغناها وطبيعتها الخلاّبة والمشهورة أيضاً بـ(بلاجها) الفريد. وعلى المدير أن يستقبل كلاً بدوره ويستضيفه، وطبعاً لابدّ من أن يقدم إليهم كأساً من الخمر. وتحمّلْ هذا إن كنت شاطراً! وكي ينقذوا القائد المحبوب اتخذت القرية قرارها الخاص بتعيين نائبين له — واحد لشؤون الرحلات والسياحة وآخر لشؤون التشريفات واحتساء الخمر ومنذ ذلك الحين تنفس المدير الصعداء بحرّية.

عند الحدود، وتحت برجنا مباشرة تعيش (فريدة) الأرملة ذات الواحد والعشرين ربيعاً. مات زوجها (حسن) قبل مجيئي بعام واحد. يقولون أنه كان شاباً نادر الجمال، غرق في أثناء تصيده للخشب العائم في خضم البحر الهائج. وإلى أن وجدوا جثة (حسن) ظلت فريدة تهوم على الشاطئ ممزقة الصدر دامية الوجنتين، بعدها لبست السواد، ولزمت بيتها.

وأنا أرى فريدة كل صباح. إنها تعمل في حديقة (اليوسف أفندي)، يرافقها ولدان — صبي وبنت تركهما عندها والداهما العاملان. لا

يتخلّف الولدان عنها قيد خطوة.حين تجلس لتستريح يحتضنانها، يعبثان بشعرها، يقبلانها.

يقولون في القرية أن أحداً لم يرَ (فريدة) مبتسمة بعد وفاة حسن.

أنا أرى فريدة الضاحكة - إنها تضحك مع الطفلين اللذين يعانقانها في حديقة الماندرينا. وجه فريدة يشبه شمساً غسلها المطر، تتألق ويهتز كتفاها المدوران ويتواثب نهداها العاليان. تستلقي على ظهرها، تُجلِسُ الولدين على صدرها وتحدثهما بشيء ما بلغتها الجميلة العذبة كما الأغنية، وأنا دائماً أتغزل بفريدة، بجمالها وضحكاتها، وأتوسل إلى الله أن يجعل جوّ الغد جميلاً، أيضا، كي تنزل فريدة إلى البستان.

استلمنا اليوم مهمة الدورية منذ الصباح. أنا وشيربينا في البرج و(بارخومنكو) مع كلبه، (تانغو) يترصد الحدود. وما إن صعدنا البرج حتى ظهر (الملاّ) في المئذنة وكعادته، ضم أذنه بيده وبدأ يؤذن:

- اللـــــه أكبر، اللـــــــه أكبر!

قال شيربينا:

- اسمع يا (بترو)، قد قرّر أن يدخلنا في عقيدته الإسلامية بأي شكل!

فدمدم بترو:

ـ أغرقه الله في مستنقع! لقد مللت ذاك العجوز الكريه.

أنهى الملاّ حديثه مع الرب دون أن يلتفت نحونا، لسبب ما. وبدأ يوم حدودي جديد لا يختلف عن سابقه كقطرتي ماء. انتشر الفلاحون في بساتينهم، وقصد الصيادون البحر، والمعلم قاد صيصانه إلى المدرسة. ومن جديد ظهرت، كعادتها، زوجته الشابة الجميلة بسروالها الأزرق وبلوزتها الحمراء.ارتقت الصخرة ووجهت منظارها الطويل باتجاهنا.

أخذت المنظار من شيربينا، فقال:

- هذا هو العام الثاني الذي لم أقرب فيه امرأة، دعها لي أيها

السافل، ردّ إليّ المنظار!

- إليك عني! - صرخت في وجهه – ألا تتلقّى ثلاث رسائل في الأسبوع من خاركوف تتضمن صور فتاتك ذات الأنف الأقنى؟ تتلقّى أم لا؟ هذا يكفيك!

كانت زوجة المعلم تتطلع إلينا دون شك. أصلحت من وضع قبعتي وياقتي.فمررت هي أيضاً بيدها على شعرها. أخفضت المنظار وابتسمت. ورأيتها بعد أن نظرتُ في المنظار، تخفض المنظار أيضاً وتبتسم.رفعت يدي وثنيتها عند المرفق، ففعلت الشيء ذاته. استمر ذلك دقائق عدة: كررت المرأة حركاتي كما لو كانت تلك الحركات تنعكس في المرآة.

- اكتب يا شيربينا: ما تزال زوجة المعلم تتابع مراقبتها لمواقعنا.....

- يتكرر هذا كل يوم، إنها جاسوسة، أمر مؤكد!

جاسوسة! لا أدري...لم أسمع يوماً أن الجواسيس تتصرف هكذا على المكشوف. تتطلع إلينا وتبتسم.. الجاسوس الفعلي هو ذاك الغبي الذي تمركز في الحفرة خلف الشجيرات ويفكر أننا لا نراه. أي.ي! اخرج، لا تتعب نفسك، طوال العام وأنا أراك، وأرى جيداً قصبة منظارك. مع أنك تعتقد أننا نحسبها غصناً. اخرج، اخرج، كفاك لعباً بلعبة القط والفأرة - ((كوكو، ها أنا أراك!)) أود لو أصرخ هكذا في وجه ذاك الجاسوس المسكين. لكن هذا لا يجوز، إذ يُعَدّ مثل هذا التصرف تدخلاً في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة وخرقاً لسيادتها.هكذا قال الرائد تشخارتشفيلي.

....وزوجة المعلم تتطلع وتبتسم، تتطلع وتبتسم. من أنت أيتها المجهولة؟ حسن، دعيني أراك جيداً... هكذا...أقرب قليلاً.. رائع! أراها، الآن، بوضوح كأن لم تعد تفصل بيننا مئات الأمتار. والآن تعالي نتبادل الحديث أيتها الحسناء:

- مرحباً أيتها الشابة!

- مرحباً أيها الشاب!

- ما اسمك؟

- ومـا حاجتك لاسمي ؟

- هكذا.أود معرفته فحسب. أهو اسم غروزيني؟

- وأنت ما اسمك ؟

- اسمـي ؟ أفتانديل. لكـن يجـب ألا يـدري أحـدٌ بـذلك. إنـه سـرٌ عسكري.

- حسن أيها الشاب، لن يدري أحد بذلك!

- كم هو عمرك، أيتها الشابة ؟

- كم تظن؟

- تسعة عشر عاماً...عشرون... واحد وعشرون. أليس كذلك؟

- أجل

- مـا الـذي تقومين بـه طوال الأيـام ؟ تنظـرين وتنظـرين إلـيّ، ربمـا أُعجبْتِ بي؟

- تعجبني جداً!

- لكن لديك زوج!

- أجل، لكننـا وإياك متآخيان!

- كيف؟

- متآخيان. أي أنك أخي!

- آ..آ..، ألا تملين من الجلوس هكذا طوال اليوم والنظر إلينا؟

- لا. أنـا أنظـر إلـيكم، أنظـر إلى أخوتـي وأخواتـي، وأنـا سـعيدة بذلك، ربما كنت أضايقكم ؟

- لا ، أبداً. لولاك لأصابنا الملل... أنت رائعة الجمال!

- أعرف. وأنت أيضاً جميل!

- هذا يتهيأ لك!

- لا.لا يتهيأ. كل ما لديكم جميل. وهل الأمر خلاف ذلك؟

- حسن، وكيف هي الأحوال عندكم؟

- كما ترى...

- أتريد مواساتي؟

- وعلام المواساة؟ فقريتكم جزء من قريتنا. أرض واحدة، سماء واحدة.. مجرد أنها لم تنل العناية الكافية..

- أجل، أنت محق.

- وتلك العجوز أهي حماتك؟

- أجل حماتي.

- أتدعوكِ إلى البيت ؟

- تدعوني.

- وأنت تمضين؟

- أمضي.

- أتأتين غداً ؟ سآتي.

- حسن، إلى اللقاء!

- إلى اللقاء، أيها الأخ!

- اكتب يا شيربينا : انتهت زوجة المعلم من مراقبتها لمركزنا.

ظهرت سيارة جيب أميركية. خرج منها ضابطان وتوجها إلى بناء المفرزة. أتكتب يا شيربينا؟

- أكتبُ، أجل أكتب ـ وتنهد شيربينا ـ لعن الله أمهاتهم!

فجأة علت في الجانب الآخر، الصيحات والهمهمات والصفير. خرجت من المطبخ العسكري كلبة قوقازية ضخمة، وجرت، بسرعة خاطفة، نحو القرية حاملةً بين شدقيها فخذ عجل. ووراء الكلبة جرى الطباخ حاملاً بلطته، وخلفه الجنود. وقد ضاعف من قوى الملاحقين

احتمال بقائهم دون غداء. راحوا يطاردون الكلبة. عندئذ انعطفت الكلبة فجأة نحو البحر، فتبعها العساكر صارخين. ألقت الكلبة بنفسها في البحر ناثرة نوافير من المياه. خطت خطوات عديدة في المياه ثم التفتت وزمجرت مهددةً. توقف العساكر مترددين. وكان الطباخ أكثرهم جرأة فراح يتقدم نحو الكلبة متمهلاً. لم تشأ الكلبة أن تسبح إلى مسافة أبعد. أدركت أنها خسرت المعركة وعليها أن تودّع اللحم. لكن حدث ما لم يكن بالحسبان: اجتازت الكلبة واللحم بين شدقيها خط الحدود. نفضت الماء عنها وأقعت على أراضينا وراحت تلتهم الفخذ ـ الغنيمة. وكانت بين الفينة والأخرى ترفع رأسها وتنظر نحو العساكر بتحدٍ كأنها تسألهم: ((مالكم ؟ لماذا لا تأتون إلى هنا؟)).

وبعد أن أتتْ الكلبة على الفخذ بقيت لفترة في أراضينا، وحين تأكدت من أن العساكر قد اختفوا، رجعت أدراجها دونما استعجال.

- اي..ي..، ماذا حدث هناك؟ - نادى بارخومنكو، وقد قدم لتوّه.

- لاشيء يهم. اجتازت كلبتهم الحدود.

- هل نطلقُ تانغو ؟ ـ تساءل بارخومنكو.

- أين كلبك تانغو من تلك الكلبة ـ فقد التهمت نصف بقرة في خمس دقائق! ـ قال ذلك شيربينا.

كان كل ما حولنا يتنفس سكينةً. سلّمتُ المنظار إلى شيربينا ودخلت إلى غرفة البرج الصغيرة. جلست على الكرسي وأشعلت سيجارتي...

....الحدود... تبعث في النفس مشاعر لا يمكن تشبيهها بشيء آخر! أمداء وطننا لا يحيط بها نظر، حدودها تمتد آلاف الكيلومترات – عبر الجبال والوديان والبحار والمحيطات، عبر الغابات والمستنقعات والجلاميد والصحارى.. كم من المراكز والمخافر والحواجز متناثرة بمحاذاة تلك الحدود! عشرات الآلاف من خفر الحدود يحمونها...وأنت

واحدٌ من هؤلاء الحراس. أنت مقارنةً مع أعدادهم التي لا تحصى، مجرد حبة رملٍ، نملة، نقطة عادية، ومع ذلك تقف أنت في قطاعك الضئيل بشجاعةٍ واعتزاز شاعراً بقوة جبارة، قدرة لا تقهر.قد جثوت أمام العلم المقدس وأقسمت اليمين. أقسمتَ للشعب ولنفسك وضميرك أن تهب حياتك في سبيل سعادة شعبك. أنت مسؤول عن مصير مئتي مليون من أخوتك وأخواتك. هم ينامون مطمئنين وقد ائتمنوك على حياتهم وحياة أولادهم. أنت أملهم. يراك العدو فلا يجرؤ على سفك دماء أهلنا ونهب بيوتهم. أنت تملك سلاحاً في رأس رصاصته الصغير الأبيض تكمن قوة أسطورية. أنت إله، مالك لمصائر البشر... أجل إنه لشرف كبير أن تكون جندياً في جيشنا، ربّما لحدود أرضنا. وإذا ما فكرت غير ذلك فأنت وحياتك لا تساويان قرشاً!....

- دجاكيلي تهيأ للمقابلة الصحفية، فقد شرفنا الكاتب الكلاسيكي! ـ قطع شيربينا عليّ أفكاري.

اقتربت من الدرابزون. كان الملازم (مدينارادزه) يصعد في الطريق الفرعي متمهلا، شابكاً يديه وراء ظهره، فاتحاً ياقة سترته. وسرعان ما وصل إلى البرج وبدأ يرتقي السلم.

- فلنستقبله! - قال شيربينا ذلك وزرّ سترته ورمى بسيجارته ثم تنكّب بندقيته. رفعت غطاء الفتحة فبدا رأس الملازم الأشيب أولاً ثم جبهته المبللة بالعرق، ففمه وقد انفتح - ضاحكاً - حتى أذنيه. وأخيراً ظهر بكامله.

- مرحباً يا شباب! - حيّانا الملازم وجلس. ظللنا أنا وشيربينا منتصبين باستعداد. تذكّر مدينارادزه، فجأة، رتبته كضابط، فنهض ومحا الابتسامة عن محياه واستعد أيضاً.

- أيها الرفيق الملازم لم يحصل شيء في قطاعنا أثناء المناوبة، رئيس الحرس المجند دجاكيلي!

- ما من جديد ؟ - تساءل مدينارادزه، بخيبة أمل.

- أجل ما من جديد.

- ن...نعم. تفضلا واجلسا.

تبادلنا النظر مستغربين.

- آه، أجل.... مرحباً يا رفاق!- صحح الملازم خطأه، فصرخنا :

- نرجو لكم دوام الصحة، أيها الرفيق الملازم.

و ارتبك الملازم من جديد، لكنه تذكر الإيعاز الذي أنقذه:

- راحة!

فتنفسنا الصعداء.

- اي... ي! مالكما تتصايحان ؟ - وصل إلينا صوت بارخومنكو من الأسفل، فاقتربنا، ثلاثتنا، من الدرابزون. حين شاهد بارخومنكو الضابط عضّ على لسانه ووقف باستعداد. استغل الكلب تانغو الموقف وتحرر بسهولة من مقوده واندفع باتجاه السلم، فصفقت غطاء الفتحة بسرعة.

- أ يعض ؟- سأل مدينارادزه.

- يأكل اللحم مع العظم! - أجاب شيربينا ونادى، في الحال، على بارخومنكو- أبعِدِ الكلب!

بجهد كبير سيطر بارخومنكو على الكلب. وخيّم صمت ثقيل على المرصد. لم يدرِ (مدينارادزه) كيف يبدأ الحديث فأخرج علبة (كانت) من جيبه وقدمها لنا :

- تفضلوا!

كانت تحدوني الرغبة في أخذ سيجارتين، لكنني لم أتجرأ. ابتسم مدينارادزه وقد خمّن فكرتي:

- خذ، خذ.. سآخذ اثنتين وأترك لك الباقي. لدي الكثير منها.

- ما من ضرورة، أشكركم... ـ ارتبكت.

- أقول: خذْ! وأعطني المنظار من فضلك!

نظر لدقيقة نحو القرية ثم أنزل المنظار.

- لا أرى شيئاً!

- انظرْ من جهة قصبة المنظار، من هنا، من فضلك!

نظر مدينارادزه من جهة القصبة وهتف بصوت عال:

- أوه.. هذا أمر آخر. اشرح لي من فضلك، ماذا لديهم هناك...

- في الجهة اليمنى بناء خشبي. إنه مركزهم. أترى؟ ثمة درس لديهم. هؤلاء عساكر. وذا ك هو الضابط.

- أراه. في سروال أخضر جديد... وما هذه البنادق البدائية؟

- إنها أميركية من ذوات العشر طلقات.

- وهذا هو السلاح الأميركي الذائع الصيت؟

- لا، فهم يعطون الأتراك بنادق قديمة..أما ما لديهم فأفضل بكثير..

- مفهوم.

- وهناك، على اليسار، بيت المختار.

- أي مختارٍ هو؟ ألم يستطع، على الأقل، أن يزجّج نوافذه؟!

هززت كتفيّ.

- يليه بيت قرميدي السطح.إنه بيت المعلم.

- والمدرسة؟

- ثمة مدرسة ابتدائية.

- ماذا يعلّمون فيها؟

لم أكن أعلم منهاج التعليم الابتدائي في تركيا لذا صمتُّ.

- وماذا هناك على الشاطئ؟

- مقهى، وغير بعيد منه تقع المدرسة.

- وأين الناس؟

- في العمل. حقولهم الزراعية هناك، خلف ذاك الجبل.

- لا توجد كهرباء؟

- لا.

- ن..نعم، يعيشون ببؤس.

- أجل، ببؤس - وافقته الرأي.

- ألا يجتازون حدودنا ؟

- لا أدري... ها قد دخلت العام الثاني في خدمتي، وحتى الآن لم يدخل أحدٌ إلى أراضينا.

- لعلهم يخافون...

- ممن ؟

- من عساكرهم.

- ربما..

- وهذه القرية ما أجملها!

- جميلة!

- وانظرْ ما أجمل هذا المسبح والشاطئ. والجلاميد تنتصب كأنها بواخر. يا للجمال! ما اسم عائلتك؟

- دجاكيلي، أيها الرفيق الملازم.

- اسمع يا دجاكيلي. كل هذا، فيما مضى، كان لنا. من هنا..، إلى هناك.. اللازيون أخوة لنا. إنهم يتكلمون اللغة المغريلية. هل سمعتهم وهم يتحدثون؟

- أحياناً، وهم ينزلون إلى الجدول.

- وهل تفهمهم ؟

هززت رأسي سلباً.

- ما عمرك؟

- تسعة عشر.

- وأنت ؟ توجه الملازم مدينارادزه بسؤاله إلى شيربينا.

- نفس السن، أيها الرفيق الملازم.

- متزوجان ؟

- بارخومنكو متزوج - أجابه بترو.

- ومن هو بارخومنكو ؟

- ذاك الذي يرافق تانغو.

- ومن هو تانغو ؟

- تانغو - الكلب.

- ومن أسماه هكذا ؟

- زودوف.

- ومن هو زودوف ؟

- أيها الرفيق الملازم، عند الرائد تشخارتشفيلي قائمة بأسماء المفرزة - وابتسم شيربينا.

- وأنت، ما يضحكك ؟

- لاشيء، أيها الرفيق الملازم مجرد أنني فرح.

- وما الذي يفرحك ؟

- لأول مرة في حياتي أرى كاتبا بلحمه وعظمه، فلم لا أفرح!؟

- أنت من أي بلد ؟

- من خاركوف.

- أوليس في خاركوف كتاب ؟

- ثمة الكثير من الكتّاب، لكن لم يقيض لي أن ألتقي بأحدٍ منهم.

- أنت أيضاً لم ترَ كتاباً أحياء؟ - سألني مديناراذزه.

- رأيت. رأيت الأحياء منهم والأموات.

- وهل صادفت في حياتك كاتباً نصف حي - نصف ميت ؟

((ها أنت أمامي!)) - رغبت أن أقول له هذا، لكنني صمتّ.

- ما هي ثقافتك ؟ - تابع مديناراذزه أسئلته.

- الشهادة الثانوية.

- ولماذا لم تسجل في أحد المعاهد ؟

- لم يقبلوني، أيها الرفيق الملازم.

- بالله عليك، لا تناديني (ملازما) فأنا أحسب أنك توجه حديثك إلى شخص آخر..

- حسن، سأحاول هذا أيها الكاتب المحترم!

- اسمي فلاديمير.. حسن، لماذا لم يقبلوك ؟

- رسبت يا فلاديمير المحترم!

- وإلى أين تقدمت ؟

- إلى معهد الطب.

- أوه، أمر صعب.. ولم تحاول التقدم إلى معهد آخر ؟

- لا.

- متى ستنهي خدمتك ؟

- بعد عام.

- بعد عودتك مرّ عليّ. سأساعدك في التهيئة للامتحان.

- شكرا.

وتناول مديناراذزه المنظار من جديد.

ـ أيها الملازم المحترم – قال شيربينا فجأة ـ هل انخرطت في الجيش طواعية ؟

نظر مدينارادزه إليه متمعنا، وكأنه أراد أن يتأكد – أيمزح هو أم لا. لكن شيربينا كان يبدو جادا كل الجدية..

- أجل طواعية. أنا كبير السن على الجيش، أليس كذلك ؟

- لا، ليس هذا هو سؤالي، لماذا انخرطت في الجيش، أتريد أن تكتب عنا ؟

- أريد يا عزيزي شيربينا، إن تسنى لي ذلك.

- تلك هي المسألة، أيها الرفيق الملازم، ليس ثمة ما يستحق الكتابة! هاهنا كل يوم يشبه سابقه... ها أنا في العام الثاني من الخدمة ولم تطلق حتى طلقة واحدة من الجانب الآخر... في جريدة ((حرس الحدود)) يكتبون (تم القبض على شخص ما) (وهناك فرّ أحد ما..) لكن ماذا عندنا ؟ يصرخ الملاّ، يدرب الضابط العساكر، يصطاد الصيادون السمك، يقود المعلم أفراخه، ويقبع العسكري الغبي في حفرته.. أمرٌ يتكرر ويتكرر..ثمة امرأة شابة جميلة، زوجة المعلم ومع هذا لا يدعني دجاكيلي أنظر إليها!.. ملل!..

- يبدو أنك، يا أخي، مقاتل شرس!هل ثمة أفضل من السلام والأمن والهدوء؟!

- ما علاقة المقاتل في الأمر ؟ مادام الإنسان يخدم على الحدود، ألا يجب أن يرى ولو بطرف عينه "خارقاً حياً " للحدود ؟ ولا أقول إلقاء القبض عليه..

- ستتمكن من ذلك، ستتمكن يا شيربينا...سترى وتقبض عليه.

- أنّى لنا ذلك ؟...

- صدقني، سترى. سنقبض خلال هذين الشهرين على أربعة

جواسيس على الأقل. وبعدئذٍ سأكتب عنكم كتاباً، عنك وعن دجاكيلي.

- وعن بارخومنكو أيضاً. أرجوك. فالشاب قد أضناه تانغو. وهل هي مزحة مرافقة بعبع كهذا !؟ إذا كان ثمة رجل حياته معلقة بشعرة فهو المسكين بارخومنكو!

- سأكتب عن بارخومنكو أيضا، بكل تأكيد.

- أيها الكاتب المحترم – تابع شيربينا يقول – بالأمس تجادلنا في الثكنة.. - وتردد.

- عم ؟

سأله مدينارادزه باهتمام.

- بشأنكم...لا أعني شخصكم بالذات..بل فيما يخصّ الكتّاب عموماً.

- هيّا، تابع!

- أكد الشباب أن لدى كل كاتب أمراً غير طبيعي.. أهبل بدرجةٍ ما...أهي الحقيقة ؟

- وأنت ماذا تعتقد ؟ ها أنا ذا، مثلا، أمامك..هل أشبه الأهبل ؟

- حتى الآن، يبدو، لا..

قهقه مدينارادزه، فابتسمت أنا، وضحك أخيراً شيربينا، ثم تابع حديثه:

- ثم تبادلنا الرأي. أكّد كوروليف وأربوزوف وإيفانوف ودزنيلادزه – أن تصبح كاتباً أمرٌ أيسر من يسير! أتى، رأى، كتب، طبع ثم قبض النقود وعاد إلى بيته...وقال آخرون، وكان دجاكيلي أحدهم، أن تكتب مسألة معقدة، عسيرة جداً...حسن، فما هو رأيكم؟ أمن الصعب أن يصبح الإنسان كاتباً ؟

جلس مدينارادزه على الكرسي ثم طلب مني سيجارة – من تلك

التي أعطانيها - سحب منها بعمق وفكر طويلاً ثم قال بصوت خافت وكأنه يكلم نفسه:

- كيف أشرح لك يا عزيزي!.. هل من الصعب أن تصبح كاتباً؟ - فتح راحة يده اليسرى وراح يطوي بيمناه أصابعه – بوشكين قتلوه، ليرمونتوف - قتلوه...لوركا ـ قتلوه.. إيليا تشافتشادزه ـ قتلوه... تشيخوف ـ مات بالسل.... - وتابع طي أصابع يده اليمنى – فاجابشافيلا: مات بالسل...همنغواي ـ أطلق الرصاص على نفسه.. ستاندال ـ سقط في الشارع ميتاً... تصوروا: رحالة يجوب الصحراء... قيظ ورمال محرقة... يبدأ الرحالة بحفر بئر.. يحفر يوماً، يومين.. هل تنبجس المياه في البئر – هذا ما لا يُعرف...وكذا عمل الكاتب...

حملق شيربينا بعينيه وراح ينقلهما بيني وبين مدينارادزه.

- واضح ؟ ـ سأله الملازم.

- واضح كل شيء!

- حسن، إذا كان الأمر واضحاً...

نهض مدينارادزه. رفع غطاء طاقة البرج ثم ربّتَ على وجنة شيربينا وراح يهبط السلم.

* *

نقيم في ثكنة مؤلفة من طابقين. يضم كل مهجع من خمسة إلى ستة أفراد. أوقات الاستيقاظ والنوم على الحدود ليست واحدة على الجميع. المناوبون نهاراً ينامون ليلاً، والمناوبون ليلاً ينامون نهاراً. بحيث لا تتواجد المفرزة مجتمعة إلا في حالات الاستنفار.

...يوشك أيلول (سبتمبر) أن ينتهي. منذ أسبوع والمطر ينسكب ـ كريهاً، مملاً، بلا بداية ولانهاية، ينصب ليلاً ونهاراً دونما كلل. نفذ

المطر إلى كل شيء، حتى عبر الجزمات المطاطية والواقيات المطرية. ترطّب كل شيء ـ الكبريت والدخان والفرش والثياب. وحتى الهواء المحيط بنا غدا مشبعاً بالرطوبة. أرهقنا. وشئنا أم أبينا كنّا مضطرين لإعادة تعمير منظومة الرقابة الرصدية المناطقية مرات عدة... نرفع الأعمدة المنهارة، نشدّ الأسلاك المتقطعة، نمتّن الدرجات الصاعدة عبر الجبل. نقوم بذلك صباحاً وظهراً ومساءً.. ليل مظلم، حالك السواد، تكاد تدخل الإصبع في عينك ولا تراها.. والوحل أحمر، لزج، كثيف يلتف حول رجليك كالكلاليب....

تيارات مائية باردة لا مناص منها.. ونعاس يطبق الأجفان المتخشّبة.. آهٍ، كم كنا نرغب في النوم! نعود من الدورية ،والتعب يكاد يرمينا، نلتهم طعامنا الساخن، ونصل بصعوبة إلى أسرّتنا، ثم ننطرح نائمين. كنا ننام كالأموات. تلك الفترة هي الأخطر على الحدود. جهة البحر إلى حدٍ ما آمنة، فالبحر الآن بارد ومن المستبعد أن يستغله أحد. أمّا الجبال! فعبر التهطال والضباب، حيث لا يمكنك أن ترى أبعد من ثلاث خطوات أمامك، ليس من الحكمة أن تغفل عن ذوي النوايا السيئة.

..ناوبنا اليوم، منذ الصباح، أنا وشيربينا وبارخومنكو. أخذنا نصيبنا! فقد ضبطنا منظومة الرقابة الرصدية المناطقية، أعدنا إصلاح سبعين درجة جرفتها السيول، وتفحّصنا كل التجهيزات التكنيكية. عدنا منهكين، مقرورين، جائعين. ومع ذلك كنّا سعداء ـ سنرتاح ليلاً. وهذه الفرحة حالت بيننا وبين النوم.

كان المهجع يضم، بالإضافة إلينا أنا وشيربينا وبارخومنكو ثلاثةً آخرين (مورديكوف)، (بالتيرمانتس) و(دزنيلادزه). شباب رائعون! كانوا قد ناوبوا ليلاً وهم الآن نيام. ستحل نوبتهم بعد ساعة. كانت فكرة أن غيرنا مَن سيذهب للمناوبة تشيع في نفسي الفرحة.

قال بارخومنكو:

- أخـي، إن اسـتمر هـذا المطـر بالانـسكاب خمـسة أيـام أخـرى ستكون نهايتنا!

- أيـة أيـام خمـسة! يبدو أن الجـو مـشحوناً لعـامٍ كامـلٍ ـ تـنهد شيربينا ثم سألني ـ دجاكيلي، أأنت نائم؟

- لا.

- بمَ تفكر؟

((بم أفكـر؟ لا أدري...بـأي شـيء سوى الحدود ؟ الحدود هـي الشيء الذي مهما فكر الإنسان بسواه يرى نفسه يعود إليه بتفكيره))

- أفكّر بالحدود.

- وأنا أيضاً...

- حسن، دعونا ننام! - وتثاءب بارخومنكو.

تدثرت بالبطانية حتى قمة رأسي. حاولت طويلاً النوم.

- هل أنتما نائمان؟ - تساءلت فلم يُجب أحدٌ منهما مع أنني أعلم أنهما غير نائمين ـ حسن، لا تريدان... سيّان! سأجد مسامرا...

- مرحباً، أفتو، كيف حالك ؟

- لا بأس يا دجاكو[1]، أخدم الاتحاد السوفيتي.

- وهل الأمر صعب ؟

- لماذا صعب؟ مثلي مثل غيري.

- اعترف.الأمر صعب عليك!

- لا، دجاكو، ليس الأمر صعباً... الأمر معقدٌ قليلاً. كما تعلم، الخدمة على الحدود قضية شائكة.

- لعلك اشتقت إلى البيت ؟

---

[1] (أفتو) هو اسم بطل الرواية و(دجاكو) هي نسبته ، أي أنه يخاطب نفسه – المترجم.

- اشتقت وأيما اشتياق، أحياناً تنتابني الرغبة في البكاء...

- مَن تود أن ترى ؟

- الجميع. جدي، العم فانتشكا، العمة شورا، آبو، دادونا!

- وكيف تعيش بدونهم ؟

- هكذا، كما يحيا الآخرون...ثم إن حولي أناساً رائعين! شباب ممتازون ورئيسنا الرائد تشخارتشفيلي إنسان ممتاز، لكنه قاس بعض الشيء.. منذ أيام قرصني الشيطان ورميت عقب سيجارة في البهو... أجبرني على تنظيف المراحيض ساعتين كاملتين.... وقبل ذلك حدث حادث!.. آهٍ.. يوم الثلاثاء، الرابع عشر من شهر آب (أغسطس) كان عيد ميلاد بارخومنكو. قررنا أن نحتفل به يوم الأحد أي في التاسع عشر...أخذنا إجازة وسافرنا إلى باطومي. جمعنا النقود واشترينا الخمر والسجق والخبز الأسود، وأسرعنا إلى المسبح، حيث احتفلنا بعيد ميلاده. تمّ كل شيء على أحسن وجه. اختارني عريفاً للحفل.. حين رفعت الكأس نخب الأهل، بكى بارخومنكو قائلاً (تعال أقبّلك. سأكتب لأمي كم أنت شاب رائع ذهبي!). وعموماً شربنا كما يجب.

بعدئذٍ دخلت في مباراة مع شيربينا. مما اضطر بارخومنكو إلى جرنا إلى مياه البحر حيث غطّس رأسينا فيها ثلاث مرات. انتهى الأمر بنا - أن نزع الرائد بيديه أحزمتنا وزجّنا في غرفة الحجز. أمضينا الليل أنا وشيربينا – كخنانيص[1] مقرورة – ونحن نلتصق ب(بارخومنكو) النائم بعمق وهدوء.

جاءنا تشخارتشفيلي في الصباح.

- حسن، كيف الحال أيها النسور ؟ - سألنا ضاحكاً.

- حالنا ممتازة، أيها الرفيق الرائد! - أجابه شيربينا ـ لكن كان يجب أن نسجن فرادى، فقد احتفلنا هاهنا معاً بعيد الميلاد!

---

(1) مفردها خنوص:صغير الخنزير – المترجم

ضحك تشخارتشفيلي ثم وزع علينا الأحزمة وخرج مسرعاً من غرفة الحجز.

- ماذا تريد أكثر من ذلك؟ لقد تصرف معكم تصرف الآلهة!

- قد قلت: إنه إنسان رائع!

- وماذا أيضا؟

- وماذا أكثر من ذلك؟ يكفي أننا نلهو ونرتاد السينما ونلتقي بالطلاب والدارسين. ثمة مكتبة لدينا ونادٍ. نغني، نقيم الحفلات...طبعاً في أوقات الفراغ على أنها قليلة....لدرجة أننا لا ننام كما يجب.. كالآن.فبدلاً من النوم أثرثر معك. حسنٌ، هذا يكفي، تصبح على خير يا دجاكو!

- تصبح على خير، أفتو!

الأجفان تثقل والأفكار تتشوّش.. وأغرق تدريجياً في نوم لذيذ... فجأة شقّت طلقتان سكون الليل. ((صاروخان)) ــ لمعت الفكرة في رأسي.

خلال ثوانٍ معدودة كنا جميعاً نقف على أرجلنا.

- لابدّ أن هذا إنذار! ـ قال شيربينا وهو يتناول جزمته.

- اخرج وانتظم في الصف! ـ صرخ المناوب الذي دخل المهجع وخرج منه راكضاً.

كان تشخارتشفيلي وكوروليف وبافلوف متواجدين في البهو، وقد اتشح كل منهم بالواقي المطري وحمل بيله بيده.

انتظمنا في رتلين.

- استـ....ـعـد، قدوة إلى الأمام...أيها الرفيق الرائد المفرزة جاهزة! - قدّم زودوف الصف.

- قوّاد الحرس خطوة إلى الأمام سر! - أعطى الرائد إيعازه.

تقدمت أنا وبعض الجنود إلى الأمام. كان إلى جانبي يقف

دزنيلادزه.

- أيها الرفاق! - بدأ الرائد حديثه ـ لقد اخترقت الحدود في القطاع الرابع. كان من الممكن أن نتحرك بهدوء في ظروفٍ عادية، أما في مثل هذا الجوّ..أطلب منكم دقة عالية في التنظيم والتنفيذ. لا أريد منكم هفوة واحدة. أعلن حالة الاستنفار، آمركم بالدفاع عن حدود اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية. هل من أسئلة ؟

- لا.

- هيّا، نفّذوا الأمر!

((للدفاع عن حدود الدولة!...)) هو ذا الأمر الغامض المبهم الذي يمتلك فؤادك ويملأ كيانك بشعور العزة، الشعور الذي يدفعك لتكون شجاعاً، جريئاً، جسوراً، ويشعل النار في دمك ـ من الصعب أن تجد تسميةً له. ما هو ؟ حب الوطن ؟ الشعور بالمسؤولية ؟ الإخلاص للقسم ؟ لا أدري.لكن ثمة في هذه الكلمات ما يدفع أفتانديل دجاكيلي للموت... للموت دونما ألم، دونما كلمات...للموت بسعادة...

امتزج البحر والسماء والأرض في ظلمةٍ حالكة لا حدود لها.. ينسكب المطر دون انقطاع. القطاع الرابع يبعد عنا كيلو متراً ونصف. ثمة ثلاثة عناصر. ما الذي يستطيعون اتخاذه ؟ ريثما يصلون إلى مكان الخرق ربما يكون الأمر قد انتهى...ولذا نحن نسرع، أنا وشيربينا وبارخومنكو وتانغو. بارخومنكو والكلب في المقدمة. جداول الماء تتدفق من السماء شلالات كاملة. هذا ليس مطراً بل طوفان. انتفخت الواقيات المطرية بالمياه وامتلأت بها جزماتنا. نحن لا نمشي بل نخوض في الوحل..

كنا أول الواصلين إلى القطاع الرابع.

- كلمة السر! - سمعنا صراخاً. لا يُرى أحد. بهرني للحظة شعاع بيل جيبي حاد كالسكين.

- فولغا! ـــ أجبت وأنا أشعل البيل أيضاً. وها أنا ذا أرى

سكفرتسوف ينتصب أمامي.

- كلمة التعارف!

- الدانوب!

- ما الأمر يا (سكفورتسوف) ؟

- الشيطان يفهم هذا! ما مِنْ أثرٍ. أمّحى كل شيء. وجدنا جزّة الوبر هذه على الشريط. ها ك، انظرْ. يبدو أنه دبٌّ!

- لعل... ـ قال شيريبنا مرتابا ـ بارخومنكو، أطلق الكلب!

- ابحث، يا تانغو!

و طوّل مقوده.

يتشمم الكلب جزّةَ الوبر ثم الأرضَ، يدور ويهرّ، يجري هنا وهناك، يعود ويقعي على قائمتيه الخلفيتين، وينظر إلينا بدهشة. الأمر عسيرٌ على الكلب. وتستعر الطبيعة وكأنها قررت السخرية منّا. صبّت مطرها بشدة غامرةً الكل ؛ كل شيء.

- تانغو، حبيبي، ابحث، ابحث! - رجا (بارخومنكو) كلبه ـ اتبع الأثر، يا تانغو.

وفجأة قفز تانغو من مكانه. وانطلق نحو الظلمة حتى كاد يُوقع بـ (بارخومنكو). مضينا خلفه.

صرختُ إلى بارخومنكو:

أرخ له العنان! أرخ!

إلى أي شيطان، خرج بأكمله! ـ صرخ بدوره.

قادنا الكلب إلى التلة المشرفة على القرية. كنا نركض دون أن نرى الطريق. نسقط في الحفر، نرتمي وننهض، ننطح الشجر، نجتاز الأحراج. لاح ظلٌّ أمامنا.

- قف! من هناك ؟ - سألتُ.

- ما الأمر؟ ـ أجاب دزنيلادزه.

- أخذ الكلب الأثر. اتبعونا.

كان الكلب يشخر ويندفع.

- أطلق الكلب يا بارخومنكو!

- سيذهب، ولن نراه بعدئذٍ.

نتابع الجري.

- شيربينا، أهذا أنت ؟

- أنا.

- أين دزنيلادزه ؟

- أنا هنا!

- قل للعناصر أن يكونوا حذرين في استعمال السلاح، فأي خيرٍ في أن نطلق الرصاص على بعضنا البعض!

- أعلمُ، لسنا صغاراً!

نتابع الجري.

- قف! مَنْ هناك؟ - أسمع نداءً. إنه شميدوف.

- أنا!

- دجاكيلي؟

- نعم.

- يا له من شيطان! إلى أين يجرّي الكلب ؟

لم أجب. نركض ونركض دون أن نتبيّن الطرق، ساقطين في الحفر، ناهضين منها، متعثرين بالأحراج الصغيرة، مصطدمين بالأشجار. أرى أمامي ظهر بارخومنكو الواسع ووراءه، يكاد يكون إلى يساره، دزنيلادزه. وجهه ممرغ في الوحل. ما هذا ؟ أحقاً أن الفجر يبزغ ؟ نعم، نعم، إنه الفجر. الحمد لله! والمطر أيضاً قد خفّتْ شدته.

والآن ها أنا أرى الآخرين. كانوا كالأشباح، يتنقلون، منحنين إلى الأرض، من شجرة إلى شجرة. ثمة في الأعلى أصوات خافتة وفرقعة أغصان تتكسر. إنها عناصر المفرزة العليا. كانوا يتشقلبون إلى الأسفل مقرفصين. والكلاب تهرّ وتندفع محاولةً الإفلات.

- أطلق الكلبين! – سمعنا أمر تشخارتشفيلي.

من أين جاء هذا الكلب ؟ فهو لم يكن معنا. جرى الكلبان نحو الأمام، نحو شجرة زان كبيرة وطوّقاها.

- كونوا حذرين، هيئوا السلاح! - يصدر الرائد أمره.

أمسكنا بالبنادق وأحطنا بالشجرة. تضيق الدائرة، وها نحن نرى ثقباً فاغرا فمه أسفل شجرة الزان.

- لا تتقدموا دون أمر!

كانت الكلاب تهرّ بنفاد صبر. ولم يعد هناك شك في أن هذا وجارُ دبٍ.

- أبعدوا الكلبين! - أمر تشخارتشفيلي.

- تانغو، تعال إليّ!

هرّ تانغو بحزن ثم تراجع وأقعى عند قدميّ بارخومنكو.

- دبّ! - قال شيربينا وهو يبصق الوحل.

- وما أدراك ؟ قلت وقد لاحظت وقتها أن المطر قد كفّ عن الهطل وأن نقطاً كبيرة، بحجم حبات العنب، تتساقط فحسب من على الأشجار.

- أيها الرفيق الرائد، إنه دبّ بكل تأكيد. هو ذا أثره – قال شيربينا وخرج من مكمنه.

- إلى الوراء، يا شيربينا!

أطل الصباح. أرى تشخارتشفيلي بوضوح: يقف خلف الشجرة والمسدس في يده. بجانبه كاتبنا بلا سلاح وقد مُرغ بالوحل بكامله.

- اي.ي، بارخومنكو، اسأل الكلب: أدبٌ هناك أم ماذا ؟ ــ ضحك أحدنا بصوت عالٍ.

- إذا كان هو نفس الدبّ الذي أقلق المفرزة كلها في العام الماضي، يجب قتله وبذا ننهي الحديث! - صرخ دزنيلادزه.

- هيّا، دزنيلادزه، اقتله! أنا أسمح لك! - قال شيربينا وقهقه الجميع.

- دجاكيلي ــ وجّه الرائد كلامه إليّ ــ جهّز العلبة الدخانية وادخل بحذر من جهة اليسار!

التففت حول الوجار من جهة اليسار ووقفت على مسافة سبعة أمتار منه. أخرجت من جعبتي العلبة الدخانية وعلبة الكبريت وقدحت عوداً ثم ثانياً وثالثاً.

- مالك تتلكأ؟ - علا صوت الرائد بنفاد صبر.

- قد ترطّبت الكبريتة، أيها الرفيق الرائد.

- كبريتتي جافة! - واندفع الكاتب نحوي.

- إلى الوراء! - صرخ الرائد وأخذ الكبريتة من الكاتب ثم تقدم نحوي.

أشعلتُ علبة الدخان وقذفتها في الفتحة. بعد ثوانٍ تصاعد الدخان من الوجار. هيّأنا أسلحتنا وتحفّزنا.

مرت دقيقة، دقيقتان، ثلاث...أحقاً أن إنساناً في الوجار ؟ فالدب لا يتحمّل مثل هذا. يعني أنه إنسان ؟ إنسان!

تطلعت فيما حولي. كانت العناصر متسمّرة في أوضاع متوترة، لا ترفع عيونها عن مدخل الوجار. مرّتْ أيضاً دقائق عدة. غدا الانتظار لا يُطاق.

فجأة تدحرجت من الوجار بسرعة هائلة لفيفتان خمريّتان. إحداهما ارتطمت بالصخرة الضخمة الناتئة أمام الوجار. ارتمت في الحال مضرّجة

بالدماء ثم اختلجت ما يقارب المرتين وهمدت. أما الثانية فتدحرجت بشكل مضحك وعوت بخفوت ثم انقلبت عند قدميّ وسكنت.

- إنه ديسم! - طرحت البندقية ورميت بجسدي فوقه.

- احذروا ، انتبهوا – صرخ تشخارتشفيلي وحمى الكاتب الأعزل بجسمه.

خرجت من الوجار دبّة عملاقة ، تمايلت الوحش وقد سطلها الدخان، راحت تختلج وتلوّح برأسها. وبعد أن أحسست بالضوء وبالهواء النقي المنعش، هدأت، أقعت ثم انتصبت على قائمتيها الخلفيتين، تمطت ثم تنفست بعمق وتطلعت فيما حولها - عندئذٍ حدث ما لم يكن بالحسبان.

- عو..و..و! – عجّت الدبة بصوت رهيب واندفعت نحو جثة الدبيب الدامية وهي تضرب رأسها بقائمتيها الأماميتين.

- عو..و...و! - نبح الكلبان واندفعا إلى الأمام.

- تانغو، إلى الوراء! – صرخ بارخومنكو، لكن الوقت كان قد فات. فالوحش المسعورة مزقته في مثل لمح البصر، ولم يبقَ من الكلب المسكين سوى أشلاء متناثرة.. ودوّت رشقة قصيرة:

- ترا - تا - تا.

قفزت الدبة كالملسوعة، ثم ترنّحت وخرّت قرب وليدها...

.. لم أرَ كيف سلخوا جلد الدبة ولا كيف جمعوا الأشلاء التي كانت لنصف ساعة خلت تشكل الكلب تانغو. لم أسمع زودوف وهو يوبخ بارخومنكو، جلست تحت الشجرة أصم، أبكم، أضمُّ إلى صدري بإحدى يدي الدبيب المرتجف وأداعب بالأخرى رأسَ شيربينا المبلل. كان يبكي.

ارتفع من ورائنا صوتٌ مرح:

- من حسن حظنا أن الأمور انتهت بسلام!

وأكّد آخر مردفاً:

- صحيحٌ هذا!

طأطأت رأسي. لم أتعرف عليهما من صوتيهما، ولم أشأ أن أنظر إلى هؤلاء ((السعداء))...

في طريق عودتنا إلى المركز مررنا ببيت (فريدة). كانت تقف على الشرفة.

- ما هذا ؟

- إنه ديسم، يا فريدة!

- ومن أين جاء ؟

- اصطدناه صباحاً.

- ومن أخبرك باسمي ؟

- عرفت بنفسي.

- لم تنم القرية طوال الليل. كنتم تطلقون النيران، وكل هذا من أجل هذا الصغير ؟

- من أجله!

- حبّذا لو أطلقتموه!

- إلى أين ؟

- لأمه.. لا تنظر إليّ بعينين كهاتين، يا دجاكيلي!

- من أين عرفت اسم عائلتي ؟

- كلهم يدعونك كذلك...ألا يعض هذا الدبيب ؟

- لا يستطيع بعد.

- ما اسمه ؟

- لم نسمِّه بعد.

- وماذا ستسميه ؟

- ميرابتشيك.

- ولماذا ميرابتشيك ؟

- لا أدري.... ميراب – اسم جميل!

- ألم أقل لك، لا تنظر إليّ هكذا !

- كيف هكذا ؟ أنا أنظر إلى الجميع بهذا الشكل!

- إنك تكذب!

- ربما. لماذا لم نعد نراك، منذ فترة، يا فريدة ؟

- لسبب بسيط هو أنك تراقبني بدلاً من مراقبة الحدود!

- وهل هذا أمر سيء ؟

- أجل.

- لماذا ؟

- لأن هذا لا يجوز!

- وهل يمكن المجيء إليك ؟

- أجننت ؟

- لا يمكن ؟

- طبعاً لا يمكن!

- ولماذا ؟

- أنا لا أرغب!

- وإذا كنت أنا أرغب ؟

- بماذا ترغب ؟

- أن أجلس معك، أتحدث إليك...

- عمَّ ؟

- عن شيء ما.

- لا يمكن. أنا أرملة.... وأنت أصغر مني سناً!

- ومن أدراكِ ؟

- أعرف كل شيء.. عمرك تسعة عشر عاماً... يتيم الوالدين...لم تُقبل في معهد الطب... تمر على مركز البريد ولا يصلك شيء من صديقتك... تسرق اليوسف أفندي من حديقة علي خورافا... صحيح ؟

- من أين علمت كل هذا ؟

- حدثتني العصفورة بذلك.

- ألم تحدثك العصفورة بأنني معجب بك ومعجب جداً ؟

- أنت أحمق!

- وهذا ، من أين تعرفينه ؟

- خمنت هذا بنفسي.

- الأحد القادم لن أسافر إلى المدينة ، سأمضي اليوم بأكمله عندك.

- أقول لك بأنك أحمق.

- سآتي!

- جرّبْ فقط!

- سآتي!

- لا تتجرأ على ذلك! ولا تنظر إليّ هكذا! انظر إلى بنات المدينة بهذا الشكل.

- أي شكل هذا ؟ أنا لم أنم هذه الليلة!

- حسن، امضِ!

- إلى اللقاء، يا فريدة!

- اذهبْ، اذهب، واعتنِ بدبيبك!

غـادرت فـريدة الـشرفة واخـتفت داخـل الغـرفة. رحـت أنـزل إلى الأسفل، عبر الممر الضيق. كان رفاقي قد سبقوني كثيراً.

نـام الديـسم علـى صـدري بلـذة، بعـد أن دفئ جـيداً، وراح يمـص إبهامي بسرور.

* *

" عزيزي سرغيس!

هـا قـد مـرّ شـهرٌ على وجودي على الحدود. حين ودعتموني.. على أية حال سأقص عليك، يا أخي، بشكل متسلسل...

يـتوقف قطـار تبيليـسي - باطومـي بعـد كـل خطـوة، كعجـوز مـصاب بالـربو، في محطـات (ديدوبـي)،(متـسخيتا)، (دزيغفـي)، (غوري)،(سـكرا)، (أغـارا)،(كـاريلـي)، (خاشـوري) ـ وهـكذا حتـى يصل إلى قلـب باطومـي. يـتوقف، يـتوقف ثـمّ يقلـع بـشدة بحـيث لا تبقـى حقيبة واحدة على الرفوف العالية. يجري قليلاً ثمّ يقف من جديد..

كنـا ثلاثـة في المقصورة (أنـا لا أحـسب الـرابع، إذ ظلّ حتى محطة كوبوليتي صامتا دون أن ينبس ببنت شفة!) أنـا وإحدى السيدات التي بدّلت ثمانية أثواب في الطريق، وشـاب أصلع، اتضح فيما بعد أنه مدير أحـد الـكولخـوزات في مـنطقة باطومـي. إنـسـان ظـريف جـدا ومـسـامر لطيف.

بدأ الأصلع حديثه مع السيدة:

- أتسافرين إلى باطومي ؟

- أجل، إلى باطومـي ـ أجابته المرأة بطيبة خاطـر ـ أحب البحـر أواخر الخريف حيث الناس قليلون، والسكينة والهدوء يسودان.

- في مـثل هـذه الحـال كـان من المستحسن أن تسافري في كـانون الثاني، ففي الشتاء، كما تعلمين، لا يوجد أحد على البحر.

تطلعت السيدة إلى الأصلع بريبة. لكن وجهه كان ينضح طيبةً بل وسذاجة مما طمأن السيدة.

- وأنتم، إلى أين ؟ - وجّه الأصلع سؤاله إليّ.

- وأنا أيضاً إلى باطومي.

- للراحة ؟

- لا ، إلى الجيش، إلى الخدمة العسكرية.

استغرب مدير الكلخوز وقال:

- أنتم ؟ إلى الجيش ؟!

فقلت باستغراب أيضاً:

- وماذا في ذلك ؟

- عفواً.. ربما اشتعلت الحرب ؟ قلها بصراحة!

- أنا لست ذاهباً كي أحارب..

- اسمي أفاناسي ـ قال الأصلع ـ فما هو اسم عائلتكم ؟

- مدينارادزه. فلاديمير مدينارادزه، كاتب ــ قدّمتُ نفسي وأكّدت على الكلمة الأخيرة.

- ماذا تقولون ؟ لقد حسبتكم سائقاً.

- بل أنا كاتب.

- جيد، جيد جداً، يعني أنتم الكاتب مدينارادزه ؟

- أجل.

- ابني يعرف أشعاركم عن ظهر قلب ويقرؤها في الأمسيات والمباريات المدرسية.

- أيّها مثلاً ؟ ـ سألته باهتمام.

- هذه:

ما هذا الخنوص الحبيب

أي أنف صغير، أي شفاه!
مع وجهه الخنوصي
لا يتناسب سلوكه الخنزيري!

- يسرني أن أسمع هذا، أشكركم.

فجأة سأل مدير الكلخوز المرأة:

- أيضايقك حذاؤك ؟

- لا شك في ذلك! أهلكتني المجل "الفقاقيع " كيف خمنتَ ذلك؟

- بمنتهى البساطة. مادامت المرأة قد خلعت حذاءها في محضر الرجال، معنى ذلك أن الحذاء يؤلمها. مسكينة أمي! هي أيضاً كان الحذاء يضايقها لكنها، من حيث المبدأ، لم تخلعه ولذا ماتت!..

حملقت المرأة، وقد أدركت المقلب، إلى المدير بنظرة متفحصة، في حين اتخذ الرجل وضعية الملاك المعذب وهو يحدق في قدمي رفيقة طريقنا بعطفٍ صادق.

- إذاً، علام تذهبون إلى الجيش ؟ - تابع الأصلع استجوابه.

- أريد أن أكتب كتاباً عن حياة خفر الحدود.

- أوه، سيكون ذلك صعباً.

- ولماذا ؟

- لأنّ الحياة على الحدود شاقة ورتيبة. كلخوزنا يقع ضمن منطقة الحدود، لذا ثقوا بكلامي.

- أ منذ زمن بعيد وأنت تشغل منصب مدير الكلخوز ؟

- لعنة الله على ذلك اليوم الذي انتخبونيُ فيه، منذ ثلاثة أعوام.

- ما الذي لا يرضيكم ؟

- هـ.. م.. م! مـم ؟ هـا ك، انظـرْ إلى هـذا الإنـسان ــ وأشـار إلى السرير العلوي، حيث ينام تلك الشخصية النموذجية "الصامت" ــ ينام

بكل هدوء، يملأ شخيره المكان. لعلّ أحلاماً مفرحة تداعبه: نساء جميلات، موائد عامرة.. وكيف يشخر السافل! يفري الأعصاب كالمنشار.. نعم، يحلم بأشياء جميلة.. أما أنا ؟ منذ شهرين تقتصر أحلامي على مطرٍ غزيرٍ يهطل وجفنات الشاي تخضر.. كيف نجمع الشاي ونسلم أوراقه للحكومة.. كيف ننفذ الخطة ونتجاوزها.. أستيقظ وقد غمرني الفرح، أقترب من النافذة.. أي مطر هناك!.. تحترق الأرض عطشاً.. ويتلف الشاي.

كان رجل السرير العلوي يشخر أعلى فأعلى. فعلا كأن منشارا يفري شجرة!

تدخلت السيدة:

- لعلنا ندعو جابي العربة ونرجوه لينقله إلى مقصورة أخرى ؟

- لن ((ينشر)) القطار كله من أجلنا!ـ قال المدير ثم تابع حديثه معي:

- أجل، فيما يخص الحدود.. أذكر أن سياجاً وطيئاً مجدولاً من أغصان الأشجار كان يفصل بين حاكورة جدّي ((غيرنتي)) وبين حاكورة جاره ((غيورغي غورجوميلادزه)) ووسط هذا السياج كانت ترتفع شجرة دردار عتيقة قضت على الاثنين معاً.

أقسم غيورغي، حلف بالله أن أباه قد غرس شجرة الدردار ثم تحيّن الفرصة، فنزع السياج ونصبه بحيث أصبحت شجرة الدردار في حاكورته.

حين شاهد جدّي في الصباح ((القرصنة الليلية)). نزع وتدا من أوتاد السياج وجرى نحو غيورغي متسائلا كيف أضحت شجرة الدردار التي غرسها أبوه، في أرض الغير.. ودون أن ينتظر جواباً ضرب رأس غيورغي بالوتد. وريثما أعادت زوجة غيورغي الوعي إلى زوجها الطريح وهي تلعن وتشتم ـ غدت شجرة الدردار في دار جدّي. وبعد مرور أسبوع شفي غيورغي، وترصّد جدي وضربه بالوتد مما أقعده في الفراش بضعة أيام،

وخلال تلك الأيام صارت شجرة الدردار تتبرج في معسكر الخصم.. استمرت الحال على هذا المنوال حتى شوّه جدّي وجاره بعضهما البعض. وشجرة الدردار تتصب بهدوء وسكينة غير عابئةٍ بأحد..

صمت المدير، أخرج من حقيبته زجاجة كونياك ماركة ((فارتسيخي)) ووضعها على المنضدة الصغيرة، سألته:

- ثم ماذا ؟

- فلنشرب كأساً!ـ قال وهو يفتح الزجاجة.

شربنا.

- أين توقفتُ ؟

- لم تأبه شجرة الدردار لأحد.

- نعم، في الربيع، وكما هو منتظر، كانت الشجرة تورق وتتدلى أفنانها وفي الخريف تتعرى من أوراقها.. والسياج حيناً يكون في جهة وحيناً في الجهة المقابلة.. فلنشرب كأساً أخرى..

نهضت السيدة واتجهت نحو الباب. فسألها المدير:

- أتذهبين لتغيير ثوبك ؟

- اسمعوا، كيف يتسنى لكم ملاحقة كل شيء ؟ - انفجرت السيدة تقول بعد أن نفد صبرها - ثوبي وحذائي والجد غيرونتي وذاك السياج!

- ما العمل، أيتها المحترمة، فعلى المدير أن يعرف كل شيء ويلاحق كل شيء، وإلا فمن سينفذ الخطة المتعلقة برقبتي ؟ أأنتم من سيفعل ذلك ؟

ـ كان الأفضل أن تفكروا بالخروج لأتمكن من تبديل ثيابي. فلا بدّ لي من أن أنام ؟!

خرجت بسرعة، متمالكاً نفسي، بصعوبة، عن الضحك، وتبعني المدير. قال:

- يبدو أنني بالغت، أليس كذلك ؟

- لا بأس، ستمرّ.. وكيف انتهت الحكاية ؟

- أية حكاية ؟

- حكاية شجرة الدردار.

- أوه! انتهت بشكل مضحك. توفي غيورغي صباحاً، ومساء اليوم نفسه أسلم جدّي غيرونتي الروح. كان أبي(تيتيكو) يومها شاباً، فقطع شجرة الدردار ليلاً. نشرها وصنع منها بمساعدة جيراننا الشباب تابوتين رائعين لجدّي غيرونتي ولغيورغي، وقبروهما في يوم واحد ومقبرة واحدة جنباً إلى جنب. وعاشت الأرملتان منذ ذلك اليوم في سلام ووئام إلى أن توفيتا في عام واحد..

- والأبناء ؟

- لا شيء. عاشوا بسلام واتفاق. صنع والدي من بقايا الشجرة زوجاًمن (البندورا)[1] أهدى أحدهما لابن غيورغي (لوقا) واحتفظ هو بالثانية.

- وكيف أنهى الأولاد أزمة الحدود ؟

- سلمياً. تصور أن جذور الشجرة انتعشت وازداد جذع الشجرة اتساعا، بحيث لا يمكنك احتضانه: فوضعنا السياج في وسطها تماماً.. وهكذا لم تعد الشجرة تضايقنا.. الحدود يا عزيزي مسألة شائكة، ويا لها من شائكة!.. حسن، يكفي، حان وقت النوم..

فتحت باب المقصورة بتؤدة وكدت أختنق ضحكاً: كان صاحبنا الصامت يجلس على السرير العلوي مدلياً ساقيه العاريتين، لافاً رأسه بالمنشفة. كان وجهه يفصح عن الدهشة والألم. كانت المقصورة ترتج ومظلة النوّاسة تهتزّ.

---

(1) آلة موسيقية غروزينية .

- هل شاهدتما يوماً امرأة تشخر بهذا الشكل ؟ - أنّ ((المسافر العلوي)). وكانت كلماته تلك الأولى والأخيرة التي تفوّه بها طوال الرحلة..

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل حين أيقظني أحد ما:

- أفِقْ، أفِقْ، يا فلاديمير المحترم!

انتفضت من نومي. كان المدير يقف فوق رأسي وقد أثاره الفرح.

- المطر! المطر يهطل يا فلاديمير العزيز!

- تهانيّ! لكن، هل يستحق هذا الأمر إيقاظي ؟

- اعذرني، يا عزيزي! إنها فرحة عظيمة لي. ظننتك ستسرّ أيضاً بهذا المنظر.. تفضل ونمْ!

- كيف سيتسنى لك النوم الآن! قد أفزعتم الإنسان!..

أدرك أفاناسي أنني أمزح، فهَمْهَم مرحا وصبّ ما تبقى من الكونياك.

- نخب المطر، يا عزيزي فلاديمير! نخب المطر الذي يروي الأرض ويهب الحياة للعشب ويغسل القرميد وينبت الذرة، بكلمة واحدة، نخب المطر باعث الحياة ـ قال المدير ودق كأسه بكأسي وعبّه.

- خيّل إليّ أن الناس في نواحيكم اعتادوا الابتهاج للشمس أكثر منه للمطر.

- حسب التوقيت. ففي الصيف الماضي كنت أحلم بالشمس لا أكثر.. تعفن كل شيء جرّاء المطر الدائم..

- شكراً لأنك أيقظتني، وإلا لما رأيت مثل هذا الوابل من المطر!

وفعلاً تدفق المطر دفْقَ الدلاء، وانتظمت عبر زجاج النافذة جداول المطر.

- حصلت حادثة.. اسمع.. مزحت الأمطار معنا، الصيف الماضي، مزحةً شريرة. ربما لم تعرف أيام نوح مثل ذاك المطر، أغرق كل شيء

تماما، جرف، جرف كل مزروعاتنا وحقولنا المحروثة!.. قصدت الإدارة في ساعة من ساعات الصباح تحت وابل المطر. فالتقيت أحد عمال الكولخوز وكان متنكبا معوله. سألته:

- إلى أين ترمح تحت وابل المطر هذا ؟

- أنا ماضٍ إلى كوبوليتي.

- وماذا أضعت هناك ؟

- لقد جرف المطر أرضي إلى كوبوليتي وأنا ذاهب إلى هناك لأعزق الأرض.

يمزح، ابن الكلب، ولم أكن راغبا في المزاح.. خفّ المطر تدريجيا فقصدت الجبال حيث كنا نودع النحلَ صيفا. وصلتُ ـ لا أراك الله شيئاً مثل ذلك! ـ سبعون من أصل مئة خلية كأنها لم تكن، غُمرتْ بالمياه. عدت إلى القرية منتصف الليل. أيقظت الجميع، قارعا ناقوس الخطر، وعقدت اجتماعا. سألني الفلاحون:

- ما القضية، أيّها المدير ؟

- القضية يا أعزائي أن سبعين خلية من خلايانا قد أتلفها المطر.

عندئذٍ نهض بابينو ايرمادزه – الشهير في المنطقة بسلاطة لسانه:

- ثمة سبعمئة عائلة تتعرض للهلاك، وهذا لا يهم المدير مطلقاً، أما من أجل سبعين خليّة جرباء فقد ساقنا من أسرّتنا في منتصف الليل!

ضحكت. تابع أفاناسي كلامه:

- طبعا، أمرٌ مضحك! قد قال الفلاح المؤذي هراءً ونطق باطلاً صرفاً. لن تجد في منطقتنا قرية أغنى من قريتنا. غنية بكل شيء ـ الحمضيات والشاي والذرة والفاصوليا والخمر!..

- وممّ كان صاحبكم (بابينو) متضايقاً ؟

- الشيطان وحده يفهمه. لم يكن يهنأ بيوم لا يلسع فيه. صدّقني كنت أخشى التحدث في أثناء الاجتماعات. كانت القرية بكاملها

تكرهه: واشٍ، حقود حسود، دسّاس. قضى على كثيرين وأوقع بين كثيرين.. كان الناس يتحاشونه ويخافونه..

- كيف استقبل الناس حديثه؟ بشأن النحل..

- كيف؟ علا الضحك والضجيج واللغط.. كانوا يعرفون طبعه اللئيم.. باختصار فشل الاجتماع..

- وماذا حدث بعدها؟

- لا شيء.. قد مات منذ شهرين وتنفسنا الصعداء.. ومع ذلك أثار الرجل الشفقة ـ مات ميتةً حمقاء. قاد حصانه إلى ماخارادزه[1] ليبيطره. لعلك سمعت أن الأخوة (كيركادزه) من أشهر البياطرة، وهم يعيشون هناك. رفع المسكين قائمة الحصان فرفسه هذا بقوةٍ رفسةً أخرجت أمعاءه خارج بطنه. ولم يتمكنوا من إيصاله إلى المشفى، إذ أدركه الموت وهو في الطريق.. وماذا؟ هل يُترك المسكين دون عناية فما من أهلٍ له؟.. أرسلت سيارة الشحن التابعة للكلخوز لنقل جثته.. وفي أثناء اجتياز السيارة لمخاضة (بجوجتسكالي) كاد التابوت يسقط في الماء بعد أن ضرب تيار المياه التابوت، وبصعوبة تمكن المرافقون من الاحتفاظ بالتابوت.. دفنّا الميت يوم الأحد، حيث تدفقت الأمطار منذ الصباح وعند حلول المساء استحالت القرية جزيرة غرقى.. وصلوا إلى المقبرة بعد جهدٍ جهيد. أنزلوا التابوت إلى القبر فانقطع الحبل وانكفأ التابوت رأساً على عقب.. بصق الفلاحون وقالوا: الكلب يجب أن يموت ميتة الكلاب! ثم نفضوا أيديهم ومضوا. واضطررت بمفردي أن أردم التراب عليه تحت وابل المطر. لا قدّر الله أن تستعدي الجمهور ضدك! أمرٌ مثير للشفقة، فالإنسان قد مات، على أية حال.. لكن الناس، وفق قناعتهم، محقّون!..

وافقته قائلاً:

---

[1] ماخارادزه: مركز منطقة.

- ن.. نعم.. صحيح، لا يمكنك قول شيء آخر!

- إيهِ! ثمة الكثير مما يمكن أن أتذكره، لكن الوقت متأخر.. إليكم ما سأقول: منطقة الحدود جميلة وقريتنا ليست بأسوأ منها. اقصدونا، تعرّفوا على الناس وعلى الحياة عندنا، وربما قد تتولد لديكم الرغبة في الكتابة عنّا..

- سأزوركم، بكل تأكيد!

- اكتبوا كيف تقفر القرية ويهاجر شبابها إلى المدينة.

- سأكتب!

- سنكون لكم من الشاكرين..

كان المطر لا يزال ينهمر وينهمر. تطلع المدير من النافذة:

- كفاك! طلبت مطراً ولم أطلب طوفاناً.

كان يرتفع من السريرين العلويين شخير منتظم ثنائي الأصوات..

- تصبح على خير! – قال المدير ذلك وأطفأ النور.

استقبلني، في المحطة، المقدم "روزارينوف" بنفسه. وبعد نصف ساعة كنت أجلس في مكتبه. كان مظهر المقدم يوحي أنه في الخمسين من عمره. نشيط، حيوي، مليح الوجه. وقد تمكّن خلال ربع ساعة، من أن يسرد على مسمعي عدداً من الأحداث البوليسية، وباقة من النكت: وعرض عليّ مخططاً مصغراً لكتابي المقبل بما في ذلك عدد الصفحات التي يجب أن يتألف منها. حقيقةً، كانت، ثمة، صعوبة في إيجاد عنوان للكتاب لكنه وعد في أن يفكر بهذا أيضاً.

ثم خابر المقدم أحداً ما:

ـــ سيُحضرون مجموعة متكاملة من الملبوسات ـــ قال وهو يتفحصني بنظراته.

بعد ما يقارب الخمس دقائق، أدخلوا إلى المكتب عدة صناديق.

- اخلع ملابسك!

ـ لعلنا نغلق الباب ؟!ـ طلبت منه.

- ولماذا ؟ لا توجد نساء. إن كنت تخجل مني، أستطيع أن أخرج.

- لا تزعج نفسك، بالله عليك.

بدأت أخلع ملابسي بارتباك. لكنني أحسست بالفضيحة الحقيقية حين قست السراويل عليّ. يا لكرشي اللعين! وأخيراً تمكنت من أن أدسّ نفسي في أحد السراويل، فتنهّد المقدم (روزارينوف) بارتياح.

- إليك جزمة من جلد الكروم وزوجين من الملاحف وعمرة وكتافيتين ونطاقاً.. ماذا أيضاً؟ أجل، المعطف. سيكون لديك بعد حوالي عشرة أيام. خذ مؤقتاً كيس ماء حارّ. وقّع هنا من فضلك..

كان ينتظرني عناء آخر ـ أن ألبس الجزمة. لكن خرجت من المحنة بسلام، ثم وقفت أمام المقدم بزيي الجديد.

- يا.. ه! هذا ما أفهمه! ـ صرخ المقدم ـ لو كنت مكانك لما تركت البزة العسكرية مطلقاً!

- وهذا ما سيكون، بكل تأكيد أيها الرفيق المقدم. فالجزمة، على الأقل، لن أتمكن من خلعها ما حييت!

- أمرٌ تافه، أخي، بعد يومين ستنخلع الجزمة تلقائياً ـ قال المقدم مهدّئا وربّت على كتفي بأخوية ـ " خلص "، ستسافر إذاً إلى القرية!

رفع سماعة الهاتف وطلب رقماً.

- مرحباً، تشخارتشفيلي.

- ...

ـ رائع.

....

- أرسل إليك الكاتب (مدينارادزه) أتعرفه ؟ نعم، نعم.((أنا وجدّتي وجدّي)) [1].. الخ.. لمدة شهرين نائبا لك للشؤون السياسية.

---

[1] الإشارة هاهنا إلى رواية المؤلف " أنا وجدتي وأليكو والاريون ".

....

ـ مـا مـن ضـرورة لقلـق (كـورولـيـف) إذ أن (مديـنـارادزه) مـن خـارج الملاك!

....

ـ بعـد سـاعة.. هيـئوا لـه الظـروف المناسـبة. لاطفوا الرجل ودللوه!.. لا تنسوا أن تؤمنوا له منضدة في الغرفة.. نفّذ كل ما يرجوه!

....

ـ ما عدا ذلك! حسـن، طلّ علينا! إلى اللقاء!

ـ ماذا ؟ ـ تساءلتُ.

ـ أقول لـه: نفـذ كل ما يرجوه، فيقول: وإذا ما رغب في الهروب إلى تركيا، كيف سأتصرف ؟!

ضحكنا.

... وصلنا إلى القـرية في السـاعة الثانية عـشرة. كـنت قـد زرت هـذه المنطقة سابقا، ضمن إحدى الرحلات لكنني، الآن، لا تفارقني مشاعر الارتباك والتقييد.

في مكـتب قائد المفرزة استقبلني الرائد ـ رجل بهي الطلعة، أليف، ذكي العينين وملامح الوجه، لدرجة أنني، دون شعوري، حسدته.

نهض الـرائد وسـلّم علـيّ، وبـاحترامٍ دعـاني للجلوس. شملني بنظـرة سريعة ثم خاطب الملازم الذي يرافقني مبتسماً:

- لو كويتم ثيابه! تبدو وكأن عجلاً قد لاكها!

- لا تـزعجوا أنفـسـكم.. سـأكـويها بنفـسـي ــ قلـت ذلـك رشّـاً واحمررت خجلاً..

مـال الـرائد نحوي بـريبة وبـدا كـأنـه يفكـر: ((أنـت تكـذب، أيّهـا الأخ، مـا دمـتَ قـد قبلت بلبس هـذه الثياب دون خجل؛ فمن المستبعد أن تقوم بكيّها فيما بعد!)).

استغرق تشخارتشفيلي في عمله، ناسيا وجودي وراح يدوّن شيئاً ما في كتاب ضخم. أخيراً جاء ملازمان شابان. وقفا أمامه باستعداد، فقال لهما بإيجاز:

- تعرفّا عليه، استقبلاه جيداً، أحباه وأكرماه!

حيّاني الملازمان وقدّما اسميهما مبتسمين. ((علام يضحكان؟ - فكّرتُ وأنا أحس بالحمرة تصبغ وجهي - لو نظرت إلى نفسي في المرآة! لعل شكلي يبدو مضحكا جدا!))

- أيّها الرفيق الرائد، المفرزة جاهزة! - حيّا أحدهم الرائد.

- تفضلوا! - قال لي الرائد ذلك واتجهنا جميعاً نحو الباب.

كانت المفرزة تنتظرنا في الباحة منتظمة في صفين.

- استـ.. عد، القدوة إلى الأمام..

وجمد الصف.. ثم رحت أسمع بشكل مشوش وكأنني في حلم صوت الرائد. سمعته يردد اسم عائلتي مرات عديدة. أتذكر أن الرائد سألني عمّا إذا كنت أرغب في التحدث إلى العساكر.

- أصدقائي، كما أخبركم المحاضر.. - بدأت كلامي. ولم أعد أذكر شيئاً.

- من الصف انصـ.. رف! - تناهى إليّ أمر الرائد. حينذاك فقط رأيت الجنود يستغرقون في الضحك. عندما شاهدت الصف يضحك رحت أضحك بدوري دون إرادتي.

بعدئذ، اقترب مني تشخارتشفيلي، لامس كتفي بتحفظ وطلب مني بين الجد والهزل:

- أيّها المحترم فلاديمير! أعطني خطابك إن كان مسجلاً لديك.. سنعلقه لدينا في النادي بجانب نص القَسَم..

درتُ صامتاً، وقد اشتعلت خجلا، ومضيت إلى غرفتي. ارتميت على السرير وأغمضت عينيّ..

في ذلك اليوم لم أخرج من غرفتي. لكن، بعدئذٍ عادت الأمور إلى مجاريها وبدأت أتلاءم مع حياة الحدود.

في النافذة المقابلة لسريري، جزء مكسور من الزجاج. أنهض صباحاً فيخيل إليّ أن البحر قد جاءني إلى غرفتي زائرا. أعتقد أن مثل هذا البحر والشاطئ لا يوجد على سطح الأرض. المياه الزرقاء شفيفة بحيث تُرى فيها الحصيّة والسميكة وقنديل البحر بوضوح تام وكأنك تنظر إلى حوضٍ للأسماك. تستلقي في البحر على ظهرك فتبدو السماء الشفافة الزرقاء فوقك بحراً آخر. وأنت بين ذينك البحرين تسبح والشمس ترتع معك في تلك الزرقة اللامتناهية.

مَنْ لم يشاهد البحر؟ لكن صدقني يا صديقي سارغيس أن للبحر هاهنا نكهة خاصة، إنه بحر المشاعر والانفعالات والتأملات المميزة.. كم من المسابح قصدنا وإياك! وكم من المرات غُرّمنا لتجاوزنا المنطقة المخصصة للسباحة. كم مرة لاحقنا أعضاء فرقة الإنقاذ الغاضبون المميزون بقبعاتهم. لكننا لم نكن نعيرهم اهتمامنا. كم من المرات صفّر وصرخ أصدقاؤنا المذعورون من على الشاطئ لكننا كنّا نتابع السباحة أبعد فأبعد غير آبهين لقلقهم. هنا تختلف الأمور. فوق صفحة البحر الصقيلة، كما المرآة، وعلى مسافة عشرين متراً من الساحل تخفق بهدوء ثلاثة أعلام صغيرة.

لكن، حاولْ أن تتجاوز في السباحة تلك النقاط التي تبدو في ظاهرها حقيرة، لا قيمة لها! لن تستطيع أن تتجاوزها. ليس لأن المطاردة أو الغرامة أو الصفير أو الصراخ بانتظارك، لا. إن أنت تجاوزت الأعلام المسالمة تلك، ستفقد ذاتك وتغدو عاجزاً ضعيفاً. ولن تكون بقادر، مهما كنت ماهراً في السباحة، على رفع يدك، ستتقطع أنفاسك، وتهوي إلى

القاع. أقسم بحياتك ليس هذا اختلاقاً، إنها الحقيقة الناصعة! إنه شعور سامٍ جبار صادر عن قوة داخلية ذاتية. لعلنا نتشبع به مع حليب أمهاتنا. إنه يغفو في حنايا عقلنا الباطن وقلبنا، ويندلع حين يحس الإنسان أن عليه أن يبقى أبداً طاهر النفس، إنساناً حقيقياً.

هاهنا، على الحدود، يسيطر علينا هذا الشعور سيطرة مطلقة، شعور مرهف بلا حدود. كل فرد هنا متيقن حتى درجة الإشباع أنه مالك وحارس وحافظ لكل ما يقوم هاهنا، لكل ما يحيا ويتنفس داخل المنطقة التي تحددها الأعلام الثلاثة، يحدوه الشعور بأنه الأمين على هذا الشيء المبهم العزيز والحبيب لدرجة الإيلام، ذاك الذي يدعى الوطن.

عالمنا، يا عزيزي سارغيس مليء بالمتناقضات. يبدو أن على الإنسان أن يفرح فحسب ـ كل ما حولنا هادئ، لا أحد يخترق الحدود، تمضي الأيام بسلام ورتابة.. تستلقي على الرمال الدافئة، تتنعم، تحدق في المدى الأزرق وفي حركة البحر السرمدية.. يتنفس البحر، كما لو كان حيّاً، ويئن، يرتطم بشيء ما. يتراءى لك كأنك تسمعه وهو بدوره يسمعك.. والأرض فيما حولك تحيى، تتنفس، تخضوضر، تتزين بوشيٍّ أسطوري من الأزاهير، تنام وتستيقظ. يتراءى لك وكأنك تسمعها وبدورها تسمعك.. والسماء أيضاً فوقك تعيش عالمها السحري حيث تقوم فيها الآلاف المؤلفة من النجوم بتأدية رقصاتها الاحتفالية، ظاهرة حيناً ومختفية أحياناً خلف الغيوم المنفوشة. والقمر يسبح ببطء ومهابة ويشع قوس القزح متألقاً بشتى الألوان ممتداً عبر قبة السماء كأنما يسعى لاحتضانها.. ويتراءى لك إنك تسمع صوت السماء، تسمع سيمفونية الأثير الرائعة، ويلعلع صوتك المرح البهيج متجهاً نحو الشمس والسماء والنجوم..

تخطر لي أحياناً فكرة غريبة: ماذا لو كانت الأرض جسماً حيّاً؟ ماذا لو كانت مثلنا ترى وتسمع، تحب وتكره، تفرح وتحزن ؟ ونحن، دون أن ندري بذلك، نمشي عليها ونجوب أرجاءها، نحفر فيها ونعزقها، نفلحها، نقلقها ونزعجها.. ماذا لو نفد صبرها واهتزت فجأة ونفضت ما عليها.. عندئذٍ تتهدم المدن والقرى وتختفي الشعوب والحضارات. وبعد أن يثوب الناس إلى رشدهم يبدؤون الحفر من جديد وتعذيب الأرض المنهكة إلى أن يشب المارد من جديد وتتحول ثمرات الجهد الإنساني إلى رماد. وهكذا دواليك.. ربما كان الأمر كذلك! لأية درجة عظيم هو الإنسان في تفكيره وخواطره ؟

أقف على القمة، أرفع يدي نحو السماء، نحو الشمس فيخيل إليّ أن الشمس إكليل لرأسي. أتطلع نحو الأسفل، إلى الغيوم السابحة تحتي فإخالها غباراً أثارتها قدماي. أنظر إلى رحابة البحر اللامحدودة فأحسه قطرة على راحتي. تعصف الرياح فأحسبها تلويحة من جناحي. أخاطب الإله فتردد الوديان والفجاج صوتي.

وما دام الإله قد خلق الأرض وما عليها، يعني أنا إله، مبدع العالم والحياة وكل ما هو على وجه الأرض - ثمرة لجهدي ودمي وفكري.. في تلك الدقائق تشعر بسعادتك وتتمنى أن تدوم تلك السعادة إلى ما لا نهاية.. وتلك السعادة بالذات هي التي تسيطر عليّ الآن، وأنا أقف على مركز الحراسة. بماذا يفكر، إذا، هؤلاء الفتيان ؟

- بماذا تفكر يا شيربينا ؟ - توجهت بسؤالي إلى شيربينا الذي كان يجلس قربي على كرسي وطيء ويلمّع بكمه أخمص بندقيته الرشاشة.

- ماذا أقول.. هكذا.. لا أفكر بشيء!. - أجابني دون أن يرفع رأسه.

- ومع ذلك ؟

- وليس ثمة ما يستحق التفكير به.. قريباً ستنتهي مدة الخدمة، وتستطيعون أن تحسبوا أن هذين العامين قد ذهبا سدىً ؟..

- ولماذا سدىً ؟

- وأية فائدة منهما ؟ لا طلقة، لا خارق للحدود.. يحدث أن نهرع منهمكين مستنفرين.تنظر فترى دبّاً أو ابن آوى وأحياناً مجرد غراب حطّ فوق عمود الهاتف... هو ذا عملنا كله!

- لكنك خلال هذين العامين عرفت الكثير وتعلمت الكثير، اكتسبت العديد من الأصدقاء. وهل هذه أشياء قليلة ؟

- من أجل هذا كان يكفي أن أقصد المنطقة لمدة شهرين، مثلما تفعلون أيّها الرفيق الملازم!..

- نعم، لكن لو فكر الجميع كما تفكر، مَنْ سيحمي الحدود؟

- سألته وأنا أجهد لأحمّل سؤالي أقصى شحنة فكرية.

- أنا لا أقصد هذا أيّها الرفيق الملازم. على كل فرد أن يدافع عن الحدود، وهذا ما نقوم به بإخلاص، مجرد أن الجو ممل هاهنا، ما من حوادث..

- وهل هذا أمر سيء ؟

- لا أدري، ربما كان حسناً، لكنني، شخصياً، أفضل لو..

- لو ماذا ؟

- لو وقع خارق للحدود.. لكنت.. إلى أين تتسلل أيّها الكلب ؟! ماذا تظن أيّها السافل ؟ أو تظن الاتحاد السوفييتي إحدى الحانات ؟.. خسئت! ها هنا أقف، أنا بترو شيربينا.. سأريك أيّها القذر. خذ — واحد، اثنان — واحد، اثنان، خذ!.. هذا ما أفهمه أيّها الرفيق الملازم.. وإلا ستعود إلى الديار، وبماذا ستحدث الناس ؟ عن أيّة أعمال بطولية ؟ الذكرى الوحيدة التي أحملها عن الحدود ـ ندبة فوق أنفي نتيجة استعمالي للمنظار.. ها أنتم، أيّها الكاتب، ستعودون قريباً إلى المدينة فعمّ ستكتبون ؟

- كيف ـ عمّ ؟ عن شيربينا الذي يخدم على الحدود. عن شيربينا الإنسان الطيب القوي المعافى الشريف الذي إن ضحك اهتزت الرواسي وانشقت الجلاميد وفاضت الأنهار عن ضفافها، وإن غضب انقشع الصقيع واختبأت الشمس وراء الغيوم، وإن خبط بقدمه ــ انشقت الأرض.. وسأكتب: إن عدواً لا يجرؤ على اختراق الحدود بعد أن يرى شيربينا، لا يجرؤ على اجتياز الحدود ما دام الإمساك بالجاسوس أضحى حلماً من أحلام شيربينا.. هل هذا بالأمر السيئ ؟

ابتسم شيربينا:

- حسن ؛ لعل هذا يصح على بارخومنكو أكثر مني.

- وسأكتب أيضاً عن بارخومنكو.

- ربما يخافه الجواسيس فعلاً ؟

- وهل تشك في هذا؟!

نظر إليّ شيربينا بشيء من عدم الثقة ثم طوّح بيده وراح يتابع عمله.

- دجاكيلي، وأنت بمَ تفكر ؟ - سألت دجاكيلي الذي كان ينظر بعيداً بثبات ويسجل شيئاً ما في سجل المناوبة.

- أفكر: علام يختبئ هذا الأحمق، فهو يعرف جيداً أنني أراه؟!

- عمّن تتكلم ؟

- عن ذاك العسكري، هناك، ألا ترونه ؟ - أشار برأسه وأغلق دفتر المناوبة صافقاً إياه.

بارخومنكو، كعادته، في الأسفل. إنه يتفحص الأجهزة. بماذا يفكر هو أيضاً ؟ وحتى دجاكيلي، هل قال الحقيقة ؟ كلٌ منهم يفكر بخصوصياته الدفينة. يجلسون على المرصد أياما طوالا حاملين منظارهم، يتطلعون فيه ويتطلعون إلى الجهة الأخرى.. كل كلب هناك أو دجاجة أو شجرة تذكرهم بديارهم، ببيوتهم. ولذا هم يحزنون. إنني أفهم شيربينا.

أجل، الكتابة عن الحدود أمر شاق، ففتح عشر آبار ارتوازية أهون من سبر أعماق هؤلاء الشباب الرائعين...

اشتعل المصباح الأخضر في زاوية منبسط الدرج. رفع دجاكيلي سماعة الهاتف.

- أيها الرفيق الملازم، الرائد يطلبكم!

- أسمعكم، أيها الرفيق الرائد!

- أيها الملازم، جاءتنا مجموعة سياحية من المعمل. أرجو أن تتولوا أمرهم. فما من وقت لدي.

- أنا قادم!

- شكراً. هم الآن أمام المفرزة - ووضع تشخارتشفيلي السماعة.

أبلغت شيربينا ودجاكيلي:

- تهيأا، أيها الشابان، سأحضر إليكما سيّاحاً!

قال شيربينا متذمراً:

- لا عمل لديهم.. لقد مللتهم!

نزلت عبر السلم وأسرعت إلى المفرزة. كان ينتظرني في الفناء عشرةٌ من السيّاح. أحد الرجال كان، دون شكّ، المدير.

كانت ثمّة سيّدة ممتلئة تستند إلى ذراع المدير وتتهامس بشيءٍ ما مع صبي كان يقف قريباً منها. وكانت هناك امرأة أخرى أصغر سناً، شقراء تحمل آلتي تصوير ومذكّرة، تتطلع فيما حولها بفضول. ما أن تقدّمت إلى الضيوف وحييّتهم حتى التقطت لي صورتين عبر الكمرتين على التوالي.

مدّ لي السياح أياديهم وقدموا أنفسهم ما عدا المدير الذي قدّم نفسه بشكل رسمي ذاكراً اسم عائلته.

قلت للشقراء:

- أيّتها المحترمة، لا بدّ من أن تتركي آلتي التصوير ودفتر المذكّرات هاهنا.

وفي الحال وضعت عدتها على العشب دون أن تخفي قلقها.

طمأنتها:

- لا تقلقي، لن يضيعوا.

- ما لكم! ليس لهذا السبب.. أخشى أن تلحق الرطوبة بها.

- كوني مطمئنة!

دعوت السياح للحاق بي.. بدأت بالقيام بتأدية مهام الدليل؛ بعد أن اقتربنا من خط الحدود:

- يبدأ تاريخ مفرزتنا في اليوم الأول لتأسيسها. وهي تشكل نقطة أمامية. لقد برّز الكثير من حرس الحدود في عملهم، في حماية حدود الدولة. منذ عام 1941 وحتى تاريخه ألقي القبض على 248 خارقاً للحدود، من بينهم (86) جاسوساً من أخطر عملاء المخابرات الأجنبية.

- وماذا يريد هؤلاء السادة؟ - تساءل المدير بصرامة.

- خيّبهم الله! ـ عقبت زوجته.

- يسير خط الحدود ـ تابعت حديثي ـ وفق خطوط الطول والعرض، ونتيجة لذلك، وكما ترون، تجد أخاً يحيا في جهة من الحدود والأخ الآخر في الجهة المقابلة.

- ألا يتعطشون لرؤية بعضهم البعض؟ - قال أحدهم متسائلاً.

- وكم يشتاقون!

- ألا يرغبون بالنزوح إلينا؟

- يرغبون كثيراً. لكن لا نسمح لهم.

- عبثاً! ـ قال المدير بلهجةٍ وعظية ـ فليأتوا إلينا، فالحمد لله ثمة ما يكفي لطعامهم وشرابهم!

- تعلمون.. نحن بدونهم لا نجد مكاناً كافياً لنا، وفي هذه الحال

سنضطر للنزوح إليهم بأنفسنا.

- لا تمزحوا أيّها الرفيق! – استاء المدير.

- وبالمناسبة – تدخلت الشقراء – افترض مثلاً أن أحداً هرب من هذا المكان إلى هناك. أتستطيعون اللحاق به ؟

- نستطيع.

- وإذا لم تستطيعوا ؟

- نطلق النار عليه.

- لكن، سيكون ضمن أراضي الغير! هل تملكون الحق في ذلك ؟

- فعلاً، لا نملك الحق. ومع ذلك سنطلق النار.

- وإذا ما حدث هذا عن طريق البحر ؟

- ماذا عن طريق البحر ؟

- لو قلنا أن أحداً دخل البحر وسبح إلى هناك. هل سيصل بسرعة إليهم ؟

- يتعلق هذا بنوعية السباح. قد يصل خلال خمس دقائق!

- وكيف ستمسكون به ؟

- سنطلق عليه النار.

- وإذا هرب ليلاً ؟

- إن كنت تريدين الذهاب إلى هناك، أيّتها المحترمة، ما من ضرورة للهرب والسباحة تحت وابل الرصاص، تستطيعين شراء بطاقة بمئة روبل وهنيئاًمريئاً!

- مستحيل! أمر لا يُعقل! ـ صاحت الشقراء ـ ولماذا سأسافر إلى هناك ؟ أنا.. بالنسبة إليّ.. راتبي كافٍ ووافٍ، وعموماً..

توجهنا نحو المرصد. التقينا بـ ((بارخومنكو)) الذي استطاع بجهد

جهيد أن يهدئ الكلب الضخم الذي حلّ محل (تانغو). سألته:

- حسن، هل أنت في وفاقٍ مع الكلب ؟

- لا بأس، إنه يتعوّد. فاليوم لم يعض ولا مرة! – ابتسم بارخومنكو.

- أيمكن أن أضع يدي في فمه ؟ ـ تساءل ابن المدير وهو يقترب من الكلب.

- أن تضع يدك، هذا ممكن، لكن من غير المحتمل أن تستطيع إخراجها ـ أجاب بارخومنكو.

امتقع لون زوجة المدير وأخذت الولد الذكي من أذنه وأبعدته.

اقتربنا من المرصد. صرخت:

- دجاكيلي! افتح غطاء الكوة ثم قلت للسياح ـ اصعدوا من فضلكم ثلاثاً ـ ثلاثاً!

صعد المدير وزوجته وابنه ثم الشقراء وصعدتُ أنا. استعد دجاكيلي:

- أيّها الرفيق الملازم!...

- استرحْ دجاكيلي.. أعطِ المنظار للرفاق واشرح لهم: كيف ولماذا ؟

- أمامكم على اليمين يبدو مسجد بمئذنته. منذ ساعة مضت اعتلاها الملاّ وأذّن..

- كيف تسنى له أن يصعد إلى هناك ؟ - دُهشت زوجة المدير.

- عبر السلم ـ شرح لها دجاكيلي.

- أجل، من ارتفاع كهذا ستؤمن بالله دون إرادة منك! ـ تنهّدت الشقراء.

- بالمناسبة، كلما ارتفع الإنسان أكثر كلما قلّ إيمانه بالله! ـ عقّبَ دجاكيلي على ملاحظتها.

- أحقاً ؟

- بالضبط! فمثلاً بارخومنكو يتجوّل باستمرار على الأرض، ولذا فهو يصلي مع الملاّ.. بينما نحن وشريبينا الواقفان أبداً على المرصد لا.. لا نأبه للملاّ!

- فعلاً! – أكّد شيريبينا ذلك.

- وهل يؤذن الملاّ باتجاهنا ؟ - تساءلت زوجة المدير.

- طبعاً!

- وهل يملك مثل هذا الحق ؟ - سأل المدير.

تطلع شيريبينا ودجاكيلي إليّ ذاهلين. فغمزتهما.

- طبعا، هو لا يملك هذا الحق، ومع ذلك فهو يؤذن! ـ أجاب دجاكيلي.

- وما هي الإجراءات التي تتخذونها ؟ - قال المدير مستاءً.

- إجراءات ؟ - تساءل شيريبينا ـ وأيّة إجراءات تنفع معه ؟ بالأمس القريب أرسلنا مذكرة إلى الحكومة التركية، طلبنا فيها أن امنعوا "مولا"كم من التوجه نحونا في أثناء الآذان، أو في الحالة القصوى، عصّبوا له عينيه... فأجاب الأتراك أنه على الرغم من علاقة حسن الجوار التي تربطنا بهم إلا أنهم لا يستطيعون تلبية مطلبنا، فالملاّ رفض رفضاً قاطعاً الصعود إلى المئذنة معصّب العينين. ولذا اقترحوا علينا أن نقيم، إذا شئنا، صلاة معاكسة ينفّذها خورينا الأرثوذكسي.. هذا ما أجابوا به...

مال المدير نحو شيريبينا بريبة. عضّ دجاكيلي على شفته ورفع المنظار إلى عينيه وبسرعة أشحت بوجهي.

- هناك في ذاك البيت ـ بدأ دجاكيلي حديثه ـ يعيش المختار، وفي ذلك البيت يعيش المعلم.. ألا ترون هناك امرأة تمشي ؟ إنّها زوجة المعلم..

- بالمناسبة، كيف يتعاملون مع النساء ؟ - تساءلت زوجة المدير.

- بشكل فظيع! ـ أجاب دجاكيلي ـ فالمعلم، هاهنا، لا يملك ثيراناً، لذا فهو يربط زوجته إلى المحراث.. أول أمس كان يوم القبض. عاد المعلم إلى بيته ثملاً، فضرب زوجته بالحبل.. وماذا يفعل بالتلاميذ !! عند أقل خطيئة يقطع لهم آذانهم!..

- تُرى، أ لا يعاقبونه على ذلك ؟ - صاحت زوجة المدير وضمّت ابنها إلى صدرها من باب الحيطة.

- أيّ عقاب ؟ يعطونه ليرة مقابل كل أذن! – قال شيربينا وابتسم.

وأخيراً أدركت الشقراء أن الشابين يسخران منهم، فاستأذنت في الهبوط. وتبعها الآخرون.

- شيربينا، أليس لساناكما طويلين أكثر من اللازم أنت وصديقك دجاكيلي ؟ - سألته بعد أن تأخرت عن الضيوف قليلاً.

استعد وقال:

- حاضر، أيّها الرفيق الملازم!

- ألا تعلم أنه لهذا السبب يمكن زجكما في السجن ؟

- أعرف، أيها الرفيق الملازم!

- وأنت يا دجاكيلي، أتعرف هذا ؟

- كيف لا أعرف أيّها الرفيق الملازم وقد زرناه مرتين لهذا السبب!!

ماذا يمكنك أن تقول! طوّحت بيدي، وأسرعت للحاق بالسياح..

أتذكر يا (سارغيس)، أنني عام 1955 اشتغلت شهراًواحدا في منجم (تكفارتشلسكي) يومها أيقنت أن لا مهنة في العالم أشق من مهنة العمل في المناجم. وعام 1962 رافقت رعاة (تسنوري) للرعي الشتوي، يومها تراءت لي أيام المنجم من أيام أهل الجنة. والآن أقول لك:

الرعي الشتوي هو المأوى الإلهي بعينه، إذا ما قورن بالخدمة على الحدود! خفير الحدود لا ينام، يتجمد برداً ويحترق قيظاً. وكثيراً ما يتعرض للآلام.. أما أنا وأنت، نكتب سطرين ونصف فنشمخ بأنفسنا متخيلين أن العالم ملك أيدينا! أعطونا مكافأة؛ اكتبوا عنا مقالات تقريظية! اجروا معنا مقابلات، أقيموا لنا الذكرى السنوية، أعطونا بطاقاتٍ للراحة، هيئوا لنا مناصب مرموقة ثم احجزوا لنا أخيراً مكاناً في ((متاتسميندا))[1] أما حارس الحدود فلا يطلب شيئاً. يؤدي عمله بصمت، يقوم بمآثر بطولية ويصمت. يمدحونه، فيقول:

- أخدم الاتحاد السوفييتي!

يهب في أي وقت من أوقات النهار والليل. يلبس ثيابه ويمضي. هل سيعود؟ هذا ما لا يدريه أحد. لم يكن يجيد تسلق الصخور، تقتضي الضرورة فيتسلقها. فيما مضى لم يسبح ـ تقتضي الضرورة فيسبح.. خفير الحدود كائن فريد تماما، دخيلته مفعمة بشعور وحيد، طاغ، مسيطر ـــ حب الوطن والأرض والشمس والبحر والأعشاب والأشجار وحقول القمح وعرائش الكرمة والقصور والأطلال.. خفير الحدود يفكر ويتنفس، ينام ويستيقظ وفكرة وحيدة تشغل باله ـ فكرة الواجب المقدس الملقى على عاتقه ومسؤوليته المقدسة ـ الدفاع عن الوطن. هو ذا حارس الحدود. يا له من إنسان، ذاك الرائد تشخارتشفيلي!

اليوم وصلت زوجة تشخارتشفيلي من مدينة سوخومي ـ امرأة وسيمة متواضعة.

دعاني الرائد لتناول كأس من الشاي. أجلس في غرفة تشخارتشفيلي غير الكبيرة، وبمتعةٍ أتنشق عبير الشاي. ما هي السعادة، على أية حال؟ علها راحة منزلية، دفء أسري... أتطلع إلى

---

[1] جبل في تبليسي يقع في قمته مدفن لمشاهير الكتاب وأرباب الثقافة .

السرير القائم في الزاوية المغطى ببطانية مزركشة فيستهويني النوم دون إرادة مني.

يجلس تشخارتشفيلي مستغرقاً في تفكيره، محركاً الشاي بحركة رتيبة. يصمت. هو أبداً يصمت، ما لم يتكلم أحدٌ معه. زوجة الرائد تجلس في الزاوية الأخرى وقد شبكت يديها فوق ركبتيها، هي، أيضا، تصمت وتتتبع حركاتنا. عيناها جميلتان، حزينتان بشكل مدهش!

قلت راجياً إياها:

- نينا سيرغييفنا، تفضلي إلى الطاولة، إن سمحتِ!

أجابتني بصوت خافت:

- لا بأس. سأجلس هنا، أما أنتما فتفضلا، أرجوكما.

- نينا، تعالي إلينا! ـ قال تشخارتشفيلي.

- سأحضّر القهوة الآن وأعود ـ قالت ذلك وخرجت.

- أشعر بالشفقة عليها.. ـ تنهّد الرائد ـ أعيش معها منذ خمسة عشر عاماً. أظن أنني لست بالزوج السيئ. أعطيها راتبي حتى آخر كوبيك، فأنا هنا لا أحتاج للمال. كل عام أبعثها للاصطياف ببطاقة استجمام، سافرت إلى الخارج ثلاث مرات.. أثاث البيت ريجسكي[1]. وابنتي تدرس في المدرسة الموسيقية.. وأنا لا أشرب الخمر، ولا أدخن.. العام الماضي أهديتها ثوباً في عيد ميلادها.. عانقتني وبكت.. سألتها: علام تبكين؟ لزمت الصمت ودموعها: سق.. سق.. يبدو أن النساء يحتجن شيئاً آخر إضافة إلى الزوج والأمتعة وما شابه ذلك.. لكن ما هو؟ يا للشيطان! أهو الحب؟ فأنا أعبدها. وأي شيء آخر؟ لا أعرف، لا أفهم.. أما هي فلا تنبس ببنت شفة. تقول أنها سعيدة! لكنني أرى أن ثمة أمراً ما، ما هو بالذات؟ - هذا ما لا أفهمه حتى لو ذبحتموني! ـ

---

[1] نسبة إلى مدينة ريغا – المترجم.

صبّ تشخارتشفيلي الكونياك، دقّ كأسه بكأسي ـ ماذا تعتقدون ؟

- ماذا أقول لكم، أيّها العزيز أليوشا.. ـ هززت كتفي واحتسيت جرعة ـ منذ نشوء الخليقة وكتّاب العالم يكتبون عن هذا. لكنهم يضيعون في متاهات. إلى أي شيء تحتاج النساء ؟ ماذا يُدعى الشيء الذي ينقصنا أنا وأنت ؟ أحقاً أن ما يبدو لنا حباً هو الحب ؟ لم يجب أحدٌ بعد على هذه الأسئلة. فبماذا أستطيع أن أجيبك ؟

دخلت نينا سيرغييفنا الغرفة حاملة قدحين من القهوة التركية يتصاعد البخار منهما.

- تفضلا.. أرى أنكما لا تشربان الشاي، لعل القهوة ستعجبكما؟

- اجلسي معنا! ـ أمسك تشخارتشفيلي بيد زوجته وجذبها إليه ثم احتضنها من كتفيها بشدة.

- أليوشا! هل جننت ؟ - انتفضت المرأة وتملّصت من أحضان زوجها.

- أترى يا فلاديمير ؟ - وابتسم تشخارتشفيلي بارتباك ـ ثمة ما ينقصنا!

- عزيزي، ستبقى أية امرأة، حتى لو كانت الأكثر بساطة وبدائية، ستبقى دائما لغزاً عصياً على الرجل. إنها خارج نطاق إدراكنا، ولذا لن نتفلسف.. في صحتك يا(نينا سيرغييفنا)! - وجرعت الكأس دفعة واحدة.

- شكراً! ـ قالت المرأة ورفعت كأس زوجها متمهلةً ثم عبّته بسرعة، ووضعت الكأس فارغة أمام الرائد وتابعت قولها بشيء من الاعتذار - الشراب محظور عليه!

قلتُ:

- أيّ حظر! كأس واحدة..

- حارس الحدود كالكلب البوليسي ـ الكحول تخمد حاسّة الشم لديه! - وابتسمتُ. نظرتُ إلى الرائد مستفهماً. فقال راجياً:

- اليوم مسموح. صبّي لي يا نينا، سأشرب نخب صحتك!

صبّت الزوجة.

- أيّها العزيز فلاديمير! ـ بدأ الرائد حديثه ـ أريد أن أشرب في صحة زوجتي. إجمالاً لست ماهراً في قول الأنخاب، خاصة، في اختيار الجميل منها، لكن.. تعرفت على نينا ذات يوم حافل، في أمسية تخرجنا. كانت مدرستهم تطل على كليتنا أو بالعكس، لم أعد أذكر. باختصار، في ذلك المساء، وحين علقنا لأول مرة الكتّافيّات التي تحمل نجمة ملازم، جاءتنا فتيات المدرسة بمراييلهن الرسمية الخمرية اللون وسراويلهن البيضاء وبشرائط شعرهن الزهرية. كنّ كثيرات. طبعاً بدأ الرقص. كانت أوركسترا كليتنا تتولى العزف. دعوت نينا لرقصة الفالس.. وبعد مضي شهر صرحت لي بأنها مستعدة للذهاب معي إلى أقصى الدنيا.. تزوجنا. أثار أبو" نينا " شجاراً سمعت به الدنيا، حتى أنه دعاني للمبارزة. حضرت إلى مكان المبارزة حاملاً شعار " رامي فوروشيلوف "[1] على صدري.

لا أدري، أخافَ الأب أمْ كان ثمة سبب آخر، لكنه أحجم عن إطلاق النار. وتصالحنا. ومنذ ذلك الحين مضت خمس عشرة سنة.. أما الآن فسأحدثك عن أمر آخر...

منذ عامين ظهر في قريتنا رجل ماهر، وأية مهارة! يدان ذهبيتان! قاول أحد الكولخوزيين على بناء بيت. وبناه. تعجّبتْ القرية! ثم توالت وتوالت البيوت الجديدة كلها من صنع يديه. طالب مجلس الكولوخوز بالإبقاء عليه وتخصيص قطعة أرض له، واتخاذ الإجراءات القانونية

[1] مدينة في حوض الدومباس – المترجم .

المعتادة. ـ أقسم إن قلبي لم يطمئن إلى ذلك الإنسان! عيناه لم تعجباني ـ خضراوان، عينا أفعى. كان يبتسم بشفاهه فحسب، وتظل عيناه باردتين كأنهما ميتتان. لكن الكلمة العليا كانت لإرادة الشعب. عمل طوال العام بصبرٍ وجلد[1]. بنى ودهن وزخرف وأصلح.. شغفت به القرية.. جاء في إحدى الأمسيات:

- أيّها الرفيق الرائد، بالأمس أقمت الأساس لبيت ((فريدة)) لاحظت ثمة ثغرة في نهاية الدار، تحت السور، يستطيع الإنسان عبورها بسهولة. يبدو أن المياه قد شكلتها. انظروا إليها من فضلكم، مروا بإغلاقها! فالشيطان قد يعبث بأي شيء، وهذا ما تعلمونه جيداً.. وظلّ يبتسم ابتسامته الثعبانية. طبعاً قصدت المكان وكانت الثغرة، فعلاً، واسعة فاتحة شدقيها. طبعاً رممناها بسرعة، وأصدرت أمراً عسكرياً يتضمن شكره..

في الخريف، وبعد أن نضجت ثمار الماندرينا، أصبح بيت فريدة جاهزاً باستثناء اليسير ـ اليسير كدهن الأعمدة.

قصدتها، قلت فلأنظر كيف غدا بيت (فريدتنا). طبعاً أنتم تعلمون أن فريدة امرأة عالية الأخلاق، ملاك خالص، ليس إلا. لكن ماذا هناك ؟ أرى (المعلم) على الشرفة، يجلس ويحتسي الفودكا، وفريدة تجلس بجانبه تحوك بالإبرة. يستقبلني المعلم كما لو كان ربّ البيت:

- أوه، أيّها الرفيق الرائد! تفضلوا واجلسوا! أنلعب الشطرنج ؟

جلست.

- أرجو أن تتفضلوا، أيّها الرفيق الرائد! ـ وصبّ لي الفودكا ـ فلنشرب نخب بيت فريدة الجديد.

---

[1] في الأصل: عمل كثنائي السلك. المترجم.

شربت. ارتكبت حماقة كبيرة. كان عليّ ألا أشرب، لكنني شربت!

- أنلعب أيّها الرفيق الرائد ؟ أتريد الأسود أم الأبيض ؟

- الأسود!

أنا لا أجيد لعبة الشطرنج كما يجب. قلت سألعب بالأسود، سأقلد خطوات الأبيض. في الخطوة العاشرة تبين لي أنني أخسر. تملكني الحنق. أحقاً سيغلبني هذا الأفعى ؟ - فكرت بذلك - لن يكون هذا أبداً! لكن هل تصدق ؟ حدثت المعجزة وربحت الدست الأول ثم أردفت به تسعة أُخر. بقي صامتاً، لكنه كان يتطلع إلى الساعة من وقت لآخر. في الثانية عشرة إلاّ عشر دقائق بدأنا دستاً جديداً. في الدقيقة الخامسة أخذ وزيري وفي السابعة أخذ (الرّخ) وفي الثامنة أخذ الحصان وفي العاشرة تلقيت ((مات)) وأيّ مات! لم أدرِ أين أخبئ نفسي من الخجل!

- فلنلعب أيضاً! - اقترحت عليه.

- عشرة - واحد لمصلحتكم أيّها الرفيق الرائد! - قال وهو يقف - غداً نتابع إن شئتم.. تصبحون على خير!

- تصبحون على خير يا (ياكو باشفيلي)!

ثم قال للأرملة:

- فريدة. سآتي غداً باكراً. أترك عندك العدّة.

خرج فخرجت في إثره. افترقنا عند النبع. نظرت إلى الساعة: كانت الواحدة إلا عشر دقائق - وقت تبديل العناصر.

- تصبحون على خير! - مرة أخرى ودّعني واختفى في الظلمة.

((لماذا تركته ؟ - كان صوت داخلي يقول لي - الحقْ به، لا يجوز الاطمئنان إلى رجل له مثل هاتين العينين الثعبانيتين!..))، ((تصرّفْ

بهدوء أيّها الرائد ـ سمعتُ صوتاً آخر ـ لقد فتلت لك الفودكا رأسك! الحذر هو واجبك، لكن لا يحق لك أن تبالغ!..)).

عدتُ إلى المفرزة، وجهت العناصر ثم (عرّجت) إلى البيت.

- نينا ـ قلتُ لزوجتي ـ أنا لا أثق بهذا الـ (ياكوباشفيلي)، أتعرفين، قد خسّر نفسه عمداً أمامي

عشرة دسوت ثم أمات شاهي خلال عشر دقائق مستهزئا بي.

- نمْ ـ قالت نينا ـ، حيث الربح لا بدّ من وجود الخسارة!

خالفتها للمرة الأولى في حياتي. نقلتُ مسدسي من جرابه إلى جيبي وصممت على الذهاب إلى الحدود..

صبّ الرائد لي كونياكا واحتسى هو بقية القهوة الباردة.

- اليوشا ـ ما من ضرورة لذلك!.. توسّلت الزوجة.

- رويدك، نينا، لأول مرة أقصّ هذه الحكاية على أحد. أريد أن يعرفها فلاديمير حتى النهاية.

- ما من ضرورة يا حبيبي! ـ كررت المرأة.

- ثمة ضرورة! ـ أجاب الرائد وأدركت أن الكلمة الأخيرة له ـ ما إن تناولت البيل " الفنار " حتى دخل المناوب راكضاً: ((أيّها الرفيق الرائد ثمة جهاز لاسلكي يعمل في بيت الأرملة!)).

خضّني النبأ كضربة صاعقة، ((نينا، إنه هو!)) ـ صحت وخرجت بسرعة.

كانت المفرزة كلها على أهبّة الاستعداد. الآثار المتبقية في نهاية فناء (فريدة) تشير إلى هروبه.

- الصواريخ المضيئة! ـ صرختُ فأنار الوهج الأبيض والأحمر نواحي الحدود. اندفعت إلى الأمام والمسدس في يدي. وفي الحال رأيت رجلا هاربا. أجل، كان هو. أفرغتُ رصاصاتي السبع وأنا أرتجف وأكاد أختنق غيظاً. تابع جريه ولم تعد تفصلني عنه سوى خمسة عشر

متراً لا أكثر، لكن لم يتبقَّ معي رصاصة لأقتله، تباً له! أو لأقتل بها نفسي. تابعتُ الجري وأنا أرى الشق يضيق فيما بيننا. وحين شارفتُ على الإمساك به، التفت نحوي وصوّب مسدسه.

فجأةً دوّت رشقة قصيرة من بندقية رشاشة. أمسك ياكوباشفيلي بخاصرته ثم اهتزّ. وتبعت الرشقة الأولى رشقة أكثر طولا، فسقط. استندتُ إلى الشجرة وأغمضتُ عينيّ.

- أليوشا! اصحَ أليوشا! أليوشا، اصحَ! - كانت كلمات ما تطرق في أعماق وعيي كما المطرقة.

بعدئذٍ سحبتُ الجثة عبر الطريق الزراعي. كان أحد ما يسير في إثري متسلّحاً ببندقيته.. ولا أذكر غير ذلك..

صمت الرائد. كانت نينا سيرغييفنا تجلس خافضة رأسها. فقلتُ:

- ن.. نعم، يمكن القول أنّ أحداً ما قد أنقذك في اللحظة المناسبة!

- هذا ((الأحد – ما)) كانت نينا!

نهضت نينا سيرغييفنا، وخرجت من الغرفة بسرعة.

- ومنذ ذلك الحين وهي تتعذب. تقول ((أنا قاتلة!)). يعزيها أمر وحيد أنها قتلت' منقذةً إيّايّ.

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

- اتضح أن ياكوباشفيلي (وطبعاً لم يكن اسم عائلته الحقيقي) كان جاسوساً خطيراً..

قلدونا (أنا ونينا) وساماً.. وهكذا أريد أن أشرب في صحتها.. أترى أمور الحياة كيف تجري ؟ يوم العرس وعدتُ زوجتي بجبالٍ من ذهب وأنهارٍ من لبن، وها هي الآن لا يمرّ عليها يوم دون أن تبكي! تنهض ليلاً من الفراش!.. ولا أدري كيف أعلّلها، نينا! - ناداها الرائد - تعالي إلى هنا، فلاديمير غافريلوفيتش يستأذنك! دخلت نينا سيرغييفنا

وجلست في الزاوية ونظرت إليّ بعينيها الحزينتين الجميلتين المليئتين بالدموع. نهضتُ.

- نينا سيرغييفنا المحترمة.. أنا سعيد.. أنا أفخر وأعتز.. اليومَ يوما مباركا.. أتسمح لي، أيّها الرائد، أن أقبّل زوجتك قبلة أخويّة؟

شعرت أنّني أبدو مضحكاً. ابتسم تشخارتشفيلي وأومأ برأسه، فاقتربت من نينا سيرغييفنا وأمسكت بصدغيها الحارين وقبّلتها في الجبين. ثم رجعت إلى مكاني وأشعلت سيجارة. ابتسمت المرأة إلا أنّ عينيها كانتا، كما في السابق، مغرورقتين بالدّموع.

تهيّأت للخروج:

- إلى اللقاء!

- ليلة سعيدة! ماذا قلت لي؟ كل امرأة حتى الأكثر بدائية ستبقى لغزاً بالنسبة إلى الرجل؟

أجبته:

- نعم.

* * *

الغرفة التي أسكن فيها كانت تستعمل، سابقا، غرفة خدمات. هنا كانت تكوي الغسالة البياضات والشراشف وأغطية المخدات. الجنود يكوون ملابسهم بأنفسهم. لم يطرأ تغيير يُذكر في الغرفة بعد مجيئي. وضعوا فيها سريراً عسكرياً وأريكة قديمة مخلخلة. بقيت المنضدة الطويلة والتي تحمل آثار المكواة الحامية. حملت معي أوراقا كافية، لكن تشخارتشفيلي أرسل إليّ منها رزمة ضخمة. حين أتطلع إلى جبل الورق المتشكل على المنضدة لا أتمالك نفسي عن الابتسام. عند كل زيارة يحدق الرائد في الكومة ـ هل تنقص أم لا؟ ومخافة ألاّ أكدره، كنت آخذ منها بين العشرة والخمس عشرة ورقة يوميا

وأخبّئها. إلى متى ؟ فاتحاد الكتّاب بأجمعه يعجز عن استعمال هذه الأوراق في شهرين... وعليها نفسها أكتب إليك يا عزيزي سارغيس جالساً على رأس الطاولة، كقوّال أنخابٍ تخلى عنه ندماؤه..

.. الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. أفتح الشباك فتقتحم الغرفةَ أنفاسُ الليل الجنوبي البديع. الهدوء يخيّم على كل شيء. رقد البحر، والسماء مزروعة بالنجوم. ومن بعيد تتناهى طبطبة محرك نقّال رتيبة ـ المحرك الذي يغذي البروجوكتورات(المصابيح الكشافة).

يشعشع البروجوكتور الرئيسي كعين إعصار هائل. أشعته، الآن، تترامى على امتداد الشط مضيئةً كلّ حجر فيه، ثم تتحرك، دونما استعجال، نحو الأبعد فتغطي سطح البحر الأملس بملاءة بيضاء. كانت منطقة المياه، التي اقتطعتها الأنوار من صفحة البحر المظلمة التي لا يحدها بصر، تتلألأ غارقةً في الضياء. بعدئذٍ كانت الأشعة تنبسط على امتداد الشريط الحدودي، كأنّ أحداً خفياً شقّ، في المياه، طريقاً طويلاً، لا نهاية له.

أغلقُ النافذة. حان وقت النوم. فجأة تعالى طرق على الباب. منْ يمكن أن يكون ؟

يقف تشخارتشفيلي بالباب:

- فلاديمير غافريلوفتش، تمّ اكتشاف آثار إنسان على الشط.. تتوجب زيادة المراقبة. سأتتبع الأثر مع الملازمين.. اذهب أنت والعناصر بمحاذاة الساحل.

- مفهوم، أيّها الرفيق الرائد!

- العناصر جاهزة.

- مفهوم.

- بهدوء، ودونما خوف أو ضجة، باشروا التنفيذ!

- حاضر، سنباشر التنفيذ!

.. استقبلني، في الفناء، دجاكيلي، شيربينا وبارخومنكو. كانت المجموعة الأخرى قد سبقتنا إلى التنفيذ. اتجهنا نحو الشاطئ. أنزل ثلاثة من حرس الحدود زورقاً آلياً إلى الماء. ساعدناهم في ذلك. قفز ثلاثتهم إلى الزورق، استلم أحدهم المقود، طبطب المحرك وشمخ الزورق بأنفه وذاب في الظلمة.

كانت البروجوكتورات تنبش البحر، وأشعة الرئيس منها تتطاول على امتداد الشاطئ وتتمركز على الصخرة. سرنا عبر المنطقة المضاءة. أمامنا كان يمشي بارخومنكو مع كلبه.

- ابحث يا كلبي، ابحث يا عزيزي! ـ راح يهمس بارخومنكو.

كان الكلب يشم الحجارة ويتحرك بسرعة ثم يندفع نحو الأمام، ودجاكيلي يسير على خط الشط، حاملا بندقيته المهيأة، في حين كان شيربينا يمشي على جانب المسبح، وكنت أنا في الوسط، إلى الخلف قليلاً. وهكذا وصلنا، بالشكل الهندسي "معين"، إلى الصخرة التي تصدم البحر ناتئةً. وهنا انقطعت أشعة البروجوكتورات (المصابيح الكاشفة) وعمّت الظلمة.. انعطفنا إلى الممر الضيّق الذي يلتف حول الصخرة من جهة اليمين، ورحنا نصعد إلى أعلى متطاولين على شكل سلسلة صغيرة.

بصعوبة شققنا طريقنا عبر الأحراج الكثيفة الشائكة. كنا نقع، ونتسلق، دون أن يرى أحدنا الآخر ودون أن نتبيّن طريقنا، مما اضطرنا لإشعال الأبيال.

سارغيس! هذا يشبه لعبة (الغميضة) مع فارق واحد هو أن اللعبة لا تجري باتجاه الحياة بل باتجاه الموت.. في مكان ما من الغابة يختبئ رجل، علينا أن نجده ولو كلفنا ذلك حياتنا، في حين يحرص هو على التملص منّا ولو كلفه ذلك حياته..

.. بارخومنكو لم يعد مرئياً.. فقد مضى بعيدا إلى الأمام.

- دجاكيلي، أين أنت ؟ - تساءلت بصوت خافت.

- أنا هنا، أيّها الرفيق الملازم ـ جاءني صوته من الأسفل.

- أين بارخومنكو ؟

- هو في الأمام، إذا ما وجد الكلب الأثر سيطلق لنا إشارة.

- وشيربينا ؟

- في مكان ما، في الأعلى.

- شيربينا! ـ ندهت عليه.

- أي.. ي! – سمعنا صوت شيربينا من بعيد.

- إلى أين تسلق ذاك الغريب ؟ ما الذي يبتغيه هناك فوق الصخرة؟!

ـ قال دجاكيلي ثم صرخ ـ اي.. ي شيربينا، انزل إلى هنا!

لا جواب. نتابع تقدمنا متسلقين الجلاميد تائهين بين شجيرات العوسج.

- دجاكيلي، أين أنت ؟

- هنا.. ا..ا.. – وصل صوته ضعيفاً من الأسفل. يبدو أنه تأخر.

- شيربينا.. ا.. ا..

ما من صوت.. فيما يخص بارخومنكو، لا فائدة من مناداته، فالصوت لن يصله. كان يجب أن نترابط معاً في مثل هذه الأدغال الكثيفة! ما ا لعمل الآن ؟ شعرت ببرودة غادرة تسري إلى فؤادي. أخرجت المسدس من قرابه وصرخت مرة أخرى:

- شيربينا، دجاكيلي، بارخومنكو، أين أنتم ؟

- أي.. ي ـ أجابني أحدهم.

حسن، الله معهم. قليلاً وسأخرج من هذه الأحراج، وهناك حديقة الماندرينا التابعة للكلخوز. أكاد أختنق. سآكل زوجاً من البرتقال..

أشعلت مصباح البيل، وتطلعت. فعلاً، هو ذا الجسير الخشبي فوق الجدول الجبلي، أي أنّ الحديقة قريبة. تنفّست بارتياح. فجأة دوّى شيء

ما في الأعلى وهوى نحو الأسفل بدويّ مخيف. ((سقطت حجر))، لمعت الفكرة في ذهني واختبأت بسرعة وراء صخر ناتئ. اندفع الجلمود نحو الأسفل، وقد كاد يدهسني، ثمّ تدحرج نحو الأسفل، إلى البحر.

- اي.. ي، ما بكم ؟ هل جننتم ؟ - صرخ دجاكيلي.

- ما الأمر ؟ - علق بارخومنكو المتقدم علينا.

ونبح الكلب.

- أين أنتم يا شباب ؟ - صرخت.

- أنا هنا، في الأسفل، ها أنا قادم إليكم - أجابني دجاكيلي.

- أنا هنا، أيّها الرفيق الملازم - ردّ عليّ بارخومنكو.

- شيربينا، أين أنت ؟ - صرخت من جديد.

لم يجب أحد.

- شيربينا..!..!..

- بينا.. بينا.. بينا.. - تردّد الصدى. فهدرتُ:

- شيربينا، أين أنت يا شيربينا!

لا صوت.

- دجاكيلي، تعال إليّ بسرعة!

- ها أنا راكض إليكم، أيّها الرفيق الملازم!

بعد دقائق معدودة خرج من الأحراج. قلت له:

- شيربينا غير موجود.

- وأين هو ؟ - تساءل دجاكيلي.

- لا وجود له.

- شيربينا! - صرخ دجاكيلي. وحين لم يتلقَ جواباً، نظر إليّ بدهشة.

- شيربينا! – مرة أخرى صرخ دجاكيلي - شيربينا! أين أنت يا شيربينا ؟ كُفَّ عن التحامق، أجب أين أنت ؟!

خرس فجأة. رمى البندقية الرشاشة وراح يتسلق الصخور نحو الأعلى.

- ارجع يا دجاكيلي! ـ صرخت به، لكنه لم يستمع إليّ.

- شيربينا! شيربينا!

ظهر رأس الكلب من بين الأحراج ثم تلاه بارخومنكو.

- ماذا حصل أيّها الرفيق الملازم ؟ - سألني وهو يكاد لا يقوى على التنفس.

- اختفى شيربينا.

- كيف هذا ((اختفى)) ؟ أهو صغير ؟ - ابتسم بارخومنكو.

عاد دجاكيلي.

- لا وجود له. ـ قال بصوتٍ واهن.

- ما لكما، أحقاً ؟ - قلق بارخومنكو.

- أطلقْ الكلب! دعه يبحث ـ انتفض دجاكيلي وجرى نحو الأسفل.

- ابحث عن شيربينا، أيّها الكلب! شيربينا! ـ صرخ بارخومنكو ـ هيّا أيّها الكلب!

اختفى الكلب في الظلمة، جرى بارخومنكو خلفه. سمعت صوت دجاكيلي يصرخ:

- شيربينا.. بترو.. و.. أي.. ي، شيربينا، أين أنت ؟..

وانقطع صوته فجأةً. خيّم صمت قاتل. لم أعد أذكر كم دام هذا ـ دقيقة أم ساعة أم دهراً ؟ بعدئذٍ نبح الكلب هناك في الأسفل، عند البحر. لم يكن نباح كلب مدرّب بل نباحاً قاسياً مميزا مكبوتاً. كان الكلب ينبح ويهرّ شاكياً ككلب بيتي ضربه صاحبه...

كان شيربينا ملقى على ظهره بين صخرتين كبيرتين. وكان وجهه هادئاً، أبيض كقطعة من القماش، والدم يسيل من فمه ببطء

قطرة ـ قطرة.. جثا دجاكيلي أمامه على ركبتيه، وراح يمسّد على صدره ويهمس بخفوت:

- أتتألم يا (بترو) ؟ أجبني، ما بك يا بترو ؟ بترو، حبيبي، قل لي ولو كلمة واحدة، افتح عينيك يا بترو! ألا تخجل يا بترو فأنت شجاع، بطل!.. حسن، بترو، انظرْ إليّ، هذا أنا دجاكيلي، أخوك.. وهاك بارخومنكو هو أيضاً هنا، أتسمع يا بترو ؟ اصحَ يا حبيبي، اصحَ!..

راح دجاكيلي يبكي كالطفل، ينشج بخفوت ويبتلع دموعه. راح يبكي ويرجو شيربينا أن يفتح عينيه ويقول ولو كلمة واحدة.. وارتمى بارخومنكو جامداً.

فجأة نشب صاروخ وتعلّق للحظة كنجمةٍ في السماء ثم سبح نحو الأسفل بانتظام وتمهل، مضيئاً بنورٍ أبيض، شاحب كالموت، وجوه الشباب الكالحة.

- اصحَ، يا بترو، قبضنا عليه! أترى الصاروخ الأبيض! هيّا، اصحَ يا حبيبي بترو، أرجوك يا بترو!

راح يبكي دجاكيلي بصوت عالٍ بكاءً مراً. وبكى أيضاً بارخومنكو. ارتجفت يداي واهتزّت ركبتاي وبصعوبة تمالكت نفسي واقتعدت الرمال.

- أطلق شهاباً أحمر! – أمرتُ بارخومنكو.

أخرج مسدس الشهب، رفعه للأعلى وأطلق.

ارتفعت الشهب الحمراء، واحداً بعد آخر. أضيئت السماء بنور أحمر. إنها إشارة الخطر.

وفي الحال بدأ يتقاطر إلينا حراس الحدود مثنى وفرادى. لم يسأل أحد عن شيء، ولم يقل شيئاً. كان كل شيء واضحاً وضوح النهار.

كان بترو شيربينا، ذو العشرين ربيعاً، مستلقياً بين صخرتين كبيرتين، على شاطئ البحر، محاطاً بحلقة متينة من رفاقه. وشيئاً

فشيئاً كـان جسمه يتحدد في الظـلام، وأخيراً رأيناه. ـ جميلاً، أسـود الشعر، هادئاً، كما لو أنه ينام بسلام بعد مناوبة مرهقة..

.. انطفأت النجمة الأخيرة. شحب الليل فجأة وبدأ البحر يتماوج.

أطلّ الصباح على الحدود...

* * *

كنت مستلقيا، بثيابي، على السرير، دون أن أحمل أية فكرة في رأسـي، أمامـي كـان خواء ـ خواء هـائل لا حدود له، وأنا أسبح في ذلك الخواء، دون أن أدري بـأي شـيء أتمسّك.. دخل تشخارتشفيلي. غاص في الأريكة. أخرج علبة الدخان، قدّم لـي سيجارة وأشعل لنفسه أخرى. دخّن ما يقارب خمس دقائق صامتاً. كان يسحب الدخان بعصبية. وحين لم يجد منفضة أطفأ عقب السيجارة بالمنضدة ونهض:

- هـذا الحـيوان الهجـين في الـنادي.. اسـتجوبه، فلاديمـير غافريلوفتش، أنا لا أقوى على ذلك..

أخذت ورقة وتوجهت إلى النادي.

.. كان شاحب اللون، أحمر العينين، أشقر، يقارب التاسعة عشرة من عمره.

حين رآنـي نهض بسرعة وأصلح من وضع سرواله. جلست خلف المنضدة وأخرجت من جيبي القلم وعلبة السجائر وورقة ثم سألته دون أن أرفع رأسـي:

- اسم العائلة ؟

- ...

- اسمك ؟

-...

- اسم الأب ؟

-...

- اجلس!

أشعلت سيجارة.

- أأستطيع التدخين ؟

- تستطيع.

التقط السيجارة بنهم وعبّ منها الأنفاس.

قيّض لي غير مرة أن أطرح الأسئلة على الناس، مختلف الأسئلة، استمعت إلى الناس ساعاتٍ طويلةً، لكنني لأول مرة أستجوب إنساناً، لم أدر من أين وكيف أبدأ معه.. كان يجلس واضعاً يديه على ركبتيه وهو يرتجف.

- بردٌ! ـ قال كأنه يبرر ارتجافه ويبتسم بخراقة.

- أنت ترتجف خوفاً ـ قلت له، فخفض رأسه وصمت ـ ماذا حدث لعينك، رُضضتَ ؟

- لكمني أحد جنودك، سأشتكي عليه!

- لمن ؟

- للنائب العام.

- لن يساعدك النائب العام. عليك التوجه إلى الأمم المتحدة.. هناك سينظرون في أمرك ـ نصحته.

أدرك سخريتي فنهض:

- أتعتقدون أن الأرض قد خلتْ من القانون ؟

- اجلس " أبو مخطة "!. لو لم يكن ثمة قانون أتظن أننا كنا نتحادث معك ؟

جلس.

- كم عمرك ؟

- تسعة عشر عاماً.. أيمكنني أن أشرب ؟

صببتُ له كأساً. أفرغه بجرعة واحدة ثم عاد إلى مكانه.

- ألكَ أهل ؟

- لديّ.

- أين هم ؟

- في البيت.

- أيدرون أين أنت ؟

- لا.

- لماذا ؟

- لقد تركتُ البيت، أعيش مستقلاً..

- من أين جئت إلى هنا ؟

- من أوديسا.

- كيف نفذتَ إلى منطقة الحدود ؟

- لا أدري.. هكذا في الخريطة: نهر وبعده مباشرة تركيا. قطعت النهر ليلاً، اختبأتُ بين الأحراج.. مرّ الكثير من الجنود من أمامي. كانوا يتحدثون الروسية فأدركت أنني أخطأت.. تركيا بعد ذلك..

- ثم بعد ؟

- بعدئذٍ. مشيت بخط مستقيم.. بعد مرور ساعة رأيتُ شهاباً أحمر وفهمت أنكم قد اقتفيتم أثري. ركضتُ. ركضت ما استطعت، واستلقيت ثم أمسك بي جنودكم.

- إلى أين كنت تمضي بعد اختراق الحدود ؟

- إلى أميركا.

- عبر تركيا ؟

- عبر تركيا.

- وماذا بشأن وطنك ؟

- أيّ وطن ؟

- وطنك.

- مرّة أخرى ((الوطن))!ـ قفز ـ لقد تعبت من هذا الوطن! في البيت((الوطن))، في المدرسة ((الوطن))، في الإذاعة ((الوطن)) في التلفزيون ((الوطن)). مللتُ من كل هذا. وطني ـ حيث أكون سعيداً!

- يعني، أنت لستَ سعيدا هنا ؟

- أجل، أجل، لستُ بسعيد. هنا لا يفهمونني. أهلي يترصدون كل خطوة من خطواتي. ينبشون في أعماق روحي. ليست لديّ حياتي الخاصة. أريد أن أحيا بحريّة. أتفهمون: بحريّة! أن أعمل ما أريد، أتفهمون ؟

- أفهم. وأنت واثق أنك ستفعل في أميركا ما يحلو لك ؟

- نعم، نعم. تلك هي الحقيقة. هناك كلٌ يحيا على هواه!

- طبعاً. البنات يلبسنَ تنانيرهنّ القصيرة. والكونياك والجن والكالفادوس والبارات الليلية وسيارات الليموزين، والدولارات..

- أجل، الدولارات!ـ قال صارخاً.

- ثمة في شارع ((برودوي)) شجرة تورق دولارات بدلاًمن الأوراق، تقترب منها وتقطف عنها ما تشاء.. أليس كذلك ؟

- أجل، أجل، هكذا.

بصعوبة بالغة استطعتُ أن أكبح نفسي عن الرغبة في صفعه كما يجب.

- ما هي ثقافتك ؟

- ثانوية.

- المهنة ؟

- لا مهنة لدي.

- هل تعمل ؟

- لا.

- ألديك نقود ؟

- لا.

- أتتقن لغة أجنبية ؟

- لا.

- في مثل هذه الحال، أين تدس نفسك أيها الأبله ؟ مَنْ يحتاج إليك في أميركا ؟ لن تنال هناك كسرة خبزٍ أو كأساً من الماء. أحمق! أتظن أنهم سيحملونك على الرّاحات ؟ ستفطس جوعاً بعد عددٍ من الأيام التي يتمكن فيها الإنسان الحياة بلا طعام. أتفهم هذا ؟

صمتَ. نظرت إلى هذا الأحمق الساقط على الطريق ولم أدرِ ما الذي يستحق أكثر ـ الحقد أم الشفقة.. ذكّرني منظره بأحد الشباب المدمنين على المورفين، وكنت ألتقي به في مدخل البناية التي أقطن. ذات مرة دعوتُه إلى بيتي ورحت أعظه. يومها راح يتمتم متلعثماً، مسطولاً، يكاد لسانه لا يطاوعه، عن روحه المعذبة التي لا يفهمها أهله وعن عبثية الحياة وأن طريق الخلاص الوحيد يتأتى بنسيان الذات.. والآن، عند منظر هذا الشخص الضعيف الإرادة والوجه المصفر انتابني الشك..

- هيّا، ارفع كمّيك! ـ أمرته.

ارتعش وقال:

- ماذا ؟

- أرني ساعديك! ـ كررتُ أمري.

- لمَ هذا ؟ ـ انتفش.

نهضت صارخاً:

- أقول لك، ارفع كميك!

أخذ يرفع كمي قميصه مكرهاً. فرأيت على شرايينه نقاطاً حمراء - آثار الإبر.

- ما هذه ؟

- هذا غلوكوز.. لديّ فقر دم..

- أنت مدمن على المورفين.

- أنا مريض! - قال ذلك وحوّل بصره.

- أنت مدمن، سافل، فاسد، تافه. هذا أنت!

صمت، وبأصابع مرتجفة زرّر أكمامه.

- بسببك مات إنسان. رفيق لنا رائع. أتعلم هذا ؟ - قلت وأنا أشعر بالحنق يغلي في داخلي.

- لا أعرف شيئاً - وراح يبكي بصوتٍ متقطعٍ - أنا لم أقتل أحداً.. ماذا تريدون مني ؟

- أتساءل، هل تفهم أننا فقدنا شابّاً رائعاً بسببك!

- هل سيطلقون النار عليّ ؟ فأنا لم أقتل أحداً.. ماذا سيفعلون بي ؟ قولوا لي!

- لا أدري! لستُ نائباً عاماً ولا قاضياً..

- أنا لست جاسوساً، مجرد أنني أردت الهرب! ماذا تريدون ؟ أطلقوا سراحي. سأسافر إلى بيتي. ماذا تريدون ؟

- لو كان الأمر بيدي لأريتك..

- لن أهرب إلى أي مكان.. أطلقوا سراحي.. - راح يبكي وقد احتضن رأسه بيديه. تركته يشبع بكاء ثم قدمت له سيجارة فاختطفها في الحال وأشعلها.

- ماذا، ومَنْ تحب ؟

لم يجب. فكررت:

- قل، أتحب أحداً ؟

أشار برأسه.

- مَنْ ؟

فكر طويلاً، لكنه لم يدرك ما أقصد، أم أنه فهم لكنه خجل من أن يجيب.

قلت:

- أنت لا تحب أحداً أو شيئاً في الكون سوى نفسك.

فبكى من جديد.

تناهت ضجة وأصوات عالية من الفناء. دخل الغرفة جنديان راكضين.

- أيها الرفيق الملازم، أيمكننا أن نتحدث معكم لدقيقة واحدة؟

لأمر ما، كان الجنديان مضطربين.

- ما الأمر ؟ - ونهضت.

- اخرجوا من فضلكم إلى الفناء.

- ماكاروف، ابقَ ها هنا مع الموقوف. وتعال أنت معي يا(إرمادزه) - وخرجت من الغرفة مسرعاً.

كان ثمة، أمام مبنى النادي، ما يقارب العشرين جندياً من حراس الحدود يضجون ثائرين، وفي مقدمهم دجاكيلي. صمتوا عند ظهوري.

- ماذا حدث أيها الرفاق ؟ - سألتهم.

صمت العناصر.

- ما القضية يا دجاكيلي ؟

رفع دجاكيلي رأسه. كانت الدموع تلتمع في عينيه.

- أيها الرفيق الملازم، اسمحوا لنا أن نتحدث مع الموقوف – قال

دجاكيلي بصوتٍ أجش.

- ولم هذا ؟

- أيها الرفيق الملازم، اسمحوا لنا أن نتحدث مع الموقوف! ـ كرر كلامه كأنه لم يسمعني.

- إلى الرائد، بسرعة! ـ همست إلى (أرمادزه) الواقف بجانبي. فركض.

- تفرقوا، أيها الرفاق! ـ صرخت، لكن أحداً لم يتحرك من مكانه.

- لمنْ أوجّه كلامي ؟ قلت: تفرقوا!

- أيها الرفيق الملازم، دعونا نرى الموقوف ـ كرر دجاكيلي كلامه من جديد.

أدركت أنني لن أصل إلى شيء عن طريق الأمر.

- يا جماعة، عودوا إلى مهاجعكم، فأنتم تعلمون أنه لا يجوز لكم التحدث الآن مع خارق الحدود. تفرقوا!

صمت الشباب والغيظ يأكلهم. لم يفكر أحدٌ منهم بالتفرق. ارتبكت. دقيقة وقد يندفعون إلى النادي ويمسكون بالموقوف وعندئذٍ..

تنفّست الصعداء حين رأيت الرائد يسرع إلينا بغتة.

- ماذا يحدث هنا ؟ - تساءل الرائد وحملق في الجميع بنظرة متوعدة ـ إلى أماكنكم! هيّا تفرقوا بسرعة!

ضجّ الجنود وتحركوا، لكنهم ظلوا واقفين.

- وراء درْ! ـ صرخ تشخارتشفيلي رافعاً يده.

استدار الجميع كرجلٍ واحد.

- إلى مهاجعكم.. رملاً سرْ!

بعد دقيقة خلت الساحة إلاّ من دجاكيلي الذي وقف خافضاً رأسه

وكأنه مصفّد.

- دجاكيلي، قد كان الأمر ((رملاً سرْ)) ـ قال الرائد، لكن دجاكيلي لم يتحرك من مكانه. نظر تشخارتشفيلي إليّ. كانت ذقنه ترتجف. اقترب ببطء من دجاكيلي وضمّه إلى صدره وربّت على وجنته بحنان:

- اذهب إلى مكانك يا دجاكيلي، استرح واهدأ.. ثق، ما هو محظور يجب أن يبقى محظوراً.. اذهب يا فتاي واسترح!..

تخلص دجاكيلي برفق من أحضان الرائد، استدار صامتاً ثم مضى متثاقلاً إلى المهجع..

... ها قد انتصف الليل. مرة أخرى أجلس على رأس المنضدة المزركشة بآثار المكواة، أجلس وحيداً كقوّال أنخابٍ هجره ندماؤه، وأكتب إليك.

يبدو أن هذا ما لديّ الآن. سأقص عليك ما تبقّى عندما نلتقي. إلى اللقاء يا عزيزي سارغيس. سأنهي خدمتي بعد أسبوع من الآن، وما من ضرورة للكتابة إليّ إلى هنا.

تحياتي إلى كل مَنْ يتذكرني.

أعانقك. صديقك فلاديمير مديناراذزه.

* * *

اثنان نحن في الغرفة، أنا وبارخومنكو. مجموعة دزنيلادزه في الخدمة. نستلقي ونصمت. بعد مصرع شيربينا أصبحنا نلزم الصمت طوال الوقت ـــ سواء في الخدمة أو المطعم أو الثكنة.. وإذا ما تكلمنا، حرصنا على اختيار الموضوع والجمل التي لا تتعلق بشيربينا. ومع ذلك كانت كل جملة تنتهي بشيربينا. ولذا نؤثر الصمت: نستلقي

ونصمت وكلانا يعلم أن الآخر يفكر بشيربينا..

أدنو من النافذة. قد اصفرّتْ أوراق الحور منذ مدة. افتح النافذة فتتشبّع الغرفة بالبرودة المحببة ورائحة البحر. أرتدي ملابسي وأخرج إلى الفناء.المكان خالٍ إلاّ من (ريابوف) وقد خلع سترته الرياضية وراح يدور حول الثابت.. أمضي نحو المطبخ.

أتطلع بنظرة خاطفة عبر نافذة المكتب المفتوحة. وراء الطاولة يجلس الرائد وكاتبنا. لا يلاحظانني. أقطع المطبخ وأمشي إلى الفناء الخلفي. تحت الصنوبرة وعلى مفرش من القش يستلقي ميرابتشيك ويلحس السلسلة.

لقد كبر الديسم خلال الشهرين الماضيين وغدا يافعاً. خلال دقائق الفراغ، يداعبه الجميع بانشراح. لكن ما إن يزعل ميرابتشيك حتى يزمجر بعنف ويهجم على المسيء. عند ذاك كن حذراً، فلديه أظافر وأسنان حادة كالشفرة. والطريقة المضمونة لاسترضاء ميرابتشيك الزعلان ـ تقديم زجاجة ليموناداً. حينئذٍ يقف على قائمتيه الخلفيتين، يشرب الليموناداً ويئن من اللذة. والدبيّبُ يحبني فأنا ألازمه أكثر من سواي وإضافة إلى هذا أطعمه السكر. وهكذا ما إن رآني حتى قفز ودار ومدّ نفسه نحوي. جلست القرفصاء أمامه، وقدمت له قطعة السكر. التهمها بشهية وهي تصرف تحت أسنانه.

- أحمق أنت أيها الدبيّب! رأسك البلهاء لا تحوي غراماً واحداً من المخ. قل لي أتذكرُ أمك ؟

- سكر! ـ همهم الدبيّب.

- خذ، التهمْها ولا تطلب المزيد. يعني أنك لا تذكر يوم قتلنا أمك؟ حينذاك بكى شيربينا.. نسيت ؟

- هات أيضا!

- دعني أيها الأحمق!.. حسنٌ، فلنفترض أنك لا تذكر شيربينا، لكن أيمكن نسيان الأم الوالدة ؟ على أية حال، ربما كان الخير في

هذا لكلينا. أنت لا تدري أنّ أمك قد قتلت، وخاصة لا يخطر ببالك أنني قتلت أمك.. لكنني لم أقتلها يا ميرابتشيك. أقسم لك أنني لم أقتلها. كنت هناك ورأيت لا أكثر.. طبعاً، خير لك ـ ألا تعرف وتفكر بشيء.. أما أنا فماذا أفعل ؟ أذكر كل شيء، أذكر أبي وأمي وشيربينا.. قل لي يا ميرابتشيك، ما الذي عليّ فعله ؟

- لم يعد لديك سكر ؟

- لا ، أيها الأحمق الصغير، إيهِ يا أبلهي الحبيب!

يهزّ ميرابتشيك رأسه بشكل مضحك. أجلس على الأرض وأبدأ بحك بطن الدبيّب الدافئ. فيهرّ بصوت خافت ويعقد ما بين عينيه بلذة.

- أحمق، أحمق أنت يا ميرابتشيك!..

- ماذا تفعل هنا يا دجاكيلي ؟

أنهضُ. أمامي يقف الكاتب.

- لا شيء، أيها الرفيق الملازم، أُطعم ميرابتشيك سكراً.

- لقد ترعرع صاحبك ميرابتشيك!

- كثيراً، أيها الرفيق الملازم.

- ولماذا أسميته ميرابتشيك ؟

- هكذا خطر ببالي فجأة.. أحد معارفي كان يُدعى ميراب..

- أكان زميلك يشبه الدب ؟

- محال! في الحقيقة ربما كان يشبهه بطبعه..

- وكان يحب السكر ؟

- ربما كان يحب السكر أيضاً..

- قريباً ستغادر، فكيف سيبقى بدونك ؟

- بسيطة، سينساني بسرعة..

- لا أظن. فهو يزداد تعلقاً بك.

- لا أعرف.. سيشتاق ثمّ يعتاد..

- دجاكيلي، لماذا لا تستريح ؟ - سألني الكاتب.

- لا أرغب بهذا أيّها الرفيق الملازم.

- لكنك ناوبت بالأمس ؟

- نعم!

- ولا تريد النوم ؟

- كلا، أيّها الرفيق الملازم.

فتّش الكاتب جيوبه.

- ألديك سجائر ؟

- قدمت له علبة الدخان والكبريت. أشعل سيجارة ثمّ جلس فوق القش وراح يحك بطن ميرابتشيك فاستكان هذا منتشياً.

- دجاكيلي، ألا ترغب بالسفر إلى البيت ؟

- ومَن لا يرغب بالسفر إلى البيت، أيّها الرفيق الملازم - ابتسمتُ.

- قد كلمت الرائد.. عموماً ستنال إجازة أسبوع.. غداً صباحاً ستسافر إلى البيت. استرح كما يجب!

- شكراً، أيّها الرفيق الملازم!

- ستقول للرائد: شكراً..

- بالتأكيد، أيّها المحترم فلاديمير!

نهض، ضمّني من كتفيّ وقادني إلى المهجع، توقفنا عند الباب. رمى بالسيجارة التي لم تنتهِ بعد وطلب منّي أخرى. بعدئذ استدار ومضى نحو البحر.

* * *

أسفر الصباح. كانت سيارتا النظافة تزحفان عبر ساحة المحطة هادرتين وخلفهما تسير آليتان لرش المياه. كانتا، بنافورتي كل منهما المتدفقتين من أسفل صهريجيهما كأنياب غليظة، تشبهان إلى حدٍّ كبير عجليْ بحرٍ ضخمين.. يلمع الإسفلت المغسول لتوّه كالمرآة. بعد هواء عربة القطار الخانق الفاسد أسكرتني نضارة الصباح الخريفي في تبيليسي. حين وازتني إحدى السيارتين وضعت نفسي تحت الشلال الكريستالي بغبطة. أوقف السائق السيارة ومدّ رأسه من النافذة ثمّ سألني وهو يلوح بيده:

- أ منذ فترة بعيدة غادرت مشفى الأمراض العقلية، أيّها الصاحب؟

- مرحباً، أيّها الصديق! - أمسكت بيده الممدودة وشددت عليها.

- أجل.. يحدث مثل هذا.. قال السائق في أسف وأدار سبابته في صدغه، ثمّ صفر وانطلق.

- كل شيء ممكن الحدوث، أيّها الصديق، إلى اللقاء! - لوحتُ له بيدي مودّعاً ثمّ هبطت نحو شارع نينوشفيلي.

- صباح الخير أيّها الناس، مرحباً يا سكان تبيليسي! إلى أين تسرعون ؟ فالفجر لمّا يبزغ بعد كما يجب. لماذا تنظرون إلى السماء ؟ لا، لم تمطر ولن تمطر. انظروا كم هي السماء صافية، أمّا لماذا أنا مبلل بالماء ؟ فسأجيب على سؤالكم، أيّها الأعزّاء. لقد خرجت للتوّ من البحر. أجل، أجل، هكذا بقبعتي الخضراء وكتافيتيّ الخضراوين وحقيبة سفري السوداء. قذفتني موجة من أمواج البحر. ماذا تظنون ؟ أيخرج الإنسان من البحر جافاً ؟..

مرحباً يا عمّال النظافة في شارع نينوشفيلي! أأنتم من أشعل النار في أوراق الخريف

المصفرّة ؟ كونوا حذرين أيّها الأصدقاء، لا تحرقوا مدينتي، مدينة تبيليسي الحبيبة!..

مرحباً أيّها البيت الصغير، مرحباً أيّها العجوز! لا تزال متماسكاً؟ لم تسقط بعد، يا لك من صنديد! وأنت هنا أيّتها البوّابة الحديدية ؟ أما زلت كسابق عهدك على الأرض ؟

مرحباً أيّها الصنبور، يا صنبوري الطيّب المتذمّر. تحية لكم أيّتها الدلاء والأباريق. مَنْ الأخير فيكم ؟ سأكون وراءه[1] !

مرحباً، عصافير الدوري الصغيرة. ما لكم تصفقون بأجنحتكم؟ تغتسلون ؟ لكن لا تخافوا فهذا أنا أفتانديل دجاكيلي.

مرحباً أيّها الكشك! كيف حال العم (روبين). كيف نسي أن يطفئ النور ليلاً. وكيف حال الساعات: اليد والجيب والحائط ؟ تدورون؟ حسن، حسن، دوروا! كم مضى من الزمن لم أركم فيه ؟ سنة ونصف بالتمام والكمال. قد قطعتم شوطاً طويلاً بدوني!

أوه، ماذا أرى! مرحباً أيّتها القمصان، كم أنت نظيفة، طرية، بيضاء. وأنت ابنة مَنْ، أيّتها الصغيرة ؟ لم أعرفك.. يا لكِ من صغيرة مضحكة! مرحباً، دادونا! تنامين ؟ نامي، نامي بهدوء!.. مرحباً يا درجي! مسكين، مرّة أخرى فقدت اثنتين من أسنانك ؟ يا إلهي! أحقاً لم يجدوا لك لوحاً بطول متر واحد ؟

مرحباً يا بابي! حسن، كيف حالك أيّها العجوز ؟ أما زلت تصرّ ؟ مرحباً أيّها الجرس، إيّاك أن تخذلني، هيّا رنّ كما كنت في الماضي.. واحد، اثنان، ثلاثة.. افتح يا سم... سم!

- مرحباً، عم فانتشكا!

- أفتو.. مرحباً يا عزيزي!..

* * *

---

[1] الإشارة هنا للطابور الدائم في سبيل الحصول على الماء – المترجم .

مساءً، أمام معهد اللغات الأجنبية، يحتشد الشباب جماهير غفيرة. تنتهي المحاضرات في الساعة الحادية عشرة. ينتظر الشباب – بالسيارات وبدونها. يقفون على انفراد. بعضهم جادّو الهيئة، مهمومون، والبعض الآخر يتمشى كأن لا علاقة لهم بالمعهد. يقترب منك، يطلب شعيلة وهو يختلس النظر إلى ساعتك ثم يميل بنظره إلى ساعته ـ لا يثق بحسن سيرها!..

الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً. تظهر أولى الفتيات عبر باب المعهد. تجري متسربلة بمعطفها، متلفّتة شتى الاتجاهات دون أن تولي السيارات المسرعة اهتمامها. تتوقف بعد قطعها الشارع. وفجأة ينفرد عن الجمهور شاب ويتقدم متمهلاً، كأنما تنقصه الرغبة ولا يحدوه الفرح، متجهاً نحو الفتاة ـ بعدئذٍ يتدفق إلى الشارع تيّار لا ينتهي من الفتيات. جميلات هيفاوات بشتى أنواع الشعر ـ الأسود والأشقر الفاتح والأصفر والفضي والكستنائي والأحمر بل وحتى الأزرق. يمشين ضاربات الأرض بأكعاب كنادرهن وجزمهن وأحذيتهن (الموكاسين) [1] وبثيابهن القصيرة وحقائبهن المعلقة فوق أكتافهن. ويمتزج التيار البنّاتي المزركش العطر بالتيّار الآخر ـ بالشباب المنتظرين بستراتهم الغامقة وقمصانهم البيضاء الناصعة. وبعد أن يلتحم التياران، ينسابان عبر الشارع العريض الجميل. وعند الساحة تحدث دوّامة في التيار حيث يتفرع إلى تيارات أصغر تجري عبر ما لا يُحصى من الشوارع الفرعية.

- مرحباً، دادونا!

نظرت إليّ دهشة ولم تعرفني. رفعت قبعتي وابتسمت بخراقة.

- أوه.. دجاكو! – صرخت واحتضنتني وقبلتني في وجنتي – من أين؟ يا إلهي كم أنت مضحك! هيّا ارتدِ قبعتك!

---

[1] الموكاسين: حذاء من الجلد اللين والنعل الرقيق، كان يلبسه الهنود الحمر - المترجم

أذعنت للأمر.

- جنرال، جنرال حقيقي!.. راصد ممتاز! ها.. ها.. ها ـ ضحكت ضحكتها الرنانة. وراح المارون يبتسمون مخففين من مشيتهم.

- دادو، فلنذهب من هنا، فالمكان غير مريح ـ رجوتها متأبطاً ذراعها.

- فلنذهب!.. قل لي متى وصلت ؟

- صباحاً.

- لفترة طويلة ؟

- لأسبوع.

مرة أخرى شملتني دادونا بنظرة، رائزة إياي من رأسي حتى أخمص قدمي، ثم أطلقت

ضحكة:

- جنرال أخضر.

- كيف تعيشين، دادو ؟

- على الطريقة القديمة.

- كيف ((على الطريقة القديمة)) ؟

- هكذا. أدرس، أصبغ شعري وحاجبيّ، أكحّل عينيّ، أرتاد السينما..

- وماذا أيضاً ؟

- أيضاً ؟ أقرأ الكتب.. في الصيف سافرت إلى بولونيا ببطاقةٍ سياحية. ماذا أيضاً؟ أرقص، أغني، أشرب أحياناً ـ أثناء الضيافة طبعاً..

- ماذا فعلت خلال هذه السنة والنصف ؟

- قلت لك! ـ همست مستغربة ـ ماذا كان يتوجّب عليّ أن أفعل أيضاً ؟

- هل تذكّرتني ؟

فكّرت دادونا. فكررت سؤالي:

- قولي، هل تذكّرتني ؟

- تذكرتك ؟

حررت دادونا يدها مني وانحرفت جانباً، ثم حدقت بي صامتة. كانت حقيبتها ذات السير الطويل تتأرجح برتابة كرقاص ساعة تحصي الثواني ملامسة الجزمة اللمّاعة ـ واحد، اثنان، ثلاثة... واحد، اثنان، ثلاثة... يا للشيطان! هي ذي، من جديد، العادة العسكرية: واحد، اثنان،

ثلاثة...

- وأنت هل تذكرتني ؟ - سألتني فجأة بعد أن أمسكت بحقيبتها المتأرجحة، وخفضت رأسها.

- وماذا كنت أفعل ؟ طبعاً تذكرتك ـ واحمرت وجنتاي. الحمد لله أنّ دادونا لم تلحظ هذا.

- لماذا إذاً لم تكتب ولو رسالة واحدة ؟ - سألتني بصوتٍ خفيض.

- لا أحب الكتابة يا دادو! ـ قلت لها صادقاً.

ابتسمت.

- أنت تكذب. تسعة وتسعون بالمئة من الرسائل في العالم يكتبها العساكر. لقد نشروا، يوما، صورتي على غلاف مجلتنا ـ المرأة (مجلة المرأة الغروزينية) لو تدري كم تلقيت من رسائل العساكر! وأنت تقول..

- دادو! أقسم لك إنني لم أكتب حتى لجدّي.

- حسنٌ، حسنٌ، فلنذهب. عمّ سأتحدث معك إذا كنت لا ترى فرقاً بيني وبين جدّك؟! ـ أخذت بذراعي وقادتني للأمام.

- دادو، خيّل إلي أنه بعد ((دجفاري))..

- ماذا بعد دجفاري ؟

- أعني بعد دجفاري ليست للرسائل من أهمية!

- ولم ؟ ماذا حصل في دجفاري ؟ هل تكللنا هناك ؟

- فكرت أن..

- وأنا أظن أننا قد ختمنا على كل شيء بالصليب بعد دجفاري![1].

- حسنٌ ـ صرختُ ـ فلنفترض أنني مذنب، حمار! لكن، أنت ؟ لماذا لم تكتبي؟ - وأمسكت بدادونا من كتفيها، فأوقعتْ حقيبتها إثر المفاجأة.

- لماذا ولماذا.. ـ التقطت حقيبتها ومشت إلى الأمام على مهل، فتبعتها.

كانت ساعة الجامعة تشير إلى الثانية عشر إلا عشر دقائق. اجتازت دادونا الشارع وانحدرت عبر شارع فارازيس ـ خيفي.

- دادونا!

توقّفتْ.

- دادونا! – أدرتها نحوي، وجها لوجه. كانت عيناها الجميلتان مغرورقتين بالدموع.

- سامحيني، دادونا، سامحيني إن كنت تحبينني!

هزّت رأسها سلباً.

- دادو، حبيبتي دادو! ـ احتضنتها، ضممتها إليّ ورحتُ أغمرها بالقبلات ـ عينيها، وجنتيها، شفتيها وعنقها. ظلت واقفة مسبلة اليدين، مرتخية، باردة، وصمتت.

---

[1] كلمة " دجفاري " تعني باللغة الغروزينية ـ صليب.

- مـن الـصف الصـ.. رف! ـ سمعـت الإيعـاز فجـأة. أرخـيت يـديّ وتطلعت جانبـاً. كـان ثمـة أربعة مـن الـشباب يجلسون علـى مقعد مجاور للسلم في حديقة الجامعة ويتضاحكون. فكـرت أن أوبخهـم، لكنني تذكـرت أنني عـسكري وألـبس الـزي العسكري، لذا لوّحت لهم بيدي وركـضت خلف دادونـا. حتـى سـاحة الأبطـال لم ينـبس أحدٌ منا بكلمة. وكنت أول من قطع الصمت.

- سنأخذ تكسي! ـ ووضعت يدي علـى كتف دادونـا، فتوقفت مستكينة.

- دادو، قولي شيئاً..

- ماذا أقول لك يا دجاكو ؟ - نظرت إليّ. لمحت حزناً في عينيها ورنّ صوتها بغرابة ودون مبالاة بحيث فهمت: سيّان لديها في تلك الدقيقة ـ ما أسألها وما تجيبني به. ارتعت.

- دادو، - همست ـ هل تحبينني ؟

- لا أدري. أفتو، لا أدري..

- ومع ذلك، أتحبينني أم لا ؟

- وما تظن أنت ؟

- أنا لا أظن شيئاً. لا أعرف شيئاً، قولي، هل تحبينني ؟

- لا.

- لا أصـدق! ـ صـحت وأنـا مـندهش مـن نفـسي: لمـاذا فعـلاً لا أصدّقها ؟

- حسن، في هذه الحال ـ أحبك! ـ وابتسمت.

- هذا غير صحيح.

هزّت دادونا كتفيها:

- عليك أن تصدق هذا الجواب أو ذاك، وليس من ثالث.

وفهمت: ثمة ثالث ـ اللامبالاة. كانت دادونا على استعداد للإجابة بأي شيء كي تتخلص من هذا الحديث الفارغ المطوط.

حاولت مراراً أن أوقف سيارة، لكن دون جدوى.

- تنحّ جانباً، إنهم يتحاشون العسكريين ـ قالت دادونا.

لم تحتج لرفع يدها. توقفت أمامها سيارة (فولغا) سوداء جديدة، زاعقة بفراملها. قفز السائق منها واندفع نحو دادونا فاتحاً ذراعيه:

- واه، مَنْ أرى ؟ دادونا، يا لك من (شاطرة)! قد أتيت لتوّي من عندك، أسرعي، اجلسي! ـ أمسك بالفتاة وجرّها إلى السيارة.

- انتظر يا غيفي، لستُ وحدي، قفْ أيها المجنون!

- ومنْ معك ؟ - سألها مستغرباً.

- رفيق.. هو ذاك!..

- هذا العسكري ؟

- إنه دجاكو.

- أيّ دجاكو هذا ؟

- أفتانديل.

- ومن هذا الـ ((أفتانديل))؟

- أو.. و.. قلت لك: رفيق.

- حسن، اصطحبيه معك.

- أتدري.. نحن..

- لا أدري شيئاً، تعال أيها الصديق، من فضلك!

تقدمتُ نحوه. فتح الباب الخلفي ودفعنا، يكاد يحشرنا، في السيارة ثم جلس بسرعة وراء المقود. أدار المحرك وأقلعت السيارة دفعة واحدة.

عند ذاك فحسب لاحظت بجانبه في المقعد الأمامي فتاة شقراء.

- فيتا، أهذه أنت ؟ - سألتها دادونا بفرح.

- أنا! – وتبادلنا القبل.

- إلى أين يقودنا ؟

- وهل أنا أدري ؟ اقتحم بيتنا وسحبني من الفراش ثم قصد بيتك..

سألته دادونا :

- غيفي! قل لنا إلى أين نمضي ؟

- ((نحن نسافر، نسافر، نسافر إلى المناطق البعيدة!)) ـ غنّى بدلاً من الجواب.

- يا له من مجنون! انتصف الليل! إلى أين تأخذك الشياطين ؟ قل أيها الشاب!

- حالاً! ـ التفت غيفي. وأخيراً تسنى لي أن أرى وجهه الجميل. أنف أشَمّ، شفتان ريّانتان، باسمتان، أسنان ببياض الثلج ـ اليوم عيد ميلاد نيللي. وقد أقامت.. ليس عشاءً.. ماذا تسمونه ؟.. قدحٌ من القهوة! مفهوم ؟ إلى هناك نحن ماضون!

- الوقت متأخر يا غيفي، ستجنّ أمي.

- دعكِ من هذا! فهي أولاً تعرف، وثانياً معك الجيش فممَ تخافين؟ - غمزني غيفي بمرح. اغتنمت دادونا الفرصة وقالت:

- أجل، فعلاً، فلتتعارفوا!

- غيفي! – ومدّ يده من وراء ظهره.

- أفتانديل! ـ أجبته وأنا أشدُّ على يده.

- فيتا، تعارفي أنت أيضاً ـ قالت دادونا، فقلت:

- نحن نعرف بعضنا.

- من أين ؟ - تعجبت فيتا.

- كيف لا، أنت فيتا، كانت لديك شامة هنا على خدك ـ ذكّرتها بذلك.

- آه. صحيح. يومها كانت الشامة موضة. لكن أين تقابلنا ؟

- إنه دجاكو.. أتذكرين يومئذٍ، عندي.. ـ ذكّرتها دادونا.

- آه. أجل. طبعاً!... وماذا بكم ؟ - توجهت فيتا بسؤالها إليّ.

- ماذا ؟ ماذا بي ؟ - سألتها قلقاً.

- ما هذه الثياب التي تلبس ؟

- آ.. آ.. عن هذا تتكلمين! ـ تنهدت مرتاحاً ـ أنا في الجيش.

فجأة توقفت السيارة بحدة. اصطدمنا أنا ودادونا بالمقعد الأمامي.

- يا لك من شاذ! ـ قالت دادونا وهي تصلح من تسريحتها.

- حقاً أنا شاذ ـ قال غيفي بصوتٍ عالٍ ـ والآن افرنقعوا من السيارة، أمام سرْ!

صعدنا إلى الطابق الثالث. كانت الحفلة في أوجها. رفس غيفي الباب برجله.. ثم وقف وسط الغرفة وغنى موسعاً ذراعيه:

أنا لا أحتاج للمال

لا أحتاج للثروات

المرح عندي

أغلى من كل غال..

- آ.. آ.. جاء غيفي، هورا، أيها الشباب! ـ قال أحدهم.

- ادخلوا، ادخلوا ـ دعانا غيفي ـ انظروا أيها الشياطين، مَنْ أحضرت لكم ؟

استقبلوا دادونا وفيتا بحرارة لا تقل عن حرارة استقبالهم لغيفي وتطلعوا إليّ بحيرة وبابتسامة مكبوتة.

شعرت بشيء من الحرج. رحت أتطلع إلى الوجوه المجتمعة مدارياً

ارتباكي. كان كل شيء هنا كما كان منذ عام ونصف عند دادونا. ظلمة خفيفة، أرائك مريحة، منضدة عامرة بالفواكه والكونياك. في الزاوية - بيانو يصطف عليه رتل من الأفيالٌ الخزفية. وفي مواجهتي كان يجلس، كما في تلك الأمسية، غيلا، وبجانبه الرياضي ذاته ((أنزور)). بدايةً لم يعرفني. بعدئذٍ وفجأة أمسك أنزور بركبة غيلا وهمس في أذنه بشيء ما. احمرّ غيلا. وكان (كوكوري) يجلس كما في المرة الماضية، عند البيانو مستنداً إليه بمرفقه. وفي الزاوية الأخرى كانت الشاعرة (مزيا) تدخن وقد مدّت ساقيها، ملقية بثقلها على ظهر الأريكة. وبجانبها (ايزيدا) ترتشف القهوة، وقد اعتلت الأريكة برجليها. لم أكن أعرف بقية الموجودين. تملكني شعور بالقرف كريه. صببت لنفسي كونياكاً واحتسيته دفعة واحدة. لم تحوّلْ دادونا نظرها عني، فنهضت بسرعة واقتربت مني، وقالت راجية:

- دجاكو، لا تشرب، ما من ضرورة لذلك!

- لا تخافي، دادو، لن أسكر. أقسم بحياتك! - ابتسمتُ - لا أشعر بالراحة.. عبثاً جئت إلى هنا.. ألا ترين كيف ينظرون إليّ ؟

- يا للأهمية، ينظرون!! فلتبصق على هذا. لكنك فعلاً إنسان غريب، ما كان ضرّك لو غيّرت بزتك ؟!

- وما السيئ في بزّتي العسكرية ؟

- لا بأس، لا بأس.. أرجوك، أن تضبط نفسك فحسب!

- أقسم لك، لن أنبس بكلمة، خاصة أنني ((أكلتها)) مرةً من هذا الخنزير أنزور..

على أنغام (البلوز) اللطيفة، البطيئة كان يدور عدة أزواج في الغرفة راقصين بهدوء كما الأشباح. وفي أعلى السقف كان يسبح ضباب أزرق من دخان السجائر، كغيومٍ بعثرتها الريح. ومن وقتٍ لآخر كان يلعلع هتاف أو ضحكات غيفي المرحة.

- نيللي! - استدعتها دادونا - تعالي إلينا!

اقتربت منا فتاة طويلة جميلة. تغزّلت دون شعور مني بعينيها - عينان واسعتان حزينتان كما في الصور الجدارية الغروزينية القديمة.

قدّمتنا دادونا - أحدنا للآخر.

- فلتتعارفا! هذه نيللي وهذا دجاكو - أفتانديل دجاكيلي - صديقي.

ابتسمت نيللي وقالت:

- أعرف!

ملأت دادونا ثلاثة كؤوس وقالت:

- دجاكو، اليوم عيد ميلاد نيللي فلنشرب نخب صحتها!

- فلتلازمك الصحة والسعادة، ولتعيشي مئة سنةٍ أخرى!

- أوه، هذا كثير! - قالت نيللي.

- وكم عمرك الآن ؟

- عشرون عاماً - ضحكت نيللي فابتسمت دادونا مرة أخرى.

- إن ضحكت أم لم تضحكي فعمري واحد وعشرون عاماً لا يزيد يوماً - أعلنت نيللي.

- حسن، في مثل هذه الحال فلتعيشي إذاًتسعا وسبعين سنة أخرى - تمنيت لها ذلك وجرعت الكأس.

- شكراً - قالت نيللي وجلست بقربي.

سألتني:

- أتخدم في الجيش ؟

- نعم.

- هل خدمتك جيدة ؟

- طبعاً.

- وما وجه الجودة هناك ؟

- ماذا أقول.. شقة مجانية، تغذية مجانية، كساء مجاني.. قص شعر، حلاقة، حمّام ـ كل شيء مجاني حتى الصابون.

قهقهت نيللي.

- اي.. ي.. أنتم هناك، علام تضحكون ؟ حدّثونا أيضا، وسنضحك معاً ! – قال غيفي بصوت مرتفع واتجه نحونا.

- يحدثنا دجاكو عن ظروف الجيش الحياتية ـ المعيشة ـ أجابته دادونا.

- آ.. ما الذي يحدث في الجيش ؟ - توجه غيفي بسؤاله إليّ، فقدمت له تقريري الصحفي:

- المستوى الأيديولوجي ـ السياسي لجيشنا عالٍ، انضباط ممتاز، تسليح رائع، جاهزون لتوجيه الضربة المميتة لكل معتدٍ!

- ياه، شكراً لك ـ قال غيفي فرحاً ـ قد أثلجت صدري. وإلا، كما تعلم، منذ أن حطّ الأميركيون على سطح القمر وأنا أخشى أن يقذفونا ؛ وهذا أمر مخيف ؛ بشيء ما من الأعلى، آ ؟ إذاً، كل شيء على ما يرام ؟

- كل شيء على ما يرام! ـ أجبته.

- وكيف هو الوضع في فيتنام، أيها الجنرال ؟ - سألني غيلا. كنت أشعر طوال الوقت بنظرته الساخرة. لاحظت تهامسه مع الفتاة ذات الأنف الأفطس. واضح أنه يسخر مني لاسيّما أنه تذكّر كيف هشّمني صديقه أنزور بشكل معيب. تركت سؤاله الغبي دون جواب.

- إذاً، أنتم لا تستطيعون أن تحدثونا عما يجري في فيتنام ؟ ـ كرر غيلا سؤاله.

ضحك أحدهم. التقطت نظرة دادونا الراجية فقسرت نفسي على الهدوء.

ـ فلنستأذن من السيد المحترم غيلا أن يقرأ لنا شعراً! ـ وجهت كلامي إلى نيللي.

- صحيح! هيّا يا غيلا ـ صاحت نيللي.

- نرجو، نرجو ((الحلم)) يا غيلا!

- الليلك الأبيض!

- دموع الخشخاش!

قرصتني دادونا بشكل موجع.

- مرة أخرى ؟ أي إنسان أنت ؟

قال غيلا:

- لم أعد أكتب الشعر!

- لماذا ؟ - سألته.

- تحولت إلى النثر.

- كنت أعلم هذا.

- ومن أين لك هذه المعرفة ؟

- أدركت ذلك من خلال أشعارك.

- نهض غيلا فنهضت أنا.

- اي.. ي، اجلس يا همنغواي! ـ صرخ غيفي بـ ((غيلا)) ـ واجلس أنت يا ((سوفوروف))[1] ـ ووضع يده على كتفي. وفهمت أن من التعقل أن أجلس، ويبدو أن غيلا فكّر هكذا أيضاً فجلسنا.

- نيللي، أتعطيني في نهاية الأمر كأساً مقبولاً ؟ - توجه غيفي بكلامه إلى صاحبة عيد الميلاد ـ ارفعي هذه الكشتبانات وإلا سأرمي بها من النافذة!

---

(1) قائد عسكري روسي قديم حقق انتصارات باهرة لروسيا وحمى حدودها – المترجم

- فظّ، بدائي! ـ قطّبت نيللي.

- هذا صحيح، هيّا هاتي الكأس بسرعة!

أحضرت نيللي كؤوساً مضلعة، فملأها غيفي على الفور بالكونياك.

- هذا غير معقول، حقيقة الأمر! فليشربْ كلٌّ على هواه ـ قال كوكوري الذي لم ينبس بكلمة حتى اللحظة.

- أنا لا أجبر أحداً يا عزيزي! لا تريد، لا تشربْ. أتشرب ؟ - توجّه غيفي إليّ بسؤاله.

- طبعاً.

- أثني عليك! فلنشرب نخب وصولك، نخب تعارفنا!

أفرغ كأسه بجرعة واحدة، أمّا أنا (فتمزمزت) بالكونياك.

-.. من جهته! - تناهى إلى مسامعي مقطع من جملة. جرعت بقية الكونياك ثمّ وضعت الكأس على المنضدة وأصخت السّمع

ـ لماذا غير شريفة ؟ ـ تساءلت فيتا.

فأجاب غيلا :

- هكذا! خاصة أنّها في صحيفة مركزيّة.

سألتُ غيفي:

- عمّ يتحدّثان ؟

- عن أن.. صديقنا (غورام) نشر مقالة نقديّة في الصّحيفة المركزيّة..

- بشأن ماذا ؟

- عن كلّ شيء.

- لا أفهم.

- ماذا أقول لك.. عن كلّ شيء. كيف أصبحت البنات عندنا

يشربن ويدخنّ، وأنّ بيننا، نحن الغروزينيين، نعاجاً جرباء يتاجرون بالأزهار في موسكو.. عن الرّشوة.. وكيف أنّ الإنسان الّذي يتقاضى مئة روبل في الشّهر، يشتري سيّارة ويبني ((شاليه)) صيفيّة ولا يُسأل من أين لك هذه الخيرات.. إجمالاً يكتب عن هذا كله.. دعنا منهم ولنشربْ. وهل قرأتها أنت؟

- قرأتها.

- أحقّاً؟ أنت قرأتها أيضاً ؟ - سألتني فيتا.

- أجل، قرأتها.

- أ أعجبتك المقالة ؟

- جدّاً.

- ها، أنت ترى: إنّه من رأيي أيضاً! - التفتت نحو غيلا.

- قد وجدتْ مَنْ تسأل، يا للشهرة! - قال أنزور. ثمّ سألني غيلا:

- نشر قمامة البيت، تلطيخ سمعة بيتك الخاص، هذا برأيك عمل شريف ؟

أجبته:

- طبعاً.

- وأنتِ، هكذا تفكرين ؟ - توجّه بسؤاله إلى فيتا، فأجابته محتدة:

- أو تريد أن يفكّر الجميع كما تفكّر أنت ؟

- ثمّة عيوب لدى الآخرين، لكن مع ذلك لا أحد يصرخ! - قال أنزور برزانة.

- وهذا أمر يضيرهم! - تدخلت مزيا.

- ما من ضرورة لأعلن للعالم أنّ مسخاً في بيتي - قال غيفي - فأنا مثلاً أملك سيّارةً وبيتاً صيفيّاً وأموالاً. مَنْ أزعج بذلك ؟ وأنا أساعد الآخرين. هل هذا أمر سيِّئ ؟

- من أين لك كلّ هذا ؟ - سألته مزيا.

- من أبي.

- ومن أين لأبيك كلّ هذا ؟ ألم تكترث بسؤال كهذا ؟

- اذهبي أنت واهتمّي، أمّا أنا فأبصق على هذا كله.

- الحديث لا يدور حول هذا.. ماذا ؟ ومن أين ؟ - هذا ما سيسرده أولئك في حينه.. عند الاستجواب.. القضيّة هاهنا تنحصر في أمر آخر: حبّ الوطن - قال ذلك كوكوري.

- في رأيك، غورام لا يحب وطنه ؟ - تساءلت فيتا.

- يا له من حب! فضح الوطن في أرجاء الأرض كافّة! الحسنات لدينا تفوق السّيئات كثيرا، فلماذا نكتب عن المساوئ فحسب ؟

- ما لكم تعلّقتم بهذه المقالة وحدها! - تدخلت دادونا - هو ذا صديقنا دجاكو يحب وطنه فذهب يدافع عنه، ببساطةٍ ووضوح.

- يعني أنّه يحب وطنه أكثر منّي ؟ - تساءل غيلا وتلفّت إلى الوراء بكبرياء.

ابتسم الجميع، فقال أنزور بحدّة:

- هكذا، على ما يظهر!

- إليكم ما سأقول - بدأتُ حديثي وأنا أحرص على ألا أنظر باتجاه أنزور، إذ كانت مجرّد رؤية ذلك الثّور المعلوف، تثير الغثيان في نفسي - يستطيع أيّ إنسان أن يثرثر عن الوطن وحبّه.. يجب أن نحب الوطن عمليا.. وما كنت أسميه في السّابق.. (حب الوطن) اتضح أنّه ليس حبّاً على الإطلاق..تبيّن أنّ حبّ الوطن أمر آخر.

- وما هو برأيك ؟ - سأل غيلا مهتمّاً.

وبدلاً من الجواب سألت:

- أنتَ، أيّ وطن تحب ؟

ارتبك غيلا، وتململ في أريكته ثمّ فكّر وقال بهدوء:

ـ أحب الوطن الجميل، النظيف أو على الأقل أحبه أن يكون كذلك.. أمجّد كل ما هو جميل وأكره ما هو سيّئ!

ـ تكره ؟

ـ من كل قلبي.

ـ وماذا تريد أن تفعل بهذا السيئ ؟

ـ على الأقل لن أعرضه على مرأى من العالم، كما فعل غورام، ولن أدقّ على صدري وأقول أنّنا مسؤولون عن كلّ شيء.. وثمّة أيضا فلان قتل فلانا.. فلان سرق فلانا ـ ما علاقتي أنا بهذا كله ؟ فليهتم كلٌّ بنفسه!

ـ طبعاً، نشر الغسيل الوسخ ليس مستحباً. لكن ماذا يضير لو غسلناه أوّلاً ثم نشرناه ؟

ـ أنا لست غسالة، أنا شاعر!

ـ أنا أفضّل لو كنت غسالة!

نهض أنزور.

ـ اجلس! ـ قال له غيفي ـ فالنقاش هو النقاش!

ـ أنت لا تعلم.. قد زهقنا من عظات هذا الأبله.. ذات مرة أفسد لنا سهرة رائعة، وهاهو الآن..

ـ أفي الجيش علموكم حب الوطن بهذا الشكل، أيها الجنرال ؟

– قال غيلا ساخراً، لاذعا.

(آه، كم كنت سأتلذذ لو قذفته بهذه المزهرية الكريستالية!)

ـ أجل، في الجيش! ـ أجبته بهدوء.

ـ طيب. اشرح لنا أي وطن تحب ؟

ـ وطني كما هو في الواقع.

ـ وعلى وجه الدقة ؟

ـ كله، بوجهيه الحسن والسيئ. مفهوم ؟

ـ دجاكو، كيف هذا ؟ - سألتني دادونا باستغراب.

ـ على هذا النحو! الوطن، كما قال أحد الكتّاب، ليس كعكة بالزبيب. الزبيب لي والبقية لغيري. ما دمت تحب وطنك، أحببْه برمته ـ بقشرته وحشوته وزبيبه وبكل أحشائه. أتفهمون ؟ الوطن كلٌ لا يتجزأ، علينا أن نحبه كما هو. مع أن المريض الذي يخفي علته عن طبيبه يموت!

جفّ حلقي نتيجة لاضطرابي وتأثري، فسكبت الكونياك لنفسي بسرعة.

- لا داعي لذلك. لا تشرب! ـ قالت دادونا وغطت الكأس براحتها.

نهضت.

- نخب الوطن ؟ - تساءل أنزور.

أخرجت من جيبي صامتاً ورقة مطوية طيّتين.

- شعر ؟ - ارتعبت دادونا.

كل مَن تذكر شعري الأول ضحك وفق سليقته. انتظرت دقيقة وحين ساد الصمت، بدأت:

- ((ماما الحبيبة!

تلقيت الطرد البريدي والرسالة. ثمة بقعة على الرسالة. بكيتِ، أليس كذلك ؟ علام يا مامتي ؟ ما الذي يقلقك ؟ فأنا لست في الحرب!

هو ذا العام يوشك أن ينصرم وسأعود إليك. أعيش بشكل ممتاز – شبعان، مكتسٍ، محتذ. سينما، رقص، أزور المدينة كل يوم أحد. الجبال والبحر تحت جنبيّ. أجل هنا كل شيء ممتزج معا ـ الجبال، الوديان، البحر، الشتاء، الربيع، الصيف والخريف. أصدقائي ورؤسائي رائعون. جميعهم يحبونني ويحترمونني.

أنـا مـؤهـل ممتاز حربيا وسياسيا. حقيقةً، لم أقبض، بعد، على أي جاسوس. لكن الرائد تشخارتشفيلي وعدني: إذا ما أمسكتَ باثنين من خارقـي الحـدود، سـأعطيك أحـدهمـا. خذه إلى أمـك ـ ماريا بافلوفنا. هل أحـضره ؟ أصـبـح كلبـنـا في البـيـت (باربـوس) هـرماً كـسولاً. سـنربط (خارق الحدود) مكانه ولينبح هنيئا مريئا!

يمتدحني أصدقائي كثيراً. يقولون أهلك محظوظون إذ ربّوك. سبق أن كتبت لـك أن أحـدهـم غـروزيني يدعـى ((دجاكيلـي)) وآخـر من بلدنـا يدعى بارخومنكو ـ قوي كذاك الثور الذي أحضره مدير كلخوزنا من تشيرنيغوف.

أرسل إليك صورة لنا نحن الثلاثة: الأسمر ذو الشاربين ـ دجاكيلي. وغـروزيا، يـا مامـا، تختلف كليّة عمـا تثرثر به (فيدورينا كسينيا)، لا تـصدقيها يـا مامـا، إنها تكذب في كل شيء. من المخجل أن أتذكر ما قالـت. وإن شـئتِ أن تعـرفي فالـشاي والماندرينـا يتطلبـان جهـداً أشـق ممـا يتطلبـه القمـح. طـبعـا، وكـذا الـكـرمة أيـضـا! الغـروزينون، يـا أمـي، سمحـون، لطيفون وأذكياء. يعشقون الغناء كثيرا. " لعن الأم " يغيظهم جداً، ولا يغفـرونه لأحد. لا يبخلون علـى الصديق بشيء ولو باعوا بيتهم. لكنهم يطلبون حباً متبادلاً. ودجاكيلـي شـاب كمـا ينبغـي أن يكـون الـشاب. يـا له من غريب! كل صباحٍ يتغزل بشروق الشمس ويجبرني على ذلـك. فـيمـا يـتعلق بـ ((كـسينيا)) ــ اطـرديها نهائـياً مـن البـيت، لقـد كـذبت، الـسافلة، في كـل مـا قالـت. دجاكيلـي بـلا أم. أريته صـورتك فقـال إنـكِ تشبهين أمّـه. أقـول لـه كـيف يمـكن أن تشبه أمّك أمّي، فهي روسيـة.. لكـنه يقـول أنكمـا متشابهتان في العيون. يعني هـذا ـ صحيح، فهـو لـن يكـذب، وأيـة مـصلحة لـه في ذلـك ؟ عـند الـضرورة يقـسم دجاكيلـي بأمّـه. ((أقـسم بأمّـي!)) يعـني أن الحـقيقة كمـا قـال سـاطعة ناصـعة. وينـسحب هـذا علـى الغروزينيين كلهم. وأيضاً يحب الغروزينيون بلادهـم، يـاهٍ كـم يحـبونها! يشربون نخب غروزيا كأنها أمهم ويبكـون أحيانـاً في أثنـاء ذلـك. وبلادهـم، حقـيقةً، جميلة. لكـنني يـا مامـا أنتظـر

بنفاد صبرٍ عودتي إلى البيت. اشتقت إليكم يا ماما، إلى سهوبنا وحقولنا المحروثة. هو ذا ((طردك)) أمامي. يفوح الخبز برائحة عنبرنا، والمربّى برائحة حديقتنا.

وباختصار يخيّل إليّ ـ يكفي أن أغمض عيني وأعدّ للثلاثة ثم أفتحهما لأجد نفسي في البيت معكم، يا أحبائي!

إذاً، انتظري قليلاً يا أميمتي الحبيبة وسأعود. سأتقدم للمعهد ونعيش معاً.

إلى اللقاء يا أمي الحبيبة. تحياتي إلى الجيران كافة.

أقبلك، ابنك بترو شيربينا)).

طويت الرسالة بحذر وخبأتها في جيبي. جلست وعبأتُ كأس الكونياك حتى الثمالة.

ساد الغرفة صمتٌ مطبق، وكان غيلا أول مَنْ عكّره:

- رسالة حمقاء، كتابة عارية من الموهبة!

- مسقط رأس شيربينا ـ أوكرايينا ـ قلت بصوتٍ خفيض وقد دهشتُ لقدرتي على الصبر ـ تحت المطر وفي القيظ، في السيل والوحل مافتئ، دون أن يغمض له جفن، يتسلقها ويزحف فوقها. كان يحرسها، يحرس أرضنا، يحرس حدودها..

- وماذا في ذلك؟ - هدر أنزور ـ هكذا يتصرف كل منْ يخدم على الحدود! وإجمالاً ليس بالضرورة أن نزحف في الوحل.. يمكن خدمة الوطن بطريقة أخرى.

- أنت، مثلاً، بماذا تخدم وطنك؟

- لم أكن أبلها كالبعض، نجحت في امتحاناتي وها أنذا أدرس.

((أبله)) ـ هذه موجهة إليّ. ابتلعت هذه (الحبّة) أيضاً.

- هذه الرسالة كتبها شيربينا في الثامن والعشرين من أيلول

واستشهد ليلة التاسع والعشرين منه. كان شيربينا يحب أمه، أصدقاءه، وطنه، الشمسَ.. وقد بكى عند مقتل دبّ صغير! كان يحبّ الحياة. أريد أن أشرب نخب شيربينا!

وقفتُ. فنهض، ويا لدهشتي، الجميع.

- ماذا حدث له ؟ - سألني غيفي بصوت خافت.

- ليلة التاسع والعشرين حاول أحد السفلة ممن أسميتموهم ((الثياب القذرة)) أن يتخطى الحدود ويهرب إلى هناك.. استشهد شيربينا في أثناء ملاحقته لخارق الحدود..

صرخ أحدهم:

- ليته هرب! ما دام لا يرغب في العيش هنا. علام عذبتم أنفسكم ؟

- حبذا لو هرب! أليس كذلك ؟ تحسبون أن الأنذال ينقصون واحداً، أليس كذلك ؟ ستصبحون عندئذٍ أنظف ؟ أليس كذلك ؟ هكذا تفكرون، أليس كذلك ؟! - وجمجمت. لم تعد، ثمة، قوة قادرة على كبح الغيظ الذي اجتاحني ـ طبعاً هذا سيّان لديكم! تلك مسألة لا تعنيكم، أبداً. أنتم لا تكترثون بما يعمل الآخر، كيف يتنفس ويفكر! وأنتم تبصقون على مقتل شيربينا! وأنتم علام تحيون ؟ ها أنت تتطرح في الأريكة! وأنت تقبع قرب البيانو! وأنت بايرون، عبقري الشعر! أم أنت أيها الرياضي، أيّ خيرٍ فعلت طوال العامين الماضيين ؟ عاطلون بطالون! أيّ نفع منكم! وبعد كل هذا تتجرؤون على التحدث عن حب الوطن ؟ أبصق عليكم وعلى حبكم!

قذفتُ أحدهم بكأس الكونياك. تمكنت أن أرى، فحسب، كيف نهض أنزور من مكانه. بعدئذٍ قُرعَ فجأة ناقوسٌ كبير، وتذبذبت الثريّا، وعلى السقف ـ تماماً كما حدث ذلك عند دادونا منذ عام ونصف العام ـ دارت وتقافزت نجوم بيضاء وصفراء، حمراء وخضراء.. دارت الغرفة ببطء ثم أسرعت أكثر فأكثر في دورانها. ومرة

أخرى، كما حدث آنذاك، دارت الفيلة الخزفية في أرجوحتها. وكرّةً أخرى لاح الفرسان من شباب وبنات أمامي ممتطين الفيلة. وحده الفيل الأصغر كان بلا فارس. فكّرتُ: ((إنه فيلي! سيوازيني الآن وسأقفز عليه.. الآن.. الآن..)) تجاوزني الفيل فعدوت وراءه.. لحقت به.. أمسكتُ بظهره وقفزت.. وانطرحت على الأرض المغطاة بالسجادة..

- هذا ما يستحقه! ـ تناهى إليّ صوت أحدهم وفجأةً ابتلعتني الظلمة.

.. حين استعدت وعيي، كان الهدوء يخيّم على الغرفة. كنت ملقىً على الأرض ودادونا تمسح بمنديلٍ الدم عن وجهي المهشم. وبالقرب منها وقف غيفي يدلك قبضة يده اليمنى بيسراه. في الزاوية وعلى الأريكة كان أنزور مطروحاً مدمّى والبنات يعتنين به. ((هذا عمل غيفي!)) حدستُ بذلك وحاولت النهوض. ساندني غيفي. تلفّتُ حولي. كانت العيون الذاهلة المرعوبة تحدّق فيّ، وفجأة شعرت بدافع للبكاء.

- لم فعلت هذا.. ما بالك هكذا ؟!.. بصقت علينا جميعاً.. ـ قال غيفي.

- اعذرني.. ـ قلتُ ـ سأمضي..

لم يعقب أحد على قولي. كنت أرغب، أرغب كثيراً أن أسمع منهم ولو كلمة واحدة، مهما كانت. لكنهم صمتوا. أغلقت الباب خلفي وهبطت الدرج. أنعشني بلطف نسيم الليل. شعرت بدوار في رأسي، فجلست على الرصيف تحت إحدى الأشجار.

جلست طويلاً هكذا بلا تفكير ودون أن أدري ما سأفعل. كان رأسي يضج.

فجأة شعرت بيدٍ تلامسني. ((دادونا!)) لمعت الفكرة في رأسي. ولسببٍ ما أحسستُ أنني لستُ في وضعي الطبيعي.

- لا يجوز هكذا.. أنت كثيرا.. حاد الطباع، أليس كذلك!

رفعت رأسي، كان غيفي المبتسم يطل عليّ.

- حسنٌ، هيّا انهض، نحن ننتظرك!

- لا ، لن أذهب!

- فلنمض، فلنمضِ، نحن لسنا مسوخاً إلى ذلك الحد!..

- لا ، يجب أن أمضي!

- سأوصلك!

- لا حاجة لذلك.

- يا لك من غريب! سأوصلك بالسيارة، وإن شئت نعرّج على متسخيتا ؟ موسيقى، شامبانيا، وسواها.. آ ؟ سنمضي وقتنا حتى الصباح، امض معي، أرجوك!

- شكراً، لا أستطيع. إلى اللقاء!

- إلى اللقاء! ــ مدّ غيفي يده. كانت راحته ساخنة واحتفظ براحتي فترةً طويلة:

- أتدري.. لي عندك رجاء.. أعطني تلك الرسالة!..

تطلعت إليه. كانت عيناه ترمقانني بتوسّل.

- أرجوك كأخٍ لي.. لا ترفض طلبي..

أخرجت رسالة شيرينا وقدمتها إليه صامتاً.

- شكراً، شكراً جزيلاً لك!

مشيت دون أن ألتفت وأنا أشعر بنظرات غيفي الثاقبة تلاحقني...

* * *

لم يكن العم فانتشكا قد نام بعد. كان يجلس خلف المنضدة ويلعب الشطرنج مع نفسه.

- ما بك يا فتى ؟ ـ سألني بدهشة.

غطيت وجهي براحتيّ.

- من ((زوّقك)) بهذا الشكل ؟

- ضربوني يا عم فانتشكا ـ تنهدتُ.

- ضربوك ؟ - أعاد سؤاله.

- نعم.

- أرني إنساناً واحداً ضربته! لماذا دائماً يضربونك ؟ - استاء العم فانتشكا.

- ما الذي يمكنك فعله!

- ومَنْ ضربك ؟

- هو نفسه.

- مَنْ ؟

- هو.. ذاك الذي ضربني العام ما قبل الماضي عند دادونا.

- يا له من أمر!.. وماذا هل رشقته مرة أخرى بالكونياك ؟

- لا. لقد شتمت الجميع ـ الضيوف وأهل البيت.. قلت أرغب في أن أبصق عليهم، وقذفت الكأس في وجوههم..

- ولماذا ؟

- لا أدري..

- أكنت محقاً ؟

- أعتقد، نعم.

- ثم ؟

- ثم اعتذرت ومشيت..

- وعلامَ اعتذرت ؟

- لأنني لم أكن محقاً تماماً..

صمت العم فانتشكا ثم عاد إلى شطرنجه. نظرت إلى الرقعة.. كان العم فانتشكا ينتصر. امتدّ الصمت بضع دقائق. وأخيراً قلت:

- أعتقد أن (غيلا) وزميله الرياضي ليسا جيدين!

- وما الذي أدراك، مَن هو الصالح ومَن هو الطالح ؟ - سألني العم فانتشكا.

- (غيلا) يكتب شعراً سخيفاً.

- هذا ليس إثماً.

- ويتظاهر بالعبقرية.

- وهذا أيضاً ليس جرماً!..

- أما الثاني فأبله حقيقي!

- أن يكون الإنسان غبيّاً ـ هذا أيضاً ليس بذنب!

- قد سخرا منّي!

شملني العم فانتشكا بنظرته وابتسم.

- العب معي!

- ما الفائدة من اللعب، سأخسر!

- العب بالحصان.

ولعبت بالحصان.

- وأنت، ألم تفكر بأنك قد تبدو أحياناً مضحكاً ؟ - سألني وتقدّم بالبيدق.

- فكرت..

- حسن، لماذا تعدّهم سيئين وأنت جيد ؟ أتدري أنت ما هو الإنسان الجيد ؟.. العبْ!

تقدمت بالبيدق دون أن أفكر.

- خطوة سيئة! ـ نبّهني العم فانتشكا.

- لا أرى أفضل منها!

خلط العم فانتشكا الأحجار وتنهّد.

- تلك هي المصيبة، أنك لا ترى.. أجب: أتدري مَنْ هو الإنسان الجيد؟

- أنت مثلاً! ـ قلت بإخلاص وأمانة.

فكّر.

- أعرف أنني أعجبك.. لكن هذا وحده لا يعني شيئاً.

- لماذا؟

ابتسم العم فانتشكا:

- لأن ذوقك مشكوك فيه على الأقل.. كلٌّ يفهم الصالح والطالح وفق منظاره.. هاك، اسمع: منذ فترة وجيزة وجدتُ في الشارع مئة وخمسين روبلاً.. طبعاً سلمت المبلغ للشرطة.. في اليوم التالي قرأت في الجريدة فقرة بعنوان (يُقتدى بهم) مفادها أن المواطن ((إ. س. كوتينوف)) وجد نقوداً في الشارع وقدمها لرجال الشرطة. اقتدوا به.. وما شابه ذلك. أتفهم؟ يمدحونني لأنني لست لصاً، ولم أستأثر بأموال الآخرين!.. مثال آخر: منذ شهر مضى، وجد أحد معارفي، وهو يحفر في حديقته الخاصة (برشاً) يحوي روبلات ذهبية نيقولاتية[1] من فئة العشرة روبلات. قدمها للشرطة.. وزنوها ـ تسعمئة غرام. لم يكتبوا عنه في الصحف ولم يشكروه. بل تعلقوا بذاك الزميل: هات المئة غرام المتبقية. آ؟ افهمْ بعد هذا: مَنْ هو الإنسان الجيد ومَنْ هو السيئ!

نهض العم فانتشكا، راح يتمشّى في الغرفة. نهضتُ أنا أيضاً وبدأت بتهيئة حقيبتي.

- ستتمكن من تجميع أغراضك. الأفضل الآن أن تمسح شفتيك بدواء مطهر وتنام! - نصحني العم فانتشكا.

---

[1] نيقولاتية: نسبة إلى القيصر نيقولاي. ـ المترجم.

- يجب أن أسافر، أيها العم فانتشكا!

- إلى أين يا فتى ؟

- إلى موقعي، على الحدود.

- كيف ((إلى الحدود)) ؟ ألم تأتِ لمدة أسبوع ؟

- أجل. لكنني أتوق للعودة.. ليس لديّ ما أفعله ها هنا..

- أجننت ؟ ماذا سأقول لـ ((شورا)) ولجدّك ؟: وصل، تشاجر، شوهوا وجهه ثم عاد إلى قطعته.. هكذا، أليس كذلك ؟

- عموماً لا تخبروا جدّي مطلقاً عن مجيئي. وأي معنى لذلك ؟ بعد نصف عام سأعود نهائياً..

- ربما غيرت رأيك، آ ؟

- لا يا عم فانتشكا، لا تلحّ عليّ من فضلك. يجب أن أسافر.

- اسمع يا فتى، ربما كنت قد أزعجتك بشيء.

- أمر لا يُعقل يا عم فانتشكا العزيز! على العكس أنا شاكر لك كل شيء ـ تقدمت منه وقبّلته في وجنته.

- بأية واسطة نقل ستسافر ؟ - سأل العم فانتشكا فاركاً عينيه..

- سأصل بطريقةٍ ما..

- حسن، سافر يا بنيّ ـ قال ذلك بعد فترة قصيرة من الصمت.

أخذت حقيبتي وتوجهت نحو الباب، وقبل أن أخرج، التفتُّ وسألته:

- عم فانتشكا، ماذا تعتقد ـ أي إنسان أنا ؟

انتظرت الجواب بقلق. فكّر العم فانتشكا ثم علت وجهه ابتسامة طيبة، ورفت عيناه الزرقاوان بمرح:

- أنت لست إنساناً بعد، يا عزيزي. أنت مجرد فتى، فتى طيّب. الأصح ـ أنت عجينة طيبة تحتاج للمزيد من العجن. أفهمت ؟

- غير معقول أيها عم فانتشكا ؟ - قلت ساخراً ـ أعتقد أنهم

عجنوني بما فيه الكفاية!

- انتظر، سيأتيك الأشدّ! ـ واستغرق في الضحك بصوت عال.

- حسن، إلى اللقاء يا عم فانتشكا.

- لازمتك العافية يا بنيّ!

كانت أوراق الدلب والأقاصيا تخشخش في ظلمة السحر. وكان النسيم العليل يداعب وجهي بحنان. ومن هنا وهناك كان النور ينبعث من النوافذ. بدأت تبيليسي تستيقظ من سباتها.

* * *

حين وصلت إلى القرية، كان الظلام قد حلّ. عادة ينام الناس في القرية باكراً، لذا كان السكون يلفّ كل شيء. والنور يبصّ من بعض النوافذ هنا وهناك. في المفرزة لا أحد ينتظر قدومي، وما من دافعٍ يحدوني للسرعة. كنت أسير متمهلاً في الجادة، أعبّ بلذة الهواء الليلي الرطب المشبع بعبير البحر والحمضيات الناضجة. على جانبي الطريق كانت تمتد أشجار الماندرينا المثقلة بالثمار الذهبية. دخلت حديقةً، عبأت جيوبي بالماندرينا وتابعت طريقي. ها هو مجلس القرية، وهنا على اليمين منعطف، وبعد ما يقارب المئة خطوة تتراءى ثكنتنا. لكن لسبب ما حدتُ عن الجادّة وسرتُ في الشعب الضيّق الذي يتسلق التل متعرّجاً. ودون أن أعي بوضوح إلى أين وعلامَ أذهب، سرعان ما وجدتُ نفسي أمام مدخل بيت فريدة. تلفتُّ حولي وقلبي يضجّ بعنف كأنني لصّ، وحين تأكدت من أن أحداً لا يراني فتحتُ البوابة بهدوء. واقتربت من البيت على رؤوس أصابعي. كان النور مضاءً في إحدى غرف الطابق العلوي. وضعت الحقيبة تحت الدرج وبدأت أصعد السلم. توقفت أمام الباب ملتقطاً أنفاسي. كانت ركبتاي تهتزان وقلبي يكاد يخرج من صدري.

- فريدة!ـ ندهتها ممسكاً بقبضة الباب. أعادني لمس المعدن البارد إلى صوابي.

- فريدة!ـ كررتُ ندائي.

حافظت الغرفة على صمتها.

- فريدة!ـ رفعت صوتي وضغطت قليلاً على القبضة. انفتح الباب صارفاً. دخلت الغرفة وأغلقت ورائي الباب واستندت إليه بظهري. لا أحد في الغرفة. كان، ثمة، على الأريكة الواطئة شال نسوي يشعّ ببياضه وكتاب مفتوح. والحطب يفرقع في الغرفة.

- فريدة! أين أنت ؟ اخرجي!ـ قلت بضراعة ـ هذا أنا أفتانديل دجاكيلي.. اخرجي، سأنظر إليك، فحسب ثم أمضي. أقسم بأمي!

- ماذا تريد يا فتى ؟ لماذا جئت ؟ - جاءني صوت فريدة الخافت من الغرفة المجاورة.

أحسست بقلبي يخفق في صدري فرحا وكيف زفرت رئتاي مستريحة، وبدبيب الدفء يسري إلى راحتيّ.

- لا أريد شيئاً يا فريدة. أريد أن أنظر إليك لا أكثر، اظهري أرجوك!

كحورية بحرٍ أسطورية، كملاك هبط من السموات دخلت فريدة الغرفة. اقتربت من المدفأة، دون أن ترفع نظرتها الحذرة عني، ثم جلست على الكرسي باسطة يديها الطويلتين الجميلتين فوق ركبتيها.

- حسن، ماذا تريد ؟ ـ تساءلت فريدة.

أردت أن أتقدم منها لكنني لم أستطع أن أتحرك من مكاني. فقالت مؤنبةً:

- قد رجوتك ألاّ تأتي إليّ!

- رجوتِ. لكنني لم أستطع أن أتغلب على نفسي.. ها قد جئت إليك، رأيتك، وها أنا ذاهب..

- رأيتني ؟ والآن اخرج.

- لا تطرديني، فريدة، سأبقى دقيقة أخرى..

- لكنك سافرت إلى تبيليسي ؟

- لم أتحمل البقاء هناك. لم أستطع الصبر بدونك!

- تكذب!

- لماذا رجعتُ، إذاً ؟

- هذا ما لا أعرفه..

- حسن. أعرفي، قد عدت بسببك.

ابتسمت.

- لمَ تبتسمين ؟

- لأنك تلفق هذا كله..

- أنا لا أكذب. فيما مضى، حسبت أنني معجب بك. أما الآن فقد فهمت أنني أحبك.

- متى (لحّقتَ) وأحببتني ؟

- طوال عامين.. اتضح أنني أهواك طوال عامين.

- لا تتحدث هكذا أيها الشاب.. إذا ما صدّقتك فجأة، ماذا سيحصل عندئذ ؟ المزاح لا يجوز هكذا مع المرأة! ـ قالت بجديّة.

- فريدة، أقسم بأمي، لا أمزح. أنا أحبك كثيراً - كثيراً.

- لكن ألا تسألني رأيي ؟

- لهذا جئت إليك!

- فلتعلم أيها الشاب أنني لم أصحُ بعد من ذلك الحب.. لا تهلكني ولا تفضحني.. لا تأتِ إليّ. لماذا نقدم للناس مادةً للأقاويل عن شيء لم ولن يحدث البتة ؟!

- لم يرني أحد، يا فريدة، ثم أي ضير وأي عارٍ في كوني أحبك؟

أتريدين أن أصرخ. بملء فمي كي تسمع القرية كلها ؟

- أفتو، هل تفكر بما تقول ؟.. أنت لا تزال فتياً ولا تقوى على حبي!.. لا تهلكني، لا تجنني! كفاني حزناً! ـ ارتجف صوت فريدة، اغرورقت عيناها بالدموع. اقتربت منها، ركعت أمامها على ركبتي كأنني أمام أيقونة.

- فريدة. حبيبتي، أحبك أكثر من أي شيء في الكون. أحبك أقوى مما أحب نفسي. أنا لا أكذب يا فريدة، لست صغيراً بدرجة أنني لا أفهم.. ثقي بي، يا فريدة، ثقي! وأحبيني، أحبيني!.. ـ احتضنت ركبتيها وأشبعتهما لثماً.

- اهدأ، يا أفتو، اهدأ.. أصدقك، أصدقك.. لكن لا حاجة لهذا، صدقني أنت أيضاً، لا حاجة لذلك!.. فكِّرْ بي، أشفق عليَّ، أشفق!.. ـ تركت ما في يدها وراحت تداعب رأسي بحنان. بكيت من السعادة، السعادة غير المحدودة التي غمرتني بها. بعد أن هدأت، نظرت إلى فريدة. كانت تبتسم والدموع تسيل على خديها الشاحبين.

- انهض، يا أفتو، تنحَّ!

نهضت، مشيت متثاقلاً إلى المنضدة، وجلست. تبادلنا النظرات طويلاً كانت فريدة البادئة بالحديث:

- لا تنظر إليَّ هكذا، لا تنظرْ! كم مرة سأطلب منك ذلك! ـ وغطت وجهها بيديها ـ أنا أعرف كل شيء – لماذا أعطوك إجازة إلى تبيليسي، وكيف مات شيرينا، وكيف قبضتم على خارق الحدود.. أعرف كل شيء.. أعرف أنك شاب طيب وأن شيئاً ما ينقصك، لعله الحب.. أنت تبحث عنه ففكرت أنك وجدت حبي.. لكن مالا أعرفه ـ هل حقا رجعت من المدينة لأجلي ؟.. ولذا أخاف.. أخشى أن تكون نفسك غير واثق من هذا.. ـ وانقطع صوتها.

وقفتُ.

- لا تقترب! ـ صرخت فريدة.

- فريدة!..

- أخرجْ، أفتو، دعني وحدي، أخرجْ..

- حسن، سأمضي، يا فريدة.. اسمحي لي أن آتي إليك مرةً أخرى.. هكذا ببساطة ـ آتي وأتطلع إليك..

- أخرجْ، ولا تسألني الآن عن أي شيء.. فيما بعد..

- إلى اللقاء، فريدة!

- أخرج، بحق الإله، أخرجْ يا أفتو..

* * *

بعد موت شيربينا، أرسلت القيادة جندياً معتدل القامة ممتلئ الجسم، عتريساً. دخل الغرفة بهدوء ووقف بتردد بجانب سرير شيربينا. كنا نلعب، أنا وبارخومنكو، الشطرنج.

- مرحباً! – ووضع حقيبته على الأرض. هززنا له رأسينا وتابعنا اللعب.

- أرسلني إليكم المساعد زودوف بأمرٍ من الرائد تشخارتشفيلي! – قال ذلك بصوتٍ خافت.

نهض بارخومنكو.

- ما اسم عائلتك؟ - تساءل وهو يشمل الوافد الجديد بنظرةٍ متفحّصة.

- لوغوفوي، فلاديمير بتروفيتش.

- من أين؟

- من ((سربوخوف)).

- أنهيت الدورة؟

- طبعاً.

- حسن، تعال إلى هنا!

اقترب لوغوفوي.

- اجلس ـ قال بارخومنكو وجلس خلف الطاولة.

- اجلسْ، اجلسْ! ـ ثم شمّر عن ساعده.

جلس لوغوفوي. فكّ بارخومنكو عروة كمه الأيمن وثبّت مرفقه على المنضدة.

- أعطني يدك!

بدايةً تردد لوغوفوي، ثم فكّ عروة كمه ومدّ يده.

- شدّ حالك! أيها الشاب. سنرى أية نسورٍ في سربوخوف!

وغرقت يد (لوغوفوي) في راحة بارخومنكو الضخمة.

- دجاكيلي! عدّ ـ قذف بارخومنكو كلماته إليّ.

- واحد، اثنان، ثلاثة!

وفي اللحظة ذاتها ارتجفت اليدان فوق المنضدة متشابكتين في صراع مرير. مرّت دقيقة ثم أخرى فثالثة.. احمرّ وجه بارخومنكو وانتفخت العروق في جبهته الواسعة.. زفر بصوتٍ مسموع وفتح فمه بشراهة؛ كسمكةٍ قذفت من الماء، مالئاً رئتيه بالهواء المنعش. بدت تلك الحركات مميتة له.

بدأت قبضة لوغوفوي تميل قليلاً ـ قليلاً نحو اليسار ثم راحت تقترب رويدا ـ رويدا من سطح الطاولة ضاغطة قبضة بارخومنكو.

امتقع لون لوغوفوي واحتقنت عيناه السماويتان بالدم وبعد هنيهة سقطت يد بارخومنكو على الطاولة بخبطة خافتة.

مسح لوغوفوي العرق عن وجهه. وجلس بارخومنكو دون حراك، وهو يتنفس بصعوبة وراح ينظر إلى راحته مبهتا.

- مَنْ أنت ؟ - أخيراً تساءل بصوت واه.

- بطل سربوخوف في رفع الأثقال - أجاب لوغوفوي وهو يبتسم ابتسامة تنم عن شعور بالذنب.

- لماذا لم تقل هذا فورا ؟ كادت أمعائي تتقطع! - نهض بارخومنكو وجلس على السرير.

- بسيطة.. أنت أقوى مني، مجرد أن يدي متمرنة - قال لوغوفوي مطمئناً إياه.

- متمرنة ؟ - لا، ليس هذا فقط بل.. - برطم بارخومنكو - وهل تخاف الكلاب ؟

- أي شيء فيها يخيف ؟

- إذا كان الأمر كذلك، فلتكن من الآن فصاعداً (صاحب الكلب)!

- كما تشاؤون! - قال لوغوفوي موافقا.

- والآن فلنتعارف! - أنا بارخومنكو، وهذا دجاكيلي - أقدمنا.. قد تصافحنا، أنا وأنت، صافح، الآن، دجاكيلي!

وقف لوغوفوي وحيّاني ومدّ يده. شددت على يده القوية واللينة بشكل مدهش.

- والآن، استرح. مناوبتنا ليلاً - قلت له ذلك وعدت إلى الشطرنج.

جلس لوغوفوي على سرير شيربينا وأخذ ينزع جزمته. نظر بارخومنكو إليّ بعد أن سمع صريف السرير، فحوّلت بصري. نهض بارخومنكو وراح يتمشّى في الغرفة ثم شرب جرعة من الماء والتفت إلى لوغوفوي:

- فولوديا![1]

---

[1] فولوديا: تصغير لاسم فلاديمير - المترجم.

- أسمعك!ـ ورفع رأسه.

- فولوديا، من فضلك لا تنم على هذا السرير.ـ نظر (لوغوفوي) نظرة مستفهمة، إلى بارخومنكو ثم إليّ.

- أرجوك.. على هذا السرير لا ينام ولا يجلس أحد.. هذا، أتفهم، إنه سرير شيربينا..

نهض لوغوفوي عن السرير بسرعة وراح يسوي من وضع البطانية المجعدة.

- لا تزعل يا فولوديا ــ تابع بارخومنكو كلامه ــ شيربينا.. أسمعت عنه؟ نمْ هناك على سريري، استرح.. سأحضر، في التو، سريراً جديداً.. المهم ألاّ تزعل.. أرجوك، حسنٌ؟

- ما هذا، أيها الشابان!.. اعذراني، فأنا لم أكن أدري.. اعذراني!ــ واحمرّ لوغوفوي من شدة التأثر. شعرت بغصةٍ تمسك بحنجرتي، فاستدرتُ. شرب بارخومنكو كأساً من الماء وخرج من الغرفة. ووقف فولوديا حاملاً فردة الجزمة بيده، ممتقع اللون، مرتبكاً.

* * *

ليلةٌ تموزية مقمرة حارة.. نجلس أنا وبارخومنكو ولوغوفوي في المخفر الأمامي فاتحين ستراتنا، ونحدّق في البعيد. لا حاجة بنا للمنظار الليلي، فالقرية مضاءة بأشعة القمر الفضيّة، كأنها على راحة اليد.. لا شيء يعكّر السكون سوى الكلب المنهك تحت وطأة الحر الذي يلهث بصوتٍ مسموع ماطّاً لسانه..

عادت الحياة على الحدود إلى مجراها الطبيعي. من جديد امتطت الأيام الهادئة الآمنة المتشابهة. منذ أسبوع مضى، انهمر وابل من المطر، اضطرنا لإعادة تسوية الأخاديد العرضية في منطقة المراقبة وإصلاح شبكة الاتصالات المتضررة.. وها قد هبّت الحرارة من جديد ـ لا تجد سبيلا لتحاشيها..

أنهى كاتبنا خدمته وعاد إلى تبيليسي. على أية حال، كنّا قد اعتدنا عليه. لا أدري هل ألّف من بنات خياله أم قال الحقيقة لكنه قصّ علينا أشياء ممتعة. المفرزة بأكملها ودّعته باحتفالية رسمية، تضمّنت الأوركسترا والرقصات والأغنيات. في تلك الأمسية حدث أمر غريب: حضرت فريدة الاحتفال. لم تغن ولم ترقص بل جلست وتفرجت صامتة. أردت أن أقترب منها، لكنها أمرتني بعينيها ((لا تتجرأ على ذلك!)) فرضخت للأمر. بعدئذٍ غادرت. امتدت الحفلة حتى منتصف الليل. وفي الختام صعد ميناراردزه إلى خشبة المسرح وألقى كلمة الوداع.

شكرنا الكاتب جميعاً، ولفق قصصا طويلة، زاعما أنه سيكتب عنا وعن الحدود. وماذا سيكتب؟ فما من شيء يستحق الكتابة! ثم من سيدقق فيما يكتب؟ كان الله في عونه! فليكتب ما شاء، المهم أن يأتي ما يكتبه سلساً حتى وإن كان قليلاً. قال سأكتب عن شيربينا. سنرى..

* * *

في الجهة المقابلة أطلقوا شهابا أبيض. ارتفع عالياً في السماء، تعلّق لدقيقة فوق القرية، ثم هوى إلى الأسفل بشكل لولبي، في منتصف مسيره انطفأ ثم سقط في مكان ـ ما بين الأدغال. قفز الكلب.

استلق! ـ أمره لوغوفوي، فاستلقى الكلب خانعا.

* * *

.. أجل، بشأن الكاتب.. ودّعناه، ومن جديد خيّم الملل والرتابة كسابق عهدهما. الحقيقة أن مجموعات السياح تكاثرت علينا في الآونة الأخيرة، بل، في بعض الأيام، نستقبل ثلاثة أو أربعة أفواج.. نجيب

علـى الأسـئلة ذاتهـا. كـان شـيربينا يحـسن الـتعامل معهـم، لكنـنا وبارخومـنكو لا نـتقن ذلـك.. أمـا لوغوفـوي فقـد أنهكـه، أخيـرا، ذاك الكلب الغول..

* * *

انطلق شهاب آخر. فقال بارخومنكو:

- ما بهم، هناك، هل سُعروا، أم ماذا ؟

عقبّتُ قائلاً:

- ربما يبحثون عن شيء ـ ما!

فأضاف لوغوفوي:

- أرى أنهم يفعلون ذلك مللاً!

فاقترحت:

- لننهض ولنتجول في قطاعنا!

مشى لوغوفوي وكلبه في المقدمة، وتبعناه. ما إن اقتربنا من الجسر الصغير حتى أطلق الأتراك الشهاب الثالث.

- ثمة أمر مريب، هل أخابر قيادة المفرزة ؟

فعلّق بارخومنكو:

- علام ستهتف إليهم ؟ ألا يرون هذا بأنفسهم.

رفـع البندقـية عـن كـتفه ووسّـع خطـاه. اقتربـت مـن عمـود الهاتـف ورفعت السمّاعة:

- المناوب يستمع!

- يتكلم دجاكيلي. يطلق الأتراك شهباً!

- أعرف.

- ماذا علينا أن نفعل ؟

- قوموا بالرصد! ـ وأغلقت الهاتف.

وصلنا إلى نهاية قطاعنا، وعدنا أدراجنا. وما إن جلسنا في مخفرنا حتى ارتفع شهاب آخر من الجهة المقابلة. ظلّ مشتعلا هذه المرة حتى مسافة قصيرة من الأرض ثم هوى ناشّاً بالقرب من مرصدنا.

- يا لهم من أوغاد! قد أطالوا في هذه اللعبة! ـ قال بارخومنكو. وأخذنا راحتنا في جلستنا.

- ألا ندخّن! ـ اقترح بارخومنكو.

أخرجت علبة (بريما) المجعدة وأخذت منها السيجارة الأخيرة. آه، حبذا لو جاء إلينا الآن الكاتب مديناراذزه. لقد استهلكنا، بكل نزاهة، طوال شهرين كاملين مخزونه الذي لا ينتهي من ((الكانت)). لو جاء لاستمتعنا بشكل رائع!.. لكن، لا بأس فنحن مضطرون للاكتفاء بـ ((أمّنا)) البريما!.

قدحت عودا من الثقاب، وفي اللحظة نفسها هبّت نفحة من الهواء وأطفأت اللهب. تطلعت نحو السماء. كانت ثمة غيوم بيضاء مبعثرة تسبح باتجاه البحر. أحقاً نحن مقبلون على المطر ؟ وهل سنعيد حفر الأخاديد في منطقة المراقبة ونصلح شبكة الاتصالات والدرجات في السلالم كرّةً أخرى ؟.. توقعات لا تثير الفرح! أشعلت السيجارة بطريقة ما.

واشتدت الرياح.

- رائع! أخيراً تنفست الصعداء! ـ قال بارخومنكو برضىً مواجهاً الرياح بصدره المفتوح. وفجأة التفت إليّ:

- اي.. ي، يكفيك!

ناولته بقية السيجارة. عبّ منها طويلاً. شرق بالدخان.

- يا للشيطان! هذا سلّ وليس تبغاً.. هاك ـ وقدّم إلى لوغوفوي البقية الباقية من السيجارة.

- وهل أنا منفضة دخان؟ لم يبقَ ما يُدخن ـ قال لوغوفوي ومع ذلك أخذ العقب.

- السيجارة ليست كلباً، هي لا تتبعك من تلقاء نفسها. يجب شراؤها! ـ بلهجة واعظة قال بارخومنكو.

غدت هبّات الرياح أكثر شدة.

- لا تعجبني هذه الموسيقى، يا أخوتي! أشتمُّ منها رائحة المطر! ـ قطّب لوغوفوي جبينه.

- هذا ما ينقصنا! ـ عقّب بارخومنكو على كلامه.

وقذفت هبّة جديدة من الريح بالتراب في وجوهنا من منطقة المراقبة المحفورة منذ فترة وجيزة.

- فلتذهب في داهية! ـ صرخت وأنا أفرك عيني. وفي اللحظة نفسها علت صرخة لوغوفوي الهلعة:

- النار، يا شباب!

قفزنا. كانت ألسنة اللهب تتماوج مقابل مرصدنا، حيث سقطت الشهب التركية منذ قليل.

- الشهاب، يا بارخومنكو! ـ صرخت.

- أي شهاب؟ - تساءل وهو يمسك علبة الصواريخ المضيئة.

- الأحمر.

علا شهاب في السماء وأضاء الحدود بلون أرجواني. هرعت إلى الهاتف.

- المناوب يستمع!

- أنا دجاكيلي!

- ماذا يحدث عندكم ؟ لمن هذا الصاروخ ؟

- صاروخنا، هنا حريق. أعطني الرائد.

- أيها الرفيق الرائد! يخبركم المجند دجاكيلي. قد شبّ حريق!

- أين ؟

- تحت المرصد مباشرة.

- الحدود ؟

- أظن، ليست حدودنا.

- أخبر كل القطاعات. أنا قادم إليكم!

بعد خمس دقائق، كان عند المرصد.

- قف! مَنْ القادم ؟

- تشخارتشفيلي.

- كلمة السرّ ؟

- بصق غيظاً، لكنه أجاب ((نورس)).

- كلمة التعارف ؟

- خشخاش.

- أين الحريق ؟ - ركض تشخارتشفيلي نحوي.

لم أحتجْ لأية إشارة. إذ كانت ألسنة اللهب تتواثب من حرج إلى الأحراج التالية بسرعة لا تصدّق ملتهمة، وهي تفرقع، كل شيء في طريقها، وقد اقتربت من الأعمدة المنتصبة على طول الحدود.

- إذا ما التهمت النيران الأعمدة، ضعنا هباء! ستصل حتماً إلى المباني. أعطني السماعة.

وصل الخط في لحظة:

- أيها المناوب، أعلن النفير. أخبر زودوف أن يحضر ديناميتاً وقنابل يدوية. أين الضباط ؟ فليأتوا جميعاً إلى هنا.. دلاء.. دلاء بسرعة!

بعد دقائق معدودة، كانت المفرزة جاهزة، والنيران يزداد أوارها ـ تجري باندفاع من شجرة لأخرى لاعقةً الأرض وحواجز الأسلاك الشائكة. ولع العمود الأول، كما لو كان شمعة. وفي الجهة المقابلة، فجأة اضطرمت النيران في بيت مغطى بالألواح الخشبية. عوت الكلاب وعلا عويل نسائي مفتتٌ للقلوب. وتراءت ظلال العساكر.

- الجميع، إلى النهر! ـ أمر تشخارتشفيلي.

اندفعنا نحو الماء. شكّلنا سلسلة ورحنا ننقل بسرعة دلاء الماء من شخص لآخر. والنيران تئز وتجيش، والأشجار التي استباحتها الحمم تئن، كما الأحياء، وتهوي إلى الأرض مفرقعة، مطلِقة حزماً من الشرر. غامت الأعين بالدخان الكثيف الحاد. وأكثر فأكثر ازداد التنفس صعوبة. كنّا جميعاً نعمل متناسين الخطر ـ هذا بدلوهِ وذاك بمعوله، وبعضنا عزّل. نصارع الطبيعة المتوحشة ساعين للإجهاز على ألسنة اللهب، التي كانت ما إن تخمد في مكان حتى تندلع بقوة جديدة في مكان آخر. أتت النيران على عدة منازل في الجهة المقابلة.

واختلط الحابل بالنابل.

- أنقذوا البيوت!

- الجدران، أغرقوا الجدران بالمياه!

- احترس!

- إليّ، يا شباب!

كنت أجري كالمجنون، أحمل دلواً، أحفر الأرض، أصرخ، أصطدم مع البعض. المطر! حبذا لو يسقط المطر الآن! لكنه لم يهطل. وحولنا تئز النيران.. خارت الأبقار وعوت الكلاب.. ومن هنا وهناك كانت تتعالى نتف من اللغات الروسية والتركية والغروزينية واللازية.. فجأة شعرت أنّ كتفيّ قد تحررتا من حملٍ معتاد. ((البندقية الرشاشة)) لمعت الفكرة في رأسي واندفعتُ إلى الحرج الملتهب مغطياً البندقية بجسدي.

شممتُ رائحة شياط، واخترقني ألم حاد من أخمص قدمي حتى رأسي. استنشقت الهواء، شرقت بالدخان وشعرت، وأنا أفقد وعيي، بيدٍ قوية تسحبني من نطاقي وتخرجني من النار وتلقي بي إلى الأرض.

- غطوّه بأي شيء، بسرعة، اخمدوا النار! ـ تناهى إليّ صوت مألوف.. ((المطر، المطر، المطر..)) راحت تضج هذه الفكرة اللجوج في أعماق وعيي.. بعدئذ أخذت ترفرف بهالةٍ كبيرة مدماة ثم راحت تسبح بعيداً وتضمحل متحولةً إلى نقطة تكاد لا ترى إلى أن انطفأت أخيراً...

أول ما رأيت بعد أن فتحت عيني ـ وجه بارخومنكو الباكي. كان يمرّر راحته الضخمة على وجنتيّ بخراقة ويتمتم:

- أتسمع، دجاكيلي، كيف الحال ؟.. ما بك يا فتى ؟.. اخجل من الناس على الأقل!.. هيّا، انظرْ إلى هنا.. انظرْ مَنْ هناك!

نظرت شزراً ورأيت... فريدة المبتسمة وبجانبها يقف لوغوفوي.

- أين أنا يا جماعة ؟.. ماذا حلّ بي ؟ - نهضت، تطلعت حولي، وفي الحال أدركت أنّ مطرا غزيرا قد هطل.

ـ صحوت ؟! الحمد لله ـ فرح بارخومنكو ـ أنت في فناء بيتٍ تركي. هو ذا أين أنت! أنت هنا، أيضا قد أصبت قليلاً.. لكن البيت، على أية حال، احترق بكامله، يا أخي.. يا للأسف.. كيف سيبقى الفلاح بلا بيت ؟.. آ ؟..

صحوت تماماً. اتضح لي كل شيء.. كنا، أنا وبارخومنكو ولوغوفوي وفريدة وبقية الجماعة، نقف على أرضٍ غريبة، أمام هيكل البيت المحترق. وفي المكان ذاته، كانت تقبع امرأة متشحة بالسواد تبكي وقد هدّها الهمّ والحزن ـ إنها صاحبة البيت..

مئات الأعين كانت ترمقنا بامتنان. في تلك الساعة العصيبة، كأن المسافة التي كانت تفصل بين الناس، في كلا الجانبين، قد أمّحت.. الأسى الإنساني الكبير قرّب ما بيننا..

تبيّنت من بين الجماهير امرأةً شابة جميلة ذات شامة " إنها زوجة المعلم ".

- مرحباً، سيدتي!

- مرحباً يا أخي!

- هل عرفتني ؟

- طبعاً!

- وما اسمك ؟

- مفنونة.

- ألست مستاءة منّا ؟

- أبدا يا أخ! لولاكم لاحترقت القرية كلها!

- هل خفتِ يا مفنونة ؟

- طبعاً، لكن ها قد مرّ كل شيء.. وأنت يا أخي كيف حالك، أتتألم كثيراً ؟

- لا، يا مفنونة، لم أعد أشعر بالألم..

- ماذا يحصل أيها الأخ.. أكان من الضروري أن يحصل الحريق كي نلتقي ؟

- فلنمضِ يا أفتو - همس إليّ بارخومنكو.

يممت وجهي نحو قريتنا. كانت قريبة جداً منا.. قريبة وحبيبة. كان تشخارتشفيلي يقف قرب الجدول تعباً متسخاً ممزق الثياب. كنّا نسير الهوينى. يسندني بارخومنكو ولوغوفوي. اقتربنا من الرائد بعد أن اجتزنا الجدول. لم يقلْ شيئاً، ربّت، فحسب، على أكتافنا باستحسان وتطلع باهتمام إلى يديّ المحروقتين. بعد أن خطونا أمتاراً عديدة التفتُّ. كان جنودنا يعودون إلى مراكزهم بخطوات هادئة، عملية، تعبين ممزقي الثياب، لكنهم مع ذلك مرحون راضون. اجتازوا النهر حاملين

دلاءهـم ومعـاولهم وبلطـاتهم ثـم صـعدوا الـرابية واصـطفوا وراء قائـدهم صامتين. كانت لوحة مدهشة!..

* * *

أواخـر أيلـول وبداية تـشرين الأول يغصّ الـساحل في كـلا الجانـبين بالـصيّادين. يقفـون، كالتماثيل، مـن الـصباح وحتـى المسـاء تفـصل بـين أحـدهم والآخـر خطـوتان إلى ثـلاث خطـوات. ومـن وقـتٍ لآخـر كانـوا يـدوّرون الخـيوط الحريـرية الطـويلة ذات الأثقـال، مـن فـوق رؤوسـهم، ويقذفونها في البحـر بحـركةٍ قوية ماهـرة. في نهاية الخيط طعمٌ معدني بـرّاق علـى شـكل سمكـة صـغيرة وشـصٌ ثلاثـي المخالـب. مـا إن يهـوي الشصّ في الماء حتى يبدأ الصيادون بسحب خيوطهم بسرعة وسلاسة.

في الخـريف تجـري أسمـاك الـسارغانا نحو الشاطئ ملاحقة أسماك (الستافريدا) و(الخامصا)، طاردةً إيّاها إلى الشطّ.

فبعد أن تطوق أسـراب الـسارغانا حشود الأسماك من جهات ثلاث تنقضّ عليها انقضاض ذئب جائع علـى قطيع مـن الأغنام. مـاذا يحـدث حـين ذاك! يجـيش البحـر ويغلـي كمـا المـاء في المـرجل. وعـندئذٍ يخـرج الـصيادون للـصيد، ويـسحبون، علـى وقـع صـيحاتهم العالـية المـرحة، أسماك السارغانا السمينة البرّاقة تحت أشعة الشمس.

مـن مرصدنا يبدو الـشاطئ كله مـرئيا أمامنـا، كأنـه علـى راحة اليـد. في مـسبح المفـرزة وأمـام الرصـيف الـصغير يرسـو زورقـان: أحـدهما كـبير مخصص للصيد، والآخر أقل حجماً منه لحراسة الحدود. الزورق الأصـغر ملكـنا، بـه يـتفقد المـساعد زودوف والملازم كوروليف الشـاطئ صباح ـ مـساء. أمـا الـزورق الـكبير ملـك الـكولخوز. ثمة في الكولخوز فـرقة صـيد يرأسـها علـي خـورافا. ظـلّ زورق الـصيد طـوال الـصيف مـستكيناً بخمـول أمـام الرصـيف، سـقط الـدهان عنـه، وأصـاب النخـر بضع دفات منه.

اليوم، منذ الصباح، وردت إلى الشاطئ قافلة كاملة من الستافريدا والخامصا. كانت الأسماك المذعورة تصل إلى البلاج مباشرة. وكانت عصبة من الأولاد يجرون في المياه زاعقين، قاذفين إلى الشاطئ بحفناتٍ من الأسماك. بعدئذٍ ظهر أوّل سرب صغير من السارغانا. تفرّس كجاسوس خبير هذا ((السرب الطليعي)) من حشود الأسماك الصغيرة وقفل راجعاً. وبدءاً من الآن انتظر جحافل السارغانا!

أرى فرقة علي خورافا تكدّ حول زورقها - اثنان يبدلان الألواح المتهرئة والبقية يدهنون الزورق باللون الأبيض. فيما كان علي خورافا مع صياد آخر منهمكين بالشباك الضخمة المنشورة على الرمال. يبدو أن الفرقة تزمع على النزول إلى البحر، خلال أيام، للصيد الليلي. وسيقصد علي خورافا الرائد طالباً الإذن - إن أحدا لا يجرؤ، بعد حلول الظلام، على الخوض في البحر دون موافقة تشخارتشفيلي. لكن عليّ.. وهل يستطيع الرائد أن يرفض طلباً لعلي خورافا ؟ يقصد علي البحر قبيل الصباح، وفي الصباح يحضر لطبّاخنا القسم الأفضل من الصيد. أضحى هذا أمرا محسوما كشرب الماء! الكل يعلم في المفرزة: إذا ما نزل علي خورافا إلى البحر - انتظر في الغد شوربة سمك وسمكاً مشويّاً. لذا يرقب الآن بارخومنكو ولوغوفوي استعدادات فرقة علي خورافا راجين من الله أن ينزل الصيّاد القديم إلى البحر في أقرب وقت..

- مساء الخير، أفتانديل دجاكيلي!
- مساء الخير، أيها المحترم علي!
- علمت أنك طليق هذا اليوم.
- أجل، طليق، يا محترم علي..
- بعد غدٍ تنتهي مدة خدمتك، وترجع إلى أهلك.
- أجل، سأسافر أيها المحترم علي!
- مسرور ؟

- بكل تأكيد!

جلس علي على حافة الرصيف ودلّى ساقيه في الهواء، ودون استعجال، أخرج كيس التبغ، عبّأ غليونه وأشعله.

- قد سرحت أسماك السرغانا.

- رأيتها هذا الصباح، أيها المحترم عليّ. كانت الأسماك تلعب.

- سأخرج اليوم ليلاً إلى عرض البحر.

- مع فرقة الصيد ؟

-لا، لا يزال الوقت مبكراً بالنسبة للفرقة، الأسماك لا تزال بعيدة.

- وحدك ؟

- لماذا وحدي، ستذهب أنت معي!

- أنا ؟ كيف أنا ؟

- هذا ما قاله تشخارتشفيلي.

- سمّاني بنفسه ؟

- لا. سمّيتك أنا، فسمح بذلك.

- آ.. ولماذا أنا بالذات، أيها المحترم علي ؟

- أنت تعجبني.. أريد أن أعلمك مهنتي.. كنْ جاهزاً حوالي الساعة الثانية عشرة.. إلى اللقاء!

- شكراً، أيها المحترم علي!

نفض علي خورافا غليونه. وهبط الدرجات الإسمنتية ثم سار على امتداد الشاطئ.

* * *

مخر زورقنا عبر المنطقة المضاءة المرسومة بأشعة المصباح الكشّاف، أجلسُ في مؤخرة الزورق قرب المحرك وعلي خورافا في

مقدّمته يدير لي ظهره. كان البحر يتماوج قليلاً ورذاذ المياه ينعش وجهي بلذة. تلعب الأسماك تحت ضوء الكشّاف، ومن حين لآخر ترتفع عالياً لامعة بلونها الفضي ثم تهوي صافعةً المياه.

أطفأت المحرك بإشارةٍ من علي خورافا. جرى الزورق بضعة أمتار بقوة الاستمرارية ثم توقف وراح يهتز بإيقاع رتيب. انزاحت أشعة الكشّاف إلى منطقة أخرى في العمق. فتح علي خورافا الصرة وفرش في قاع الزورق ستافريدا مقلية، بعض قطع من خبز الذرة وزجاجة من الفودكا. دعاني قائلاً:

- فلنقوِ نفسينا!

- ربما فيما بعد، أيها المحترم علي ؟ فلنصطد ما دام..

- ما زال الوقت مبكراً على الصيد، فالأسماك تسرح قبيل الفجر..

ملأ القرن الصغير واحتساه صامتاً ثم صبّ لي صامتا.. أكل القليل من ذيل الستافريدا. شربت مثله صامتاً ثم أكلت، أيضا، شيئا من الستافريدا.

- يعني ستترك الجيش ؟ ـ سألني.

- أجل، سأتركه، يا علي المحترم.

- وتقول أنك مسرور ؟

- طبعاً، مسرور، لكن من جهة أخرى آسف للفراق..

- ومن ذاك الذي تأسف على فراقه ؟

- هكذا.. ما مِنْ شيء بالتحديد.. قد اعتدت على كل شيء ها هنا، سيكون من الصعب عليّ النسيان..

ـ نسيان أي شيء ؟

بماذا أجيبك يا علي خورافا ؟.. وهل يستطيع أفتانديل دجاكيلي نسيان الليالي الساهرة والأيام المرحة المنصرمة، ها هنا، طوال عامين

كاملين ؟ هل يمكن نسيان شيرينا وبارخومنكو وتشخارتشفيلي ؟ أو تلك المرأة الجميلة (مفنونة) زوجة المعلم ؟ أم البيت الذي احترق في الجهة المقابلة تلك الليلة الرهيبة ؟ أم أنت بالذات: علي خورافا، العجوز الطيّب الحكيم ؟ أم.. فريدة ؟.. كيف سأشرح لك هذا كله يا علي المحترم ؟ ثم ماذا تعني لك معرفة ذلك ؟..

- عموماً، كل شيء.. ليس سهلاً نسيان عامين كاملين ـ كررتُ القول.

- وكم عمرك يا بني ؟

- قريباً سأتم العشرين.

- عشرون سنة ليست بالقليلة ـ قال ذلك وبدأ يعبئ غليونه ـ لكنك لم تجبني: مَنْ ذاك الذي تأسف على فراقه ؟

رفع علي خورافا رأسه ونظر إليّ بثبات. كان وجهه النحيف المضاء بنور القمر والمقطّع بتجاعيد عميقة يذكّر بالتماثيل الحجرية. كانت عيناه توحيان بفكرة دفينة. طعنني الشك.

- أيها المحترم علي ـ بدأتُ كلامي بحذر ـ ثمة ما لم تقله.. قلْ بصراحة..

بدا واضحاً أنه لم يكن يتوقع مثل هذا السؤال لذا ارتبك، وكي يخفي ارتباكه بدأ يشعل غليونه ثم قال بصوت خافت:

- أنا انتظر أن تقول كل شيء بنفسك.. أنتظر منذ مدة.

- ماذا تنتظر يا علي المحترم ؟ - قلت بصوتٍ مرتفع.

- تلك الفتاة، الفتاة المسكينة.. ـ قال علي وقد ارتجف صوته. برد جسمي.

- يا علي المحترم.. أما كان بإمكانك أن تحدثني بهذا في البيت ؟ لماذا أتيت بي إلى البحر ؟

- البحر هو بيتي يا أفتانديل دجاكيلي.. البحر نظيفٌ، نظيف أكثر من أي شيء آخر في الأرض. البحر لا يتحمّل الغبار والأوساخ والنفايات.. إنه يطهر نفس الإنسان وجسده ويطرح الأقذار على شاطئه.. انظرْ - وغرف علي خورافا براحته من ماء البحر ثم سكب الماء في الهواء ولمع الرذاذ المكتسب لون الفوسفور، كالحباحب في الظلام - إن ما سأقوله لك حقيقة جليّة كالبحر.. ويجب أن أسمع منك الحقيقة لا غير.

- حسن، أيها المحترم، سأقول لك كل شيء.. لقد دخلت بيت فريدة وخرجت منه طاهراً نظيفاً كالبحر.

- القرية لا تعرف شيئاً من هذا، القرية لم ترَ ما فعلت في ذلك البيت..

- أقسم لك يا علي، أقسم بأمي!

- فريدة ابنة قريتنا، شرف قريتنا، وذاك الذي سينزع عنها ثوب الحداد يجب أن يصبح ابن قريتنا بشرف.

- أحب فريدة أكثر من حياتي.

- ومتى تسنى لك ذلك ؟ كم عاشرت لتحب بهذا المقدار ؟

- أيها العم علي.. يا علي المحترم.. — واختفى صوتي، تخشب لساني، اغترفت بيدي حفنة من الماء وشربتها. حرق الماء المالح حلقي.

- مازالت الحياة بكاملها أمامك يا بني، أما فريدة فقد عاشت نصف حياتها. أنت لا تزال صبياً وفريدة أرملة.. تحتاج فريدة لراعٍ قوي وفيّ وأنت ما زلت تحتاج للرعاية.. فريدة ينقذها الحب الحقيقي، أما أنت فالحب بالنسبة إليك تجسده امرأة جميلة.. فريدة امرأة بسيطة ريفية ولن تكون سعيدة أبداً معك في المدينة.. أعرف أنك شاب شريف طاهر، لكنك ما زلت فتيّاً. أنت لم تصارع عواصف البحر بعد، والبحر لم يتطلب روحك! أنت لم تقع بعد في شدق الحوت، ولم تخرج من أحشائه سليماً.. أرجوك: تغلّب على أعوامك العشرين.. اقهر رغبتك، وارجع إلى بيتك بسلام! هذا هو الأفضل، ثق بذلك! لكلٍ في هذا العالم قرين،

والإنسان أيضاً يجب أن يبحث عن قرينه.. انظر إلى السماء: القمر يسعى ليل ـ نهار وراء الأرض، وأمّنا الأرض تنتظر كل صباح شروق الشمس بفارغ الصبر.. أليس كذلك يا بني!

وصمت علي خورافا.

- أيها العم علي، أيها العزيز المحترم ـ بدأت حديثي جاهداً ألا أبكي ـ فريدة بالنسبة إليّ كل شيء! أحبها كثيرا بقدر ما يستطيع الإنسان أن يحب.. أنا لا أتخيل حباً أكبر وأفضل من حبي لها.. إذا فقدت فريدة.. لا تفعلوا هذا ـ أيها المحترم علي، لا تهلكوني، لا تحولوا بيني وبين سعادتي!..

دفنت رأسي بين ركبتيّ ورحت أنشج. بكيت طويلاً. ثم أحسست بيد علي خورافا القوية تلامسني. راح العجوز يداعب رأسي بحنان كما يداعبون طفلا باكيا، ضائعاً في الشارع.

- لا، يا بني، لا. أنا لا أحول بينك وبين السعادة بأي شكل. والله يشهد أنني لا أريد هلاكك.. مجرد أنني مجرّب، أتنبأ عن الجو بشكل جيد وأريد أن أنذرك يا أفتانديل دجاكيلي: غداً ستهب عاصفة بحرية، وستخرج المياه عن شواطئها، فاحذر أن تغرق يا بني!. هذا كل شيء. والآن امسح دموعك أيها الجندي!، هيّا أدر محركك. لأول مرة في حياتي أعود بلا سمك.. هيّا يا بني لا تتلكأ، فبعد ساعة ستبدأ العاصفة.

حكيم أنت وخبير يا علي خورافا! قد خمّنت: غداً ستجتاح عاصفةٌ البحر، سيمور البحر وستخرج المياه عن شطآنها. لكن أفتانديل دجاكيلي لن يغرق. فليطلب البحر روح أفتانديل دجاكيلي ـ لن يسلمّها إليه! لن يقع أفتانديل دجاكيلي في شدق الحوت، زورقه يشق طريقه نحو الشاطئ.

أفتانديل دجاكيلي ممتن لك يا علي خورافا!

كان بارخومنكو ولوغوفوي ينامان نوم الأموات. استلقيت فوق السرير دون أن أخلع ثيابي. كان الدم يضج في صدغي وأذناي تصويان.

أطبقت أجفاني، وفي الحال تشكل أمامي رتلٌ من الصور المألوفة. كانت تقترب وتبتعد ثم تختلط. ثم اختفى المشهد للحظة وبدأت الأرجوحة المعروفة تفتل فجأةً وتدور. لكن بدلاً من الفيلة الخزفية كان الجميع، بما فيهم أنا، يجلسون في زوارق، وكان البحر الهائج يقذفنا إلى ارتفاع مخيف فتذوب الزوارق في الأمواج المزبدة ثم، مرة أخرى، نظهر من جديد. نعتلي قمم الأمواج الهائلة وهكذا دواليك..

أمي.. أبي.. آبو.. الجد.. العم فانتشكا.. دادونا.. فريدة.. شيربينا... مفنونة.. كانوا يرتفعون عالياً حتى النجوم ثم يهوون كالنيازك مختفين في لجج البحر. وها هو زورقي بقي على قمة إحدى الأمواج وحيداً.. قذفته الموجة عالياً – عالياً. بحيث أحسست حرارة النجوم الوامضة. مددت يديّ راغباً في القبض على إحداها ـ وهنا اختفى الزورق من تحتي، وبقيت معلّقاً في السماء مادّاً يدي نحو النجوم.. أطبقت جفني وقد تملكني الذعر.. حملتني الرياح طويلاً على أجنحتها عبر الفضاء اللامحدود، من نجمة إلى نجمة وحيثما حللنا كان السكون والبرد المميت سائدين، وظلت الرياح ترمح باحثة عن النجمة التي يمكن أن تأتمنها على حياتي ومصيري...

* * *

كانت فريدة تقف في الحديقة. تنقل على مهلٍ ثمار الماندرينا من حضنها إلى سلّة من القصب كبيرة. اقتربت منها ودون أن أحييها جلست قرب السلة على الأرض. بعد أن انتهت من عملها نفضت ثوبها وجلست. لم يعد بيننا سوى السلة الملآى. أخذت فريدة تنظف الماندرينا.

- سأغادر ظهر اليوم.

لم تردّ.

- بالأمس اصطحبني علي خورافا إلى البحر.

فقالت:

- جاءت السارغانا.

- أجل، جاءت السارغانا، لكنه لم يركب البحر طلباً للسمك.

تحفزت فريدة. وصمتُ. لم تتمالك نفسها فسألت:

- ماذا كان يبغي ؟

- علي خورافا رجل ذكي، يعرف كل شيء.. ـ صمتُ. كانت أصابع فريدة تقلّب وتضغط على ثمار الماندرينا بعصبية.

- قال علي خورافا ـ تابعتُ كلامي ـ فريدة شرف وبنت القرية وأنني ما زلت فتيّاً ولا أقوى على حب فريدة وأن عليّ أن أقهر نفسي وأغادر من دون فريدة..

بعد أن انتهت فريدة من أمر الماندرينا، نهضت عن الأرض وبدأت تنتف غصناً من أغصان الشجرة. امتد الصمت بضع دقائق.

- كان علي خورافا عندي أيضاً ـ قالت فريدة أخيراً.

- ماذا كان يريد؟ - سألتها وأنا أشعر أن قلبي قد قفز إلى حلقي، وبدأت الدماء تضجّ في صدغيّ.

- يريد علي خورافا أن تكون فريدة سعيدة. وهو يعرف أنك إنسان طيب وأنك يتيم وما زلت فتيّاً غضّاً وهو يخشى ألاّ تقوى على حبي..

- وأنت ؟ أنت أيضاً تخشين ؟ - سألتها وقد تجمدتُ في انتظار الجواب.

- نعم، أخاف ـ قالت فريدة بعد صمتٍ طويل.

لحست شفتيّ الجافتين. مددت يدي آلياًإلى الماندرينا غير المقشرة. أعاد إليّ العصير الحامض ملكة النطق.

- ولماذا يا فريدة ؟

- لا أدري يا أفتو..

- وماذا قال علي خورافا أيضاً ؟

- ((إذا كنت تحبين هذا الشاب وإذا كنت واثقة أنه لن يستطيع العيش بدونك، ناشدتك الله أن تذهبي معه، كوني صديقة وراعية طيبة له!..)) هذا ما قاله علي خورافا.

- وأنت بماذا أجبت ؟ - ارتجف صوتي.

- أنا ؟ أجبته.. - ثنت فريدة يديها ثم نظرت إليّ بعينين مليئتين بالدموع - اذهب - يا أفتانديل دجاكيلي، اذهب في طريقك، لا تعذبني..

- فريدة! لا أدري ماذا تقصدين أنت وعلي خورافا بالحب الحقيقي.. أعرف أمرا واحداً : لم أحب يوما ولن أحب أكثر مما أحبك.. ولن أستطيع العيش بدونك!

- اسمع أيها الشاب، ماذا تريد مني ؟ ارحمني! ها قد مرّ عامٌ وأنا لم أعرف الهدوء فيه والنوم.. أتريدني أن أحرق كل شيء وأرمي بنفسي في البحر ؟ ارحمني واذهب!..

- إذا كنت لا تحبينني قولي هذا بنفسك! أنا لا أصدق أحداً غيرك. قولي لي بنفسك ((أفتو، أنا لا أحبك)) وسأذهب.. سأذهب الآن!..

- اذهب، يا أفتو.. إذا كنت تحبني، اذهب!..

نهضت واتجهت نحو البوابة دون كلام. خرجت إلى الطريق والتفتّ للمرة الأخيرة: كانت فريدة تجلس في المكان ذاته دافنةً رأسها بين ركبتيها. كان كتفاها يهتزان..

* * *

عندنا، في السرية، قانون غير مكتوب: يُقيمون على شرف المجند المسرّح غداء احتفاليا. وبطبيعة الأشياء، هذا ما حصل يوم مغادرتي.

هيئوا في المطبخ غداء مميزاً. حضّروا سطل النبيذ. أجلسوني، وقد ارتديت بزّة المراسم، خلف منضدة الضباط. شربنا ثلاثة أنخاب: نخب قواتنا المسلحة، نخب مفرزتنا ونخبي.. وفي الكلمة الجوابية أقسمت بلهجةٍ احتفالية أن أبقى مخلصا لقسمي ما دمت حيّاً، وأن أكون جنباً إلى جنب مع رفاقي في الدفاع عن الوطن عند أول نداء له. ثم ودعت زملائي متلقياً ركلة من كل واحد منهم.

جاء دور الضباط شدّ ((كوروليف)) و((بافلوف)) على يدي مبتسمين.

وأخيراً اقتربت من تشخارتشفيلي.

- أتغادر، أيها الشاب ؟ - سألني وهو يربّت على خدي.

- أغادر، أيها الرفيق الرائد.

- حسن، امضِ. لن أستبقيك ولا أستطيع.. فلنودع بعضنا ـ واحتضنني من كتفيّ وقبّلني ـ فلتلازمك السعادة يا فتاي!

- شكراً، أيها الرفيق الرائد!

- زوبوف! ـ صرخ تشخارتشفيلي وهو يتجه نحو الإدارة ـ أخرج سيارة الوليس!

- أيها الرفيق الرائد! ـ لحقت بتشخارتشفيلي.

- ماذا تريد يا دجاكيلي ؟

- اسمحوا لي أن أتقدم بطلب!..

ـ حسنٌ، حسن، ما الأمر ؟

ـ لي رجاء عندكم..

ـ هيا، قلْ!

- أعطوني ميرابتشيك!

- مَنْ ؟

- ميرابتشيك، ديسمنا.

- كيف هذا ((أعطوني)) ؟

- اسمحوا لي أن أصطحبه معي.

- إلى أين يا دجاكيلي ؟ إلى البيت ؟

- أيها الرفيق الرائد، قريباً سيحل الشتاء. أعرف أن زودوف سيأمر بذبحه ليلة رأس السنة.. سآخذ الدبيّب وأسلمه إلى حديقة الحيوانات في باطومي.. أرجوكم، أيها الرفيق الرائد!

- تقول: إلى حديقة الحيوانات ؟

- أجل، بكل تأكيد.

صمت الرائد قليلاً ثم صرخ:

ـ غوروخوف! استدعوا غوروخوف!

بعد دقيقة جاءنا الطباخ.

- غوروخوف، أعطِ الدّب لدجاكيلي! سينقله إلى حديقة الحيوان.

- أيها الرفيق الرائد! ـ قال غوروخوف متوسلاً ـ لقد أطعمته طعاماً خاصاً.. كيف هذا ؟

- نفذ الأمر!

جرى غوروخوف إلى المطبخ.

بصعوبة أدخلوا الديسم في السيارة. احتل بارخومنكو ولوغوفوي المقاعد الخلفية من الجانبين، وجلست أنا، كبطل اليوم، قرب السائق.

انطلقت " الويلس " ببطء ثم زادت من سرعتها بعد أن اجتازت المدخل، واستوت على الجادة.

كان ميرا بتشيك يهرّ بصوت خفيض ويلحس، من حين لآخر، رأسي.

- اسمع يا دجاكيلي، غيّر اسم عائلتك، اتخذ اسم ((زاباشني)) أو ((دوروفي)) [1] أو ماذا يمكن أن يُدعى ذاك الذي يقود الدببة ؟.. ـ قال لوغوفوي ساخراً.

ثم حذرني بارخومنكو:

- أفتو، لا تكن غبياً، إياك أن تفكر بتسليمه إلى حديقة الحيوان!

- وأين أذهب به ؟

- كيف ((إلى أين)) ؟ فأنا أعلم أنك لن ترى المعهد تماماً كعجزك عن رؤية أذنيك! اشترِ دفّاً جميلاً وقُدْ هذا الدب عبر شوارع تبيليسي، وستصبح غنيا!

- أبله، لماذا أُعطي هذا الدب النتن لك ؟

- هذا فوق مستوى عقلك!

وصلنا إلى حاجز الطريق.

ـ ستوب، أيها الشباب! والآن إلى الوراء دُرْ!

ترجل الشباب من السيارة وبصعوبة أخرجوا الدب الحارن.

- حسنٌ، وداعاً يا دجاكو!

- وداعاً أيها الشباب!

- لا تنسنا!

- ما لكم تنوحون ؟ فأنا لم أمت بعد!

- اكتبْ رسائل لنا!

- سأكتب لكم!

- والآن، استدرْ!

---

[1] زاباشني: الفلاحي، دوروفي: الغبي. ـ المترجم.

- لكن، لا تضرب يا بارخومنكو، فقد تُميتني!

- الموت قليل عليك!.. تغادرنا أيها السافل!

- حسن، يا شباب، الوداع!

- فلتلازمك الصحة، دجاكو!

- اي.. ي.. كفاك.. هاك خذ منديلاً!.. هيا، امضوا، أيها الشياطين!

- وداعاً!

- وداعاً!

صعد بارخومنكو ولوغوفوي إلى السيارة. هدرت الويلس ونخرت ثم أقلعت فجأة من مكانها بعد أن غطتني بالدخان.

هزّ ميرابتشيك جسمه، لعق شفتيه، عبّ الهواء عبر منخريه ثم سار وئيداً في الطريق متوجها نحو القرية، جاراً السلسلة وراءه.

- إلى أين، أيها الأبله؟ - لحقت بالديسم وأمسكت بالسلسلة.

زمجر ميرابتشيك ممتعضاً، أقعى على قائمتيه الخلفيتين وراح يعض على السلسلة.

- انهض، انهض، أيها الأحمق!

لم يحرك الديسم أذنا[1]. عندئذٍ أخرجت من جيبي قطعة من السكر وأريته إياها. دوّر الديسم بوزه ومدّ رقبته ودقّ بقوائمه مطالباً بالسكر. عدتُ إلى الوراء ببطء. نهض ميرابتشيك وسار في إثري.

- ماذا، أيها المحتال، لا تريد المشي دون رشوة؟ هاك، كلْ، تعلّفْ.

أدرك قطعة السكر وهي في الهواء، ومضغها بلذة.

---

[1] لم يحرك ساكنا، وقد آثرت تقديم العبارة كما وردت في الأصل حرصا على خصوصية اللغة الروسية ـ المترجم.

- فلنمضِ الآن.

مشى ميرابتشيك بجانبي مطواعاً.

مشينا طويلاً عبر الجادة. ومن وقتٍ لآخر، كان ميرابتشيك يتطلع نحوي متفحصا، ملحاً على السكر.

اقتربنا من النبع. أنعشت نفسي متلذذاً بالماء البارد وانخرط الدّب الصغير بلهفة في الينبوع. بعدئذٍ استلقى بجانبي وراح يغرز بوزه المبلل في يدي طالباً الضيافة. وضعت في شدقه قطعة من السكر، التقف ميرابتشيك يدي مع القطعة وشدّ عليها بحذر، شاكراً لي بطريقته الخاصة. وبعد فترة وجيزة نظر إليّ مرة أخرى.

- ألديك المزيد من السكر ؟

- لديّ، أيها الأحمق، لديّ. انظر، جيب مليئة، كلها لك، اطمئن!.. هل تدري إلى أين أقودك ؟

لم يكترث بذلك.

- إلى حديقة الحيوان، هاك إلى أين! أتدري ماذا تعني حديقة الحيوان ؟

لم يعرف ميرابتشيك.

- لا تدري، قريباً ستدري.. سيضعونك في قفص.. سيطعمونك ويسقونك ويدلّلونك.. وسيأتي إليك الضيوف أيام الآحاد ـ الأبناء مع آبائهم.. سينطّون حول قفصك ويمرحون ويضيّفونك الشوكولا. كن حذرا، لا تخطئ، فقد يدسوّن لك الحجارة مغلفة بأوراق الشوكولا الجميلة، لا تزعل. ففي طفولتي خدعتُ الحيوانات، أنا أيضا..

ستمل، طبعاً، لكن ليس في اليد من حيلة، يا أخ! قد يحضرون إليك ميرابتشيك آخر. عندئذٍ ستصبح الحياة أكثر مرحا.. أتريد الذهاب إلى حديقة الحيوان ؟

- أريد سكراً!

ضيّفته السكر، فشكرني ميرابتشيك بهزّة من رأسه.

- عبثاً ترفض حديقة الحيوان.. ستعيش، أيها الأخ، كوزير، لن يسمحوا لأحد بزيارتك دون إذن - أي بلا بطاقة.. وسيعلقون على قفصك صورتك وبطاقة عنك:

- ((الدب القفقازي البني((ميرابتشيك)).العمر: سنة واحدة. يعيش في جبال أدجاريا. يعمّر بشكل طبيعي من 15 -16 سنة وفي حالة الأسر من 10 -12 سنة. يتغذى بالأعشاب والخضار والعسل والثمار البرية. ساعات الزيارة من الواحدة وحتى الخامسة. لا تقترب منه كثيراً، لا تمدّ يدك عبر قضبان القفص.لا تتحرش به))

((إدارة حديقة الحيوان))

وأي ضير في حياة كهذه، آ ؟ فكّرْ ـ ستجوب الغابة بحثاً عن الطعام، والشيطان يعلم مَنْ ستخالط!.. أما هنا فستعيش على ما يحضره لك غيرك. أتستحق سنتان أو ثلاث زائدة أن تزهق روحك من أجلها ؟ ثم، على أية حال، لن تستطيع العيش هناك، فقد فقدت غريزتك ـ تربية مغايرة.. في الحديقة لن يزعجك كلب أو أحد من أبناء الكلاب.. هل تسمعني ؟

كان ميرابتشيك يستمع إليّ. أطعمته سكراً. استلقى الدبيب على ظهره نافراً كرشه.

- ماذا ؟ هل أحك لك ؟ آه، أيها البطّال. شره أنت وكسول يا عزيزي.

حككت صدر ميرابتشيك. أغمض عينيه، وأنّ من اللذة.

- فلنمضِ الآن، سأسلمك إلى حديقة الحيوان.. سنودع بعضنا.. ربما عدتُ بعد عام إلى هنا. هل ستعرفني ؟

- سأعرفك، سأعرفك.. لكن حكّ لي كما يجب!

- أتتصور ما سيحدث ؟ رجل في قفص الدب! دبٌّ يداعب إنساناً،

آ ؟ سيجنّ الناس استغراباً!

- سيجنّون، سيجنّون!

تطلعت إلى الساعة.

- اي.. ي، أيها الأخ، قد لهونا ساعة كاملة، انهضْ، ولنمضِ!

نهض ميرابتشيك، انخرط في الجدول. ثم خاض في المياه متمهلا، متجها نحو أعلي الجدول، فتبعتُه.

خرج ميرابتشيك إلى الضفة الأخرى. نفض الماء عن جسمه وراح يشمّ الأوراق الكستنائية التي غطت الأرض بسجادة ناعمة. وفجأة راح يتدحرج على الأرض وينبشها بقوائمه وبوزه مزمجرا زمجرة هائلة. تقلب طويلاً. أرغى وأزبد ثم استلقى واضعا رأسه على قائمتيه الأماميتين ونظر إليّ بعينيه نظرة جعلتني أرتجف دون شعور مني.

- ما بك، ميرابتشيك ؟ ماذا حصل ؟

تنفس الديسم بصعوبة وراح يتحرك قلقاً ويهرّ شاكياً. ماذا حصل له ؟ أي شعور مجهول، لم يُكتشف بعدُ، اعترى روحه الدبيّة ؟

اقتربت منه بحذر، فككت الطوق عنه وقذفت بالسلسلة بعيداً.

- اذهب، ميرابتشيك، اذهب إلى الغابة!

لم يتحرك الديسم من مكانه. أخرجت ما تبقى في جيبي من سكر وألقيته أمامه على الأرض، لكنه لم ينظر مجرد النظر إلى السكر. عند ذاك تناولت حقيبتي وتوجهت نحو الجادة فتبعني. كان منظره ينمّ عن الحيرة.

- اذهب، ميرابتشيك، اذهب إلى الغابة. أنت حرٌّ طليق، اذهب يا صديقي الطيب.

بعد أن خطوت عشرات الخطوات، التفتّ. كان الديسم يسير ورائي مطواعاً. جلست القرفصاء أمامه، أمسكته برأسه ومسحت أنفي بأنفه البارد.

- حسنٌ، قد ودّع أحدنا الآخر، فاذهب الآن، اذهب إلى الغابة، دفعته بلطف ثم نهضت. وفي الحال وقف على قائمتيه الخلفيتين ثم مشى باتجاهي.

- ميرابتشيك، أنت ستجنني!.. حسن فلنتعانق! لكن انتبه عانقني بحذر – فتح الدب قوائمه وتعانقنا.. مسّدت على ظهره فدفن بوزه في وجهي، لحس وجنتي وفمي ثم برطم شاكياً بشيءٍ مبهم.

- كفى ميرابتشيك، لا تدفعني للبكاء.. اذهب، اذهب في طريقك!

نزل على قوائمه الأربع، استدار واتجه ببطء نحو الغابة ثم حثّ خطاه وأخيراً جرى لا يلوي على شيء. وسرعان ما اختفى بين الأحراج.. لم تعد تُسمع سوى فرقعة الأغصان الجافة. وأخيراً ساد الصمت..

وما إن قطعت حوالي ثلاثمئة متر حتى تناهت إليّ رشقة طويلة من بندقية رشاشة.

تسمّرت.

- ترا – تا – تا – تا.. – تكررت الرشقة ثم ساد الهدوء.

ألقيت بالحقيبة وجريت مندفعا نحو مصدر صوت البندقية الرشاشة. اجتزت السفح المغطى بالغابة الكستنائية محبوس الأنفاس ووصلت راكضا إلى مرجٍ صغير ضمن الغابة. عند طرف المرج كان يزحف شخص على أطرافه الأربعة. ركضت نحوه.

- ياشين ؟ ماذا تفعل هنا ؟

- أبحث عن الطلقات الفارغة.

- وعلام أطلقت النار ؟

- أتعلم.. كنت أمشي، أتفحص المجموعة.. فجأة رأيته يخرج من الغابة ويتجه نحوي.. على قائمتين وكأنه إنسان.. انظر ما أضخمه، من حسْن الحظ أنني انتبهت إليه في اللحظة المناسبة... غير بعيد منّا كان

ميرابتشيك ملقى على ظهره. ومن شدقه المفتوح كان الدم لا يزال يسيل.

- لمَ قتلته ؟ - سألت ياشين بصوت بدا غريباً عليّ أنا نفسي.

- وكيف لا ؟ أرى دبّاً يتجه إليّ مباشرة..

- أي دب هذا، أيها الأحمق ؟ إنه ميرابتشيك.

أرخى ياشين فكّه الأسفل دهشةً وسقط على الأرض.. ومن المرصد علا ضجيج، وسرعان ما جاء إلينا حراس الحدود.

- دجاكيلي.. لم أدر.. أقسم بالله.. اعذرني.. – تمتم ياشين وقد شحب لونه.

- حسن، ما حدث قد حدث.. الوداع!

* * *

بعد نصف ساعة أوصلني الباص إلى باطومي. كان القطار ينطلق في الثانية عشرة ليلاً.. أمضيت الساعات الخمس المتبقية متسكعاً في المدينة. وأخيراً لم أتحمل فقصدت المحطة ورجوت الجابية أن تسمح لي بدخول العربة قبل انطلاق القطار بساعة. دخلت المقصورة ودون أن أخلع ثيابي، انطرحت على السرير...

انطلق القطار على حين غفلة. قعقع في البداية وسرى التشنج عبر عرباته، وبعدئذٍ انطلق القطار بقوة وأخيراً دارت العجلات بانتظام مسرعة في جريها، طارقة الفواصل.

لم يكن أحد سواي في المقصورة. أطلت الجابية عليّ:

- أيها الشاب، ألا ترغب بعدة السرير ؟

- لا.

- اعذرني.

- أرجوك بحرارة ألا تدخلي أحداً من المسافرين إلى مقصورتي، إذا أمكن ذلك!

- تكرم! العربات شبه فارغة.. أرتج الباب.

- شكراً.

- أين أوقظك ؟

- ولا في أية محطة!

- ليلة سعيدة!

- شكراً.

كانت طرْقات العجلات الإيقاعية، المتعددة النغمات تخدّر الأفكار وتهدهد للنوم.

وكان التعب والتوتر وانفعالات اليوم قد طوّقت جسدي كما العنكبوت.. خُيّل إليّ، وقد تملكتني لذة النوم، كأنني أطير نحو الأعالي. كان المصباح الأزرق في سقف المقصورة يشع ألقا أزرق، ناعما حنونا، ما لبث أن اتسع وامتد تدريجياً حتى شمل كل شيء وأغرق السماء والأرض بلون لازوردي.. ثم أخذتني موجات خفيفة لبحر أزرق. زررت عيني وغطست بلذة في المياه الدافئة. وابتلعتني الزرقة اللامحدودة..

.. دخلتْ، كما لعشر سنوات خلت، ممشوقة القد، جميلةً، زرقاء العينين، بخصلات شعرها الأسود ــ المائل للزرقة، المسدلة فوق كتفيها، رشيقة، خفيفة، بثوبها الطويل الزاهي. دخلت وداعبت جبيني بيدها الدافئة البيضاء.

- مرحباً يا بني!

- مرحباً، ماما!

- كيف حالك يا ولدي ؟

- لا أدري يا ماما..

- جيد ؟

- تارة جيد وتارة سيّئ..

- هـذا مـا يجـب أن تـكـون عليه الأمـور. ففـي العـالم لا يوجد جيدٌ صرف ولا سيء صرف.

- ربمـا كـان الأمـر هـكـذا يا مـامـا..

- ألديك مصـاعب أو شـكـوك ؟

- لـدي يـا مـامـا. لـكـن ما هـي ؟ لا أدري.. ثمة الـكـثير ممـا لا أفهم.. أفكـر: هـا قـد فهمـت أخيرا ،هـذا.. وفجـأة أدرك أنـني لم أفهـم شـيئا مطلقاً..

أفكـر: هـو ذا الحـب الحقيقـي.. وفجـأة أرى أنـه لـيس حـباً أبـدا... وعلـى العـكس: يصادفني حبٌ لم يخطر ببـالي قط، ثم يتضح لي أنني لا أسـتطيع العـيش دونـه.. وأيضـاً أتخـوّف أحـيانـاً مـن شـيء أتهيّبه، وفجـأة يتضـح - مـا مـن شـيء يدعـو للخـوف.. والأسـوأ من هـذا كلّه، يا مـامـا، أنـني أثق بنفسـي وبقدراتي، لـكـن عند المحك يتبين أنني أخشـاهـا، وكـم أخشـاها!.. فهم هـذا كـله صعبٌ عليّ، يا مـامـا!..

- أنت مـا زلت فتياً يـا ولـدي..

- أية فتوّة يا مـامـا ؟ قريبـاً سـأبلغ العشرين.

- عشرون ـ ليست بالشيء الـكـثير يا بني.

- لـكـنها ليست قليلة يـا مـامـا!

- في مثل سنك، عانيت، أنا أيضـاً، صعوبات..

- لا أدري، لا أدري يا مـامـا.. أنا محتاج إليك.

- ولهـذا أتيتُ يـا بني!

- ولن ترحلي ؟

- لن أذهـب مـا لم أعلم: بمـاذا يفـكـر لحمي ودمي، إلى أين يمضـي وعلام يعيش؟!

- لم أفهم يا مـامـا..

- عليك أن تعرف لماذا وُجدتَ وأية مهنة ستختار..

- لا أدري مـا سـأكـونه، لـكـنني أريد أن أكـون..

- مَنْ ستصبح ؟ وما الصفات التي يجب أن تتحلى بها ؟

- أريد يا ماما.. أريد أن أصبح قوياً كجدي ايسيدر..

- هذا لا يكفي يا بني!

- طاهراً ومستقيماً كأبي..

- هذا لا يكفي يا بني!

- شريفاً كالعم فانتشكا.. طيباً ومحباً كالدب ميرابتشيك.. ذكيا كعلي خورافا.. مخلصاً لواجبي، متفانيا في سبيله كشيربينا.. شجاعاً ونبيلاً كتشخارتشفيلي.. خيّراً وطيب القلب مثلك يا أمي.. هل هذا كثير ؟

- هذا حسن، يا بني، وهل ستقوى عليه ؟

- أريد أن أقوى عليه.

- حسن. هذا كله مستقبلاً. أما الآن ؟ من أجل أي شيء تحيا ؟ ماذا تحب ؟ إلامَ تطمح ؟

- أحب الحياة يا ماما. أريد أن أحيا، أن أحيا طويلاً كي أتمكن من تحقيق أهدافي.. وأيضاً أحبّ أن أحلم يا ماما.. لكن ما هذا ؟ القطار يهوي في الظلمة.. إنه نفقٌ يا ماما.. لم أعد أراكِ.انتظري.سنخرج من النفق إلى النور.. حينئذٍ سأقول لك، يا ماما، ماذا أحب أيضاً..

- اطمئن يا بني، لقد فهمتك.. والآن سأمضي.

- لا تذهبي، لا تتركيني يا ماما!

- لا يحق لي البقاء، عليّ أن أذهب.

- هل ستعودين إليّ يا ماما ؟

- بكل تأكيد، يا بني. اندهني عندما تضيق الأحوال بك، وسآتي إليك يا بني!

- إلى اللقاء يا ماما!

- حافظ على نفسك!.. لا تهلكني يا ولدي الحبيب!

- لا تخافي يا ماما!

ومرة أخرى لامست جبهتي بيدها الدافئة البيضاء.. واختفت تاركةً لي دفء حبها العظيم، ذاك الدفء الذي كانت تهبه لصبيّها الصغير، النائم منذ عشر سنوات خلت، ذاك الدفء الذي أمدّني بالحرارة طوال السنين الماضية..

استيقظت. كانت الزرقة اللامحدودة الغامرة لكل شيء لا تزال تتماوج فيما حولي. ثم راحت تبهت تدريجيّاً وتضيق إلى أن تمركزت في نقطة واحدة. فلاحظت في السقف المصباح اللامع بنور أزرق ناعم.

على السرير المقابل كانت تجلس امرأة غريبة، تتطلع عبر النافذة مستندة بمرفقيها إلى سطح الطاولة الصغيرة.

- عفواً، أين نحن ؟ - سألتها.

أجابتني:

خرجنا من النفق!

.. خرجنا من النفق.. خرجنا من النفق.. رنّت مئات الأجراس.. صفّرت مئات القطارات.. خرجنا من النفق.. خرجنا من النفق.. اختلط الرنين بالضجيج والصفير في دوي موحد مديد..

بوم.. بوم.. بوم.. خرجنا من النفق.. يا إلهي أحقاً كان هذا، كله، حلماً ؟ ولماذا هو حلم ؟!

قفزت من السرير. لم يكن أحد في المقصورة.. كان الضوء الأزرق قد شحب فيما حولي، وكذا شحب الليل خلف النافذة.. في حين كان القطار يرمح نحو الشرق. أطلّ الصباح..

بوم.. بوم.. بوم.. خرجنا من النفق.. أفتانديل دجاكيلي، خرجنا من النفق!..

كان قلبي يدقّ ويدوي بعنفٍ كناقوسٍ عملاق، فوق قبة أجراسٍ عالية..

غولريبش – تبليسي
عام 1969